« حول العالم فى كتب »
بإشراف الدكتور عز الدين فريد

(٧)

إسبانيا
شعبها وأرضها

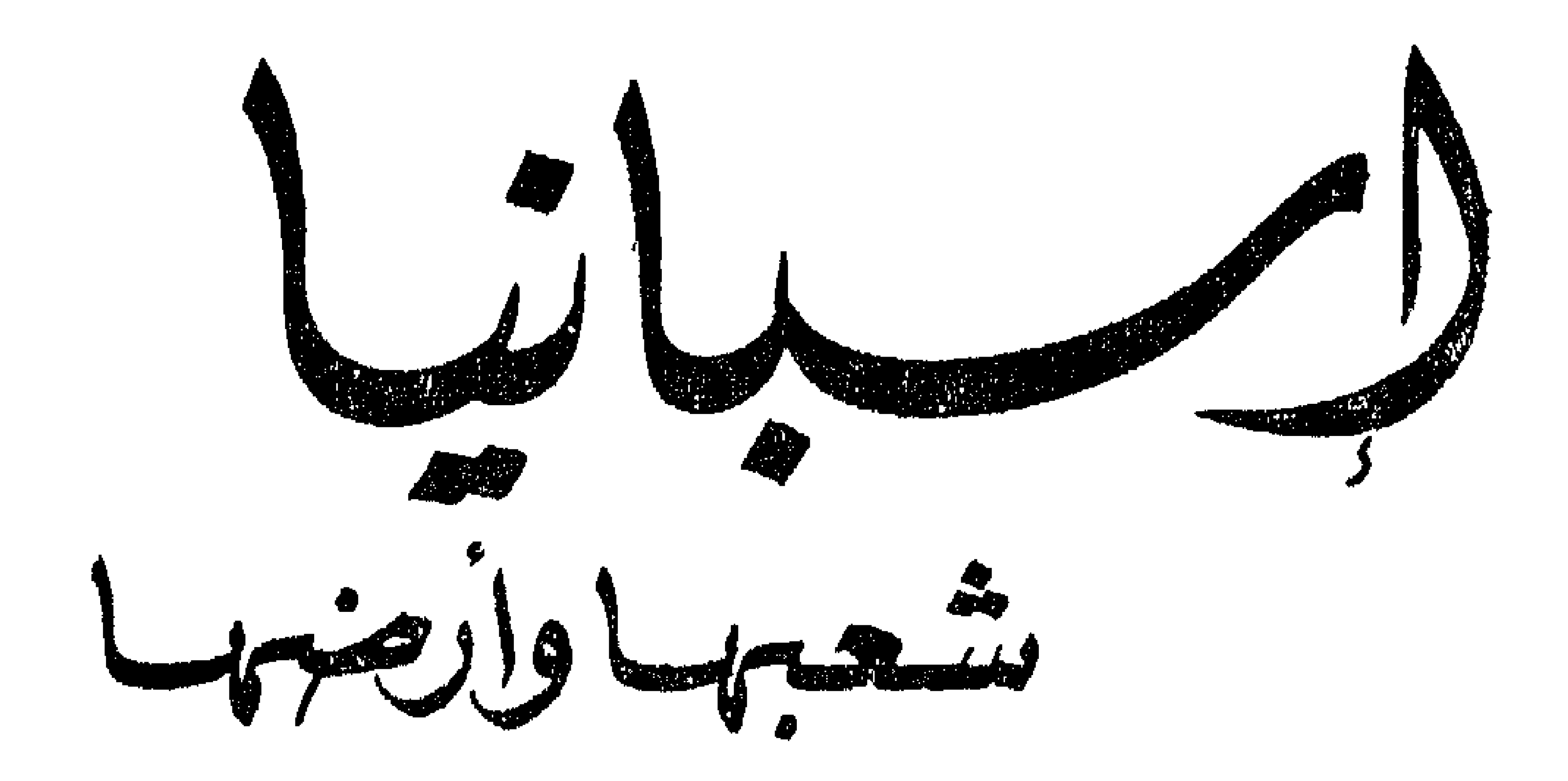
نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسســـة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهـــرة ــ نيويورك

ديسمبر سنة ١٩٦٥



تأليف

دوروثي لودر

ترجمة

طارق فودة

مراجعة وتقديم

الدكتور عز الدين فريد

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة :

دوروثى لودر : ولدت بمدينة سان انطونيو بتكساس . تخرجت فى جامعة تكساس وقامت بعدة دراسات أخرى فى جامعات كولومبيا وبراون والسوربون . تعلمت اللغة الاسبانية ثم سافرت الى اسبانيا حيث اكتسبت معلومات وخبرات جمة استطاعت ان تضمها لهذا الكتاب .

المترجم :

طارق فوده : رئيس قسم الأخبار بمجلة آخر ساعة . تخرج فى كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٥ ، قام بترجمة مسرحية « شاى وحنان » لروبرت أندرسون ، و « الجحيم » لچان پول سارتر ، و « التعليم ومعنى الحياة » للفيلسوف الهندى كريشنا مورنى ، وكتاب « الحرب والسلام » من سلسلة حول مائدة المعرفة التى تصدرها مؤسسة فرانكلين .

المراجع وصاحب المقدمة :

الدكتور عز الدين فريد : رئيس مجلس ادارة الدار القومية للطباعة والنشر . تخرج فى مدرسة المعلمبن العليا بالقاهرة سنة ١٩٢٨ . حصل على درجة الليسانس من جامعة ليڤربول سنة ١٩٣٢ ، وعلى الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٧ .

عمل أستاذا بكلية التجارة جامعة القاهرة من سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٥٥ ، ثم عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٥٥ الى سنة ١٩٦١ ، ثم مديرا لمعهد الدراسات الافريقية بكلية آداب القاهرة من سنة ١٩٥٥ الى سنة ١٩٦٤ .

مصمم الغلاف :

طلعت المصرى : محلل كيماوى بشركة الحديد والصلب ، صمم عدة اغلفة للمؤسسة .

محتويات الكتاب

هـذه السلسلة

بقـــلم

حســن جـلال العروسى

هذا الكتاب هو الكتاب السابع من سلسلة نقدمهـا ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ الى القـارىء العربى عامة ، والى شبابه المتوثب خاصة ، تلك هى سلسلة « حول العالم فى كتب » ، وهى تستهدف أن تمحو الحدود بين الثقافات وتفتح النوافذ بين اقطار العالم ، فتصل ما بيننا وبين جميع اخواننا فى البشرية بنور هو أقدس ما أشعه الله سبحانه على الأرض .. نـور العلم والمعرفة ، وعلى ضياء هذا النور المقدس تلتقى الآراء الشتى ، ويجتمع الرأى المختلف ، فيسود التعـاون بدلا من التباغض ، ويزدهر التفاهم ، ليمحو الفرقة والتنابذ .

لقد حاولنا فيما نشرناه من كتب علم النفس أن نسـاعد القارىء على أن يكشف أدغال الفلسفة الاغريقية الخالدة ، وهى التى تدعو الى أن « اعرف نفسك » على أساس أن معرفة الذات والتمعن فى داخل النفس مفتاح يؤدى بنا الى معرفة الكون . ومن أجدر منى بالبحث فى نفسى ، تلك النفس التى أعرفها كل المعرفة وأجهلها كل الجهل ، فى وقت واحد . فلو أنى كشفت خوافيها ، وتبينت حقائقها ، اذن لكشفت الكون كله ، وعرفت الناس أجمعين . فما هم الا أنا ، وما أنا الا هم ... مثل يتكرر ويختلف ، وخلية واحدة تجمعها البشرية وتفرقها أغوار فى النفس متضاربة .

أما هذه السلسلة فهى تدعوك ــ الى جانب معرفتك لنفسك ــ الى أن تعرف جارك وزميلك وأخاك فى الانسانية . وهل نحن فى عالم اليوم ، عالم الذرة والفضاء والصواريخ ، الا اخوة تجمعنا وحدة الأمل ، ووحدة الخطر ، ووحدة الخوف من المصير المشترك؟

ان رفاهة العالم أو نهايته لم تعد اليوم شأن فرد واحد ، ولا دولة واحدة ، بل شأن دول العالم جميعا ، وأفراد العالم مجتمعين . ولم تعد الشئون الخارجية والدبلوماسية أسرارا كهنوتية تتخفى وراء أستار محجبة بمعزل عن الرأى العام فى الدولة ذاتها ، وانما صار للفرد كلمة ينبغى لها أن تسمع ، وينبغى له أن يكون قد أحسن اعداد نفسه ليقولها وليفهمها ، وليكون فى النهاية لبنة قوية فى بناء قوى متماسك هو الرأى العام القومى والرأى العام العالمى .

من أجل ذلك شاعت فى العالم هذه الكتب التى تعالج التعريف بالبلاد المختلفة ، وشعوبها وأهلها ، واقتصادياتها ، وجغرافيتها ، والسياحة اليها ، وما الى ذلك مما يرسم صورة أقرب ما تكون الى الوضوح عن هذه البلاد . واتجهت الأغلبية العظمى من هذه الكتب الى التبسيط والبعد عن التعمق بحيث يتناول كل كتاب منهـا المعالم الهامة عن البلد الذى يتحدث عنه .

تقـــديم

بقـــلم

الدكتور عز الدين فريد

إسبانيا أقرب الدول الأوروبية إلى قلوب العرب ، وأكثرها تذكيراً لهم بأمجادهم . ولا ينكر الإسبانيون مآثر العرب عليهم ، بل إنهم يفخرون بما خلفه العرب فى بلادهم من روائع فنية مازالت تبهر الناظرين بعد مئات السنين من رحيلهم عنها . ولو أن الإسبانيين طوروا ما ورثوه من حضارتهم وساروا على نهجهم فى السماحة وعدم التعصب لما أفل نجم بلادهم كدولة عظمى قبل انقضاء قرن على مغادرة العرب لإسبانيا .

ولقد كان لموقع إسبانيا ومعالمها الجغرافية أثر كبير فى تاريخها ؛ ففى العصور القديمـــة كانت شبه جزيرة « أيبيريا » على حافة العالم المعروف من جهة الغرب ، تطل غرباً على المحيط الأطلنطى الذى كان يعتبر بحراً لانهائياً ، وشرقاً على البحر المتوسط الذى كان مركز الحضارة فى تلك الأزمنة ، ولا يفصلها عن أفريقيا سوى مضيق ضيق لا يعوق الانتقال بينهما .

وقد عرف الإغريق شبه جزيرة « أيبيريا » منذ أكثر من ألفى سنة وأسسوا عدة مراكز لهم على ساحل إسبانيا الشرقى ، وكان هدف الإغريق التجارة والبحث عن القصدير الذى كان مطلوباً لصناعة البرونز – معدن الحضارة السابقة لعصر الحديد . ومع ذلك فلم تقم فى إسبانيا فى العصور التاريخية القديمة حضارة تذكر ، وإن كانت كهوفها وما تحتويه من نقوش ورسوم لحيوانات منقرضة تنم عن قيام حضارة متناهية فى القدم . وهكذا ظلت شبه جزيرة «أيبيريا» أرضاً منعزلة تسكنها جماعات بدائية لا تستطيع الوقوف أمام الغزاة ، وإن كانت طبيعة أرض بلادهم لا تجعل مهمة غزوها والسيطرة عليها مهمة سهلة .

ومع ذلك ففى القرن الرابع قبل الميلاد استطاعت قرطاجة أن تخضع معظم شبه الجزيرة ، وأن تتخذ منها قاعدة فى حربها مع روما ، وفى كل مرة كانت تحل الهزيمة بالقرطاجيين كانوا يعودون إلى إسبانيا لتنظيم صفوفهم وتعبئة جيوش جديدة لإعادة الكرة على روما . فلما انتهت الحروب « البونية » بهزيمة قرطاجة أصبحت إسبانيا مفتوحة أمام الرومان ، الذين بسطوا نفوذهم عليها وضموها إلى إمبراطوريتهم الشاسعة .

حكم الرومان إسبانيا زهاء خمسة قرون ، أفادت البلاد خلالها انتشار اللغة اللاتينية والقانون الرومانى ، كما أن الرومان – كعادتهم – أنشأوا شبكة من الطرق البرية الممتازة التى ربطت أنحاء شبه الجزيرة بعضها ببعض ، كما أن الديانة المسيحية دخلت إسبانيا فى أواخر أيامهم .

ولما حل الضعف بروما كانت قبائل « الوندال » المتبربرة قد عبرت نهر الرين وأغارت على فرنسا وإسبانيا ، بل وعبر أحـــد ملوكهم إلى أفريقيا وكون مملكة فى قرطاجة . كان « الوندال » غير متحضرين ، فأعملوا السلب والنهب فى كل مكان هبطوا به ، وعمت الفوضى البلاد ، وقتل الكثير من أبنائها ، مما اضطر الأهالى إلى الاستنجاد بالقوط الغربيين الذين كانوا قد وصلوا إلى جنوب فرنسا . وهكذا بدأ حكم القوط لإسبانيا واستمر حتى الفتح العربى .

وليس هناك من شك فى أن فترة الحكم العربى فى إسبانيا كانت من أروع صفحات تاريخها ؛ إذ أصبحت إسبانيا لأول مرة مركز إشعاع ثقافى وحضارى للقارة الأوروبية ، يفد الدارسون إلى جامعاتها لتلقى العلم على كبار أساتذتها ، وتنقل مؤلفات العرب ومترجماتهم عن اليونانية إلى اللغات الأوروبية الأخرى ، مما كان عاملا من عوامل قيام النهضة الأوروبية فيما بعد . وقد عنى العرب بالزراعة والرى وجعلوا من الأندلس جنة فيحاء . أما ما خلفوه من الآثار المعمارية فقد أذهل الغربيين فى العصور السابقة ، وما زال يجلب إلى إسبانيا مئات الآلاف من السياح سنوياً لمشاهدة روائعه فى غرناطة وأشبيلية وطليطلة وغيرها .

ومن الطبيعى أن تتأثر اللغة الإسبانية باللغة العربية . ويقرر المتخصصون أن هناك نحو ثلاثة آلاف لفظ إسبانى مأخوذ من العربية أو محرف عنها تحريفاً بسيطاً . والأمثلة على ذلك كثيرة ، يشمل

بعضها أسماء الأعلام ، وبعضها الآخر أسماء أشياء شائعة الاستعمال .
فمن أسمـــاء الأعلام Guadalquivir (الوادى الكبير) و Alcala
(القلعة) و Alcazar (القصر) و Alhambra (الحمراء) . ومن
الكلمات العـــادية aceite (الزيت) و aceituna (الزيتـــون)
و almacan (المخزن أو المتجر) وalmohada(الوسادة أو «المخدة») .

جاهد الإسبانيون لاسترداد بلادهم من العرب ، وعبأوا أنفسهم
بالتعصب الدينى . ولكن نجاحهم لم يكن نتيجة لتفوق المحارب
الإسبانى على المحارب العربى بقدر ما كان مرجعه تفرق كلمة العرب
وما كان بين إماراتهم وممالكهم من تنافس وغيرة . وهكذا سقطت
غرناطة — آخر ممالك العرب فى الأندلس — عام ١٤٩٢ ، قبل تمام
ثمانية قرون على الفتح العربى بتسعة عشر عاماً .

وفى نفس السنة التى غادر العرب فيها إسبانيا تبنت الملكة إيزابلا
مشروع «كولمبس» للوصول إلى الهند بالإبحار غرباً . ومع أن
كولمبس لم يصل إلى الهند إلا أنه كشف عالماً جديداً أتاح للإسبان
أن ينشئوا إمبراطورية ضخمة أثارت حسد غيرها من دول أوروبا .
ويؤخذ على المستعمرين الإسبان قسوتهم فى الإجهاز على حضارات
« الازتك » فى المكسيك و « الانكا » فى بيرو ؛ إذ لم يكن هناك
تكافؤ بين الأسلحة النارية التى كانت فى أيدى الإسبان وبين السهام
البدائية التى كانت سلاح الهنود الحمر . واستطاع الإسبان أن يستغلوا
أســبقيتهم فى الكشف بأن ســيطروا على أمريكا الوسطى وتوغلوا

فى أمريكا الجنوبية حتى وضعوا أيديهم على جميع النصف الغربى من القارة ، على حين كان البرتغاليون قد تقدموا من الساحل الشرقى واستولوا على بلاد البرازيل الحالية . على أن السياسة الاستعمارية التى اتبعتها إسبانيا فى العالم الجديد لم تكن قائمة على أسس اقتصادية سليمة . فقد وجه الإسبانيون معظم اهتمامهم إلى البحث عن المعادن النفيسة كالذهب والفضة التى امتلأت بها سفنهم العائدة إلى إسبانيا وكانت تغرى قراصنة الدول الأخرى — وبخاصة بريطانيا — بأن تهاجمها فى عرض المحيط وتستولى على حمولتها النفيسة .

كان التعصب الدينى — كما ذكرنا — عاملا من عوامل التعبئة الروحية للإسبانيين عندما كانوا يحاربون العرب . غير أن المغالاة فى هذا الاتجاه أضرت بإسبانيا ضرراً بليغاً ؛ فقد ظن رجال الدين أن من واجبهم أن يفرضوا مذهبهم بالقوة على سكان البلاد ، ولم تقتصر نقمتهم على غير المسيحيين ، بل كانت تشمل كل من ليس على مذهبهم الكاثوليكى . وهكذا ظهر فى إسبانيا ذلك الجهاز الرهيب الذى أطلق عليه « محاكم التفتيش » ، فخنق حرية العقيدة والفكر ، وتدهور شأن الجامعات الإسبانية على يد أهل البلاد ، بعد أن كانت إسبانيا قبلة علماء أوروبا أيام العرب . وقد تضافر هذا الاعتبار مع اعتبارات أخرى للهبوط بإسبانيا من دولة عظمى إلى دولة منطوية على نفسها ترفض الأخذ بأسباب التقدم ، وتنزل أقسى العقوبات بكل من خرج برأى يخالف رأى الكنيسة .

ويمكن تأريخ بدء أفول نجم إسبانيا بعام ١٥٨٨ الذى أصيب فيه الإسطول الإسبانى – « الأرمادا » – بكارثة عندما أرسله فيليب الثانى لتأديب بريطانيا وغزوها . فبالرغم من أن « الأرمادا » كان أضخم أسطول شهده العالم حتى ذلك الوقت ، فقد كانت به عدة عناصر ضعف . فقد عين فيليب قائداً للأسطول لم تكن له خبرة فى الحرب البحرية ، كما أن الأسطول نفسه كان يتألف من وحدات غير متجانسة جمعت من شتى أنحاء الإمبراطورية ، حتى إن عدداً كبيراً من الجنود والبحارة كانوا لا يتكلمون اللغة الإسبانية . وكانت خطة فيليب تعتمد على معاونة جيش إسبانى كان معسكراً فى هولندة بقيادة « دوق بارما » ، ولكن الهولنديين الوطنيين حاصروا الساحل ومنعوا خروج هذا الجيش من بلادهم . وانتهت قصة « الأرمادا » بفقد أكثر من نصف السفن التى بدأت بها الحملة ، ولقى عدد كبير من الجنود والبحارة حتفهم ، إما غرقاً فى البحر ، وإما على يد الإرلنديين عندما اضطرت بعض السفن الإسبانية إلى الرسو فى موانئ إرلندة . وقد ترتب على هزيمة « الأرمادا » نتائج تاريخية هامة ؛ إذ ظهرت بريطانيا على آثرها كأقوى دولة بحرية ، وتحكمت فى بحار العالم حتى أوائل القرن العشرين ، كما أن هزيمة إسبانيا ساعدت الهولنديين على استعادة استقلالهم .

وبخروج إسبانيا من ميدان التنافس البحرى خلا الجو لدول غرب أوروبا مثل بريطانيا وفرنسا وهولندة لتقسيم أراضى القارات

الأخرى فيما بينها ، وظهرت إمبراطوريات ضخمة فى عهد الاستعمار الحديث . فاصطبغ معظم أمريكا الشمالية بالصبغة البريطانية إلى أن استقلت الولايات المتحدة فى أواخر القرن الثامن عشر . واقتسمت الدول الثلاث معظم جنوب وجنوب شرقى آسيا ، ثم جاء دور التكالب على أفريقيا فى القرن التاسع عشر . وبلغ من ضعف إسبانيا فى أوائل ذلك القرن أن جيوش نابليون غزتها واحتلتها بالرغم من وجود أعظم حاجز طبيعى يفصل بين دولتين فى أوروبا ؛ وهو جبال البرانس . وقد ساعد الإنجليز — أعداء الإسبانيين فيما مضى — على إجلاء الجيوش الفرنسية عن إسبانيا ، لاعن حب للإسبانيين ، بل لكسر شوكة غريمهم نابليون ومنعه من استخدام تلك البلاد كقاعدة له فى حروبه ضد الإنجليز وحلفائهم . وفى الوقت الذى كانت بريطانيا تحارب فيه نابليون وتستنكر احتلاله لإسبانيا ، كانت تشجع مستعمرات إسبانيا فى أمريكا الجنوبية على الاستقلال و بالفعل نهضت شعوب تلك المستعمرات ضد الحكم الإسبانى واستقلت الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق لإسبانيا من أثر فى أمريكا الوسطى إلا أن معظم جمهورياتها تتكلم باللغة الإسبانية . ولا شك أن انفصام الصلات القديمة بين إسبانيا ومستعمراتها الأمريكية فتح أبواب تلك الدول الجديدة للتجارة مع بريطانيا وغيرها من الدول الرأسمالية ، بعد أن كانت إسبانيا تكاد تحتكر كل تعامل تجارى معها . وهكذا شهد القرن التاسع عشر تفكك الإمبراطورية الإسبانية التى قامت قبل ذلك بثلاثة قرون ، وكان آخر ما فقدته إسبانيا من مستعمراتها الثمينة جزر الفلبين فى شرق آسيا ،

وجزيرة كوبا فى جزر الهند الغربية بعد هزيمتها فى الحرب الإسبانية الأمريكية عام ١٨٩٨ .

وإذا كانت إسبانيا قد أخذت فى الاضمحلال مادياً من قرون مضت فإن ذلك لم يحل دون إسهام العبقرية الإسبانية فى مجالات الآداب والفنون . ففى ميدان الأدب يعتبر بعض النقاد قصة « دون كيخوته » (Don Quixote) أروع قصة إنسانية عالمية — يستمتع بقراءتها الصغار لما فيها من مغامرات مثيرة ومضحكة ، كما يستخرج الكبار من دراستها العبر لأن واقع حياة الإنسان لايكاد يختلف فى كثير عما يبدو فى القصة من تصرفات جنونية . وفى عصرنا الحديث فاز المؤلف المسرحى الإسبانى «خاسنتو بينافنته»(Jacinto Benavente) بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٢ ، وظهر الشاعر العظيم « فيديريكو لوركا » (Federico Lorca) الذى ترجم كثير من أشعاره إلى لغات شتى . وفى ميدان الفن أنجبت إسبانيا بعض العمالقة ، أمثال «بلاسكث» (Velasquez) و « مـــوريللو » (Murillo) و « جـــويا » (Goya) و « الجريكو »(El Greco) ، وإن كان الأخير يونانى المولد ، ولكنه قضى معظم حياته فى إسبانيا . ثم فى العصر الحديث قدمت لنا إسبانيا « بيكاسو » (Picasso) ذلك الفنان الذى أثارت أعماله أكبر جدل فنى فى القرن العشرين . وفى الموسيقى يعتبر « دى فايا » (de Falla) من المؤلفين العالميين ، كما أن « بابلو كاسالس » (Pablo Casals) معترف به كأعظم عازف « تشيللو » (Cello) عرفه العالم .

فالشعب الإسبانى الذى تغذى بحضارة العرب شعب حى يفخر بأيام مجد خلت ، ولكنه لا يقف عند حد البكاء على الماضى ، بل يعمل على إقامة صرح مجد جديد مبنى على استغلال طاقات البلاد المادية والبشرية إلى أبعد الحدود ، والإسهام فى مجالات الفكر الإنسانى الذى لا يتوقف على حجم الدولة أو عدد سكانها ، بل ينبع من تراث الشعب ومعدن أفراده وعزيمتهم على المضى فى نواحى النشاط التى تعود على البشرية بالرخاء والرفاهية .

وهذا الكتاب الذى تقدمه مؤسسة فرانكلين إلى قراء العربية يصور لنا إسبانيا — ماضيها وحاضرها — بصور غنية فى ألوانها ، دقيقة فى واقعيتها ، ويصف لنا شعباً صديقاً يجمع بين الجد والمرح ، بين الكسل (أحياناً) والنشاط الجنونى ، يمتزج الفن بدماء أفراده الذين تتسع قلوبهم لمصادقة كل غريب ، والحفاوة بكل زائر .

الفصل الأول

عالم فى حد ذاته

إذا نظرت إلى خريطة لإسبانيا لانضح لك بعض ما كان يعنيه نابليون عندما قال إن أوروبا تنتهى عند جبال البرانس. فشبه جزيرة أيبيريا التى تشغل إسبانيا أربعة أخماسها والبرتغال الخمس الآخر ، لا تكون جزءاً من جسم القارة الأوروبية ، بل هى ناتئة منها نحو الجنوب الغربى من جبال البرانس — التى ترتفع كحصون منيعة بينها وبين فرنسا — فتبدو شبه الجزيرة وكأنها سفينة ضخمة تطفو على سطح الماء .

وإسبانيا عالم فى حد ذاته ، عالم منفصم الشخصية ، يجمع بين المتناقضات : بين المرح والكآبة ، والقسوة والكرم ، والجدب والخصب ، والتجمد والحرارة المحرقة . ولسوف تشعر فور وصولك إلى إسبانيا بطبيعتها غير العادية ، الغنية بما فيها من تنوع ، سواء أكان وصولك براً من فرنسا إلى ايرون (Irun) على الحدود الفرنسية الإسبانية ، أو إلى برشلونة — ملتقى المواصلات الهامة فى الشمال الشرقى ، أو إذا كنت تلقى أول نظرة على البلاد وأنت تغادر عابرة محيط فى ميناء لاكورونيا (La Coruna) فى الشمال الغربى أو ميناء قادس فى الجنوب .

ويقع ميناء ايرون فى مقاطعات الباسك – موطن شعب أوروبا الغامض . فإذا سافرت منها بالقطار وأطللت من نافذته فسترى صوراً متحركة لطبيعة تلك البلاد الجميلة الوفيرة بالمياه ، ذات الأودية الضيقة العميقة التى تنحدر على سفوحها الجداول السريعة ، والمساكن القديمة التى شيدها أصحابها من الحجارة والأخشاب ، ستقطع فى سفرتك طرقاً تظللها أشجار الحور والجميز ، وسيقع نظرك على رجال تغطى رءوسهم « البيريه » (Beret) وهم يفلحون الحقول الشديدة الانحدار . وفى كل قرية أنيقة تمر بها ملعب للعبة البيلوتا (Pelota) – وهى لعبة مثيرة ابتدعها الباسك – تشاهد فيها اللاعبين وكأنهم يتسلقون جدران الملعب سعياً وراء الكرة .

أما إذا غادرت الباخرة فى ميناء لاكورونيا فإن الأرض التى تنزل بها جزء من مقاطعة جليقية (Galicia) ، أقصى مقاطعات إسبانيا نحو الشمال الغربى ، وهى أرض الجبال والضباب والأمطار وتذكر الإنسان بأرلندة أو اسكتلنده . وفيها ينمو القمح على ارتفاع كبير على سفوح الجبال ، فى حين ينضج نبات الذرة وشجر التفاح فى الأودية . وتتفتح أزهار شجيرات العضة على التلال بين أشجار الجوز والبلوط والزان ، فى حين تمتد مساحات أخرى تغطيها شجيرات الخلنج بأزهارها الأرجوانية .

أما برشلونة فتقع فى مقاطعة قطالونيه (Catalonia) ، وهى أهم موانئ إسبانيا وأكبر مراكزها التجارية – شوارعها فسيحة ومناظرها

رائعة ، تشاهد بها لافتات الإعلانات الضخمة ، والفنادق الفاخرة ، والمصانع العديدة ، كأية مدينة أوروبية ناهضة . ولا يوافق القطالونيون على ما قاله نابليون من أن أوروبا تنتهى بجبال البرانس ، ويعتقدون أن الأصوب هو أن يقال إن أوروبا تنتهى إلى الجنوب مباشرة من قطالونيه . وهم يذكروننا بعلاقتهم الوثيقة بسكان بروفنس(Provence) فى جنوب فرنسا ، وبالتشابه بين لغتهم القطالونية ولغة البروفنسال . فحتى تسمية مقاطعتهم بقطالونية تسمية أعطاها لها الفرنسيون فى العصور الوسطى ومعناها : « أرض القلاع » .

ففى العصور الوسطى كانت قمة كل تل متوجة بقلعة . أما الآن فقد تحول معظم تلك الحصون القديمة إلى خرائب ما زالت تحتفظ برونقها . ونراها أحياناً تكون جزءاً من مزرعة ، ولكنها فى الغالب مهجورة . وتشاهد الماعز وهى ترعى فى صحون تلك القلاع التى كان الفرسان يخرجون منها فى الأزمنة الخالية ، فى حين تنمو أشجار التين فى أرض المصليات التى لم تعد لها سقوف تغطيها . وكثيراً ما تحتل مدن قطالونية مواقع أقام بها الإغريق أو الرومان أو القوط الغربيون فيما مضى . وهى مدن تتكون من مجموعات بهيجة من المساكن البيض التى صبغت نوافذها وأبوابها بألوان خضراء أو زرقاء زاهية . وتكشف أعمال التنقيب فى قطالونية وعلى طول ساحل البحر المتوسط فى إسبانيا عن آثار الماضى — كالزهريات الإيبيرية ، والمقابر الفينيقية ، والنقود الإغريقية الرومانية والقوطية ، والآنية الإغريقية والفسيفساء الرومانى . وتكسو سفوح التلال أشجار الصبار ، وكروم

العنب ، والزيتون ، وبلوط الفلين . أما سكان قطالونية فيتميزون بوسامة وجوههم ، ووفرة نشاطهم ، وتذمرهم الدائم من الحكومة .

وفى الجنوب تواجه إسبانيا أفريقيا ، فلا يفصل بينهما سوى مضيق جبل طارق الذى تبلغ سعته ثمانية أميال ، والذى أطلق عليه الإغريق : « أعمدة هركول السبعة » . وإذا رميت ببصرك ناحية الجنوب من الشاطئ الإسبانى فستلوح لك تلال البربر على الأفق .

أما إذا كان دخولك إسبانيا عن طريق ميناء لالينيا (La Linea) أو قادس أو بلنسية (Valencia) فسوف تجد نفسك فى إسبانيا أخرى ، إسبانيا مدارية ذات مناظر براقة تحت الشمس الأفريقية اللافحة ، ووسط قوم سمر الوجوه ذوى قوام أفريقى رشيق . وتذكرنا بلنسية بالعرب وحذقهم لأعمال الرى . فتقع هذه المدينة فى المقاطعة التى سميت باسمها وسط إحدى حدائق العالم اليانعة التى رويت أراضيها منذ آلاف السنين . وعندما تقود سيارتك خلال مزارع البرتقال والخضر وحقول الرز فستمر بقنوات الرى والسواقى التى استعملها العرب أنفسهم ، وسترى مبانى عربية فى كل مكان ، كما ستقابل وجوهاً عربية وتسمع كلمات وموسيقى عربية .

ولا يسقط من الأمطـــار على مقاطعة بلنسية ومقاطعة مرسية (Murcia) المجاورة لها سوى نحو ربع الكمية التى تسقط على جايقية . ويحدثك أهالى مرسية أن الأمطار فى أراضيهم تسقط مرة كل سبع سنوات ، وعندئذ تتسبب عنها الفيضانات العارمة . وهم أيضاً

يقومون برى أراضيهم التى تغل غلة وفيرة ، وتشمل النباتات المدارية التى يزرعونها : القطن ، والموز ، والبرتقال ، والتين ، وقصب السكر ، والزيتون ، واللوز ، والعنب . وفى مدينة التشة (Elche) التى يرجع عهدها إلى الإيبيريين القدماء تنمو أشجار النخيل السامقة ، وهى الوحيدة التى تثمر التمر فى أوروبا بكميات تذكر . وما زالت النساء فى قرى التلال المنعزلة فى تلك المقاطعة يتجمعن حول بئر القرية لملء جرارهن وقد حجبن وجوههن كما كانت تفعل أسلافهن المسلمات من نحو خمسمائة سنة .

وعلى طول الساحل الشرقى لإسبانيا تطل الجبال على البحر ، فيرتفع بعضها من الماء ارتفاعاً يكاد يكون رأسياً ، وبعضها محدب عارى السطح ، فى حين تغطى بعضها الآخر أشجار الصنوبر والسرو الجبلى والخرنوب — وهو شجرة من أشجار البحر المتوسط دائمة الخضرة تعطى أزهاراً حمراء . وترتفع المدن فوق الأجوان أو تقبع عند سطح الماء بألوانها البيضاء أو النبيذية أو الوردية ، وقد سقف الكثير من منازلها بالقرميد ، على حين تلمع قباب كنائسها بألوانها الوردية أو الزرقاء الزاهية فى السماء المضيئة . ويرجع الكثير من هذه المدن إلى قرون مضت ، مثل خيرونا (Gerona) وطرقونة (Tarragona) ومالقة (Malaga) وقادس وغيرها . وهى مدن شيدت ودمرت ثم أعيد بناؤها فى الخمسة والعشرين قرناً الماضية على يد أناس غزوا إسبانيا وتملكوها ثم طردوا بدورهم منها . وما زالت هذه الدورة

ـ دورة التدمير والإنشاء ـ تجرى فى إسبانيا فى الوقت الحاضر . فقد تعرضت المدن فى هذه المقاطعة وفى أجزاء إسبانيا الأخرى إلى الحريق والضرب بالقنابل من الأطراف المتنازعة فى أثناء الحرب الأهلية الإسبانية التى استمرت من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ ، وما زالت المدن التى دمرت فى سبيلها إلى إعادة البناء .

والأندلس من المقاطعات الحارة، مثلها فى ذلك مثل بلنسية ومرسية وهى تقع إلى الجنوب من جبال سييرا مورينا (Sierra Morena) ـ أو الجبال المظلمة ـ التى لا يخترقها سوى عدد قليل جداً من الممرات . وكان الأندلس أرض العرب المفضلة التى احتفظوا بها أطول مدة ممكنة . وترى فيها الكنائس التى كان المسلمون قد حولوها إلى مساجد ، ثم أعيدت إلى كنائس بعد نزوح المسلمين من إسبانيا . والأندلس بلاد مزارع الزيتون والكروم ، كما أنها بلاد الإقطاعيات الكبيرة التى يملكها أفراد قلائل على درجة فاحشة من الثراء ، فى حين يفلحها الجم الغفير من الزراع الذين يعيشون فى فقر مدقع . وبالقرب من أشبيلية (Seville) تربى ثيران المصارعة فى أراضى نهر الوادى الكبير المنخفضة . وهو النهر الوحيد فى إسبانيا الذى يصلح مجراه للملاحة لمسافة تتجاوز بضعة أميال . وكانت السفن فى القرن السادس عشر تصل إلى أشبيلية عن طريق نهر الوادى الكبير وهى محملة بنفائس الازتك والانكا من المكسيك وبيرو ، فتفرغ بضائعها على « أرصفة » أشبيلية لتخزن فى البرج الذهبى (Torre De Oro) الواقع

على شاطئ النهر . وما زال هذا البرج قائماً إلى اليوم ، ولكنه يستخدم الآن كمتحف يضم مجموعة من نماذج السفن .

وشراب الشيرى (Sherry) نوع من النبيذ الأندلسى الذى يخمر من العنب فى مزارع الكروم المحيطة بمدينة خيريس دى لا فرونتيرا (Jerez De La Frontera) التى تنبت فيها أشجار النخيل . ونفس كلمة « شيرى » محرفة من اسم المدينة . ويمتلك مزارعو الكروم مستودعات كبيرة ذات حوائط بيض وسقوف حمراء ، يعتقون فيها الشيرى فى براميل ضخمة . وكثير من هؤلاء من الإنجليز الذين كانوا دائماً يقدرون نبيذ الشيرى الإسبانى . ويفخر الإسبانيون بهذا النبيذ الحلو المذاق ، ويعرفون السنوات التى كان نتاجها جيداً من السنوات الرديئة النتاج . ومن الوجبات المنعشة التى تمتاز بها إسبانيا تناول الشيرى (الذى قد يكون عمره ستين أوسبعين عاماً) قبيل الغروب مع شطائر من الخبز الأبيض والزبد .

وتزهى مدينة غرناطة (Granada) بقصر الحمراء (Alhambra) — تلك القلعة الحمراء الرائعة التى شيدها المسلمون فى القرن الثالث عشر ، وحزنوا أشد الحزن على تركها بعد ذلك بقرنين . وتذكرنا أفنية القصر وغرفه الفسيحة وأبراجه بالعرب الذين كانوا يقيمون فيه ، كما تعيد إلى ذاكرتنا الكاتب الأمريكى واشنجتن ارفنج (Washington Irving) الذى عاش فترة بين ربوعه ، وهو بناء مهمل ، وكتب « قصص قصر الحمراء » (Tales of The Alhambra) من واقع

مشاهداته وخيالاته التى جالت بخاطره وهو هناك . وتطل غرناطة على جبال سيرا نيفادا (Sierra Nevada) ، وهى السلاسل الجبلية الإسبانية نحو الجنوب ، وبها قمة مولاسين (Mulhacin) أعلى قمم إسبانيا ، وارتفاعها ١١٫٤١١ قدماً .

وإذا كان الأندلس يقترن فى ذهن القارئ بالثيران ، وبالنبيذ ، والغجر ، والرقص ، فستستقبل انطباعات إسبانية جديدة فى الهضاب الوسطى التى تمتد إلى الشمال من جبال سيرا مورينا . فعندما يخرج بك القطار من الأنفاق والمنحنيات الجبلية ويقع بصرك على أراضى لا مانتشا (La Mancha) شبه القاحلة — التى يربو فيها عدد طواحين هواء دون كيخوته (Don Quixote) على عدد الأشجار — فلعلك تذكر أن إسبانيا ثانية دول أوروبا من حيث ارتفاع السطح . ففى هذه المقاطعات الوسطى لا تؤثر الجبال فى طبيعة الأرض فحسب ، بل فى السكان أيضاً . وإذا استقل المرء طائرة فوق مقاطعات ليون (Geon) واكستريمادورا (Extremadura) وقشتالة القديمة والجديدة (Old and New Castile) وأرغون (Aragon) — فإنه سيشاهد شبكة من الهضاب والسلاسل الجبلية ومساحات بيضاء أو رمادية خضراء ، تفصل بينها وبين أراض أخرى فى لون الصدأ كتل من الجرانيت ذات لون بنى أو أرجوانى أو أسود . وترتفع قمم هذه الجبال أحياناً إلى عشرة آلاف قدم فتعزل إقليماً عن آخر . ويعيش سكان الهضاب منعزلين كل فى إقليمهم ، وتتسم حياتهم بالشدة

والحرمان والتقتير والهدوء — فلا يختلفون فى ذلك عن أجدادهم وأسلافهم . وهم فى عزلتهم هذه يحرصون على التمسك بتقاليدهم وطرق معيشتهم القديمة ، وينظرون إلى التقدم نظرة شك وريبة ، كما يستنكرون معظم الآراء الحديثة .

ورغم فقر وسط إسبانيا وقحله ، فهو غنى بتقاليده فى السيطرة والحكم ؛ فقد نشأ فيه معظم حكام إسبانيا ، وفرض سادة قشتالة إرادتهم على جميع أنحاء البلاد . وتذكرك المدن المضمحلة فى كل مكان بماضيها المزدهر وحاضرها البائس ، وتدهشك عظمتها المتداعية وهى تطل على الأراضى المحيطة بها من قمة تل يرتفع عن سطح الهضبة بنحو ألف قدم . وقد احتفظت بعض هذه المدن — مثل مدينة آبلة (Avila) بحوائطها السميكة ذات الأبراج العديدة حتى لتبدو من بعد كأنها أشباح مدن . ولبعض تلك المدن — مثل آبلة أيضاً — كاتدرائيات محصنة استخدم القسس والجنود فتحات أبراجها لتصويب أسلحتهم النارية البدائية على محاصريهم من المسلمين فى القرن الخامس عشر . ويكاد المرء يعيش مع التاريخ وهو يتجول فى ظل المنازل الشامخة والحوائط المرتفعة التى تحف بالشوارع الضيقة فى بعض المدن ذات الماضى المجيد مثل بورجوس (Burgos) وشقوبية (Segovia) وليون . ويعجب الإنسان للسبعة القرون التى قضاها الإسبان فى استعادة بلادهم من العرب ؛ حصناً حصنا ، ومدينة مدينة ، حتى اكتملت دولتهم مرة أخرى .

الفصل الثانى

ظلال من الماضى

عندما تقوم برحلة عبر الطرق الإسبانية القديمة ، حيث يكتنفك الغبار الأسمر صيفاً ، أو الجليد البراق شتاء ، وتنعم النظر من خلال الأصقاع الخلابة إلى سلسلة الجبال الذهبية أو الأرجوانية أو السوداء ، فإنك لاشك سيحفزك الفضول بالنسبة إلى الذين سلكوا قبلك هذا الطريق متجشمين عناء القيظ أو قارس البرودة مثلك على نفس المدى البعيد . . . وفجأة . . . سينتابك إحساس يقى بأنك محاط بجمع كبير من الأشباح .

والأشباح القديمة بلا وجوه وبلا ظلال واضحة ، لأننا لا نكاد ندرى شيئاً عن أهالى شبه الجزيرة الأقدمين . . . فلم يبق من آثارهم بعد ١٥ أو ٢٠ ألف عام سوى النزر اليسير .

وهنا وهناك تقوم هياكل ضخمة يطلق عليها «دولمن» (Dolmen) وهى عبارة عن أحجار على هيئة غرف ربما كانت تستخدم كمدافن ، وتحتوى بعض الكهوف على رسوم ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ . وأفضل ما احتفظ لنا به التاريخ كهوف التاميرا (Altamira) فى شمال إسبانيا . وكان مدخلها مغطى بصخور ضخمة لمدة ١٥ ألف عام .

ولعل اكتشافها وفتحها خلال الجزء الأخير من القرن السابق فقط هو السبب فى عدم زوال ألوانها الحمراء ، والسوداء ، والرمادية ، التى رسمها الفنانون فى عصر ما قبل التاريخ بمزج الشحم بالفحم الخشبى والفلين وخام الحديد . وما زال من الممكن رؤية الثيران القديمة والخيول والخنازير البرية والغزلان التى رسموها على سقف الكهف وجدرانه بوضوح وهى تركض ملوحة ببراثنها حتى إنها لتبدو أقرب ما تكون إلى الحياة . .

وبعد هؤلاء الفنانين القدامى جاء الأيبيريون (الذين أطلق اسمهم على شبه الجزيرة التى تضم البرتغال وإسبانيا فأصبحت تسمى شبه جزيرة أيبيريا) ونحن نعرف عنهم أكثر قليلا مما نعرف عن سابقيهم . فمن المحتمل أنهم كانوا من أهل البادية فى صحارى شمال أفريقيا الذين جاءوا إلى إسبانيا عبر ممر برى كان يغطى مياه مضيق جبل طارق الذى يفصل أفريقيا عن إسبانيا . . وربما استقر الأيبيريون — نحو عام ٢٥٠٠ ق.م — على شاطئ البحر المتوسط بين جنوبى إسبانيا وجبال البرانس فى الشمال . وتصورهم كتاباتهم ورسومهم على الأوانى القديمة كرجال أشداء صغيرى الأجسام ، مستطيلى الوجوه ، ذوى أنوف كبيرة وذقون غائرة إلى حد ما . وكثير من المناظر المرسومة على الأوانى تعبر عنهم فى صيدهم للحيوانات المفترسة . . وتصورهم مناظر أخرى وهم يتقاتلون فيما بينهم — على الأقدام ، أو على ظهور الخيل ، أو على ظهور السفن .

ومن هذه الوثائق نستنتج أنهم كانوا قوماً مستقلين ، شُرسْ الطباع ، يجيدون فنون الصيد والحرب .

ونحو عام ٦٠٠ ق.م انحدرت سلالة أخرى – هى جماعة السلت (Celts) من فرنسا على إسبانيا إلى أن منعتهم جبال سيرا مورينا فى الجزء الجنوبى من التقدم أبعد من ذلك .

وقد كانوا قوماً رعويين ذوى ثقافة محدودة ، فلم يبنوا أية مدن على الإطلاق على مر الأجيال ، أو يتركوا أية آثار فى إسبانيا . . . وقد علمنا من مصادر أخرى أنهم كانوا أقوياء البنية ، ذوى أنوف حادة ، وبشرة تميل إلى البياض ، وشعور شقراء أو حمراء فى الغالب ، وقد احتفظ أهل جليقية الذين انحدروا منهم بهذه الخصائص العنصرية ، وإلى جانب هذه المميزات العنصرية فإن الشعب السلتى لم يترك لإسبانيا سوى كلمات قليلة تسللت بتواضع فى اللغة الإسبانية . أسماء لأشياء بسيطة : مثل Watercress (الجرجير) و Kettle (غلاية) و Lard (شحم الخنزير) .

وعلى مر الأجيال عاش العنصران السلتى والأيبيرى جنباً إلى جنب ، وغالباً ما كانا يتقاتلان مغيرين بين الفينة والفينة عبر ممرات الجبال . وأحياناً كانا يعيشان فى سلام . وتدريجياً وخلال امتزاجهما وتزواجهما فيما بينهما أصبحا شعباً واحداً تقريباً – يطلق عليه اسم السلالة السلتيبيرية (Celtiberians) . وقد انتشر هؤلاء فى شبه الجزيرة وكونوا العنصر الأساسى الذى ينحدر منه الشعب الإسبانى .

وبمرور الزمن ظهرت شعوب أخرى كان أولها الفينيقيون والإغريق من شاطئ آسيا الصغرى . وقد كانوا تجاراً كثيرى التجوال في البحار ، وقادوا سفنهم الخفيفة عبر الطريق المائى من موطنهم ، وانتشرت تجارتهم فى كثير من مناطق البحر المتوسط . وقد جاءوا إلى إسبانيا كما كانوا يذهبون فى كل مكان . . لا للإقامة والاستقرار ، بل لاستخراج كنوز الأرض فقط والحصول على الذهب والفضة والنحاس والرصاص من المناجم الإسبانية .

وبالرغم من ذلك فقد ترك كل من هذين الشعبين أثره واضحاً فى إسبانيا .

وقد كان الطابع الفينيقى أقل من الإغريقى ، ولكن أمكن العثور على آثارهم . فهناك بعض الدماء الفينيقية تجرى فى عروق الإسبان اليوم . . فحماسة الفينيقيين بالإيقاع تغلغلت فى الرقص الإسبانى . . وكان مما أحضروه معهم فن صياغة المعادن الذى تعلمه الأيبيريون منهم . وقد نعثر ضمن مخلفاتهم أحياناً على سلسلة ذهبية ضخمة مرصعة بالكهرمان أو أساور على هيئة رأس الأفعى . . بالقرب من جدار متداع أو مقبرة خربة .

وقد أسس الفينيقيون مدينتى قادس ومالقة ، ولكنهم بعد أجيال قليلة غادروا البلاد نهائياً بحمولاتهم من الذهب الإسبانى ومراسيهم المصنوعة من الفضة الإسبانية .

أما الإغريق فقد تركوا من الآثار أكثر مما خلفه الفينيقيون . وتدين إسبانيا وبقية العالم بالأساطير القديمة وبأول ما سطره الإنسان عن « الأرض الخرافية الواقعة بعيداً إلى الغرب » .

وقد جاب البحارة الإغريق المضيق الذى تكشف عندما اختفى الممر البرى بين إسبانيا وشمال أفريقيا . . والذى أطلق عليه الإغريق اسم بطلهم الأسطورى هركول ، والذى نسميه الآن مضيق جبل طارق . وعنـــدئذ آبحروا عائدين إلى مواطنهم بأقاصيص أثارت شعراءهم فنظموا الأغانى وكتبوا عن شواطئ المحيط الهائج الجبار الذى يقع فيما وراء المضيق .

وقد حكوا لمستمعيهم أيضاً عن طرطوسة (Tartessos) ، تلك المدينة المسورة العجيبة التى يجرى بالقرب منها نهر فضى ، والتى كان سكانها الموسرون يستبدلون بمعادنهم النفيسة ما يجلبه الإغريق من نبيذ وخوذات وأوان من الفخار .

وقد أمكن العثور على آثار الفن الإغريقى فى إسبانيا . ويبدو أثر الفن الإغريقى واضحاً فى الأصص « الزهريات » الجميلة الصنع . . والتماثيل البرونزية الصغيرة التى وجدت فى أضرحة أيبيرية ، أو فى بعض التماثيل التى يعثر عليها أحياناً والتى نحتها مثالون أيبيريون . وأجمل تمثال عثر عليه حتى الآن هو ذلك الذى وجد بالقرب من التشة — مدينة النخيل الواقعة على البحر المتوسط — وهو عبارة عن تمثال

نصفى لامرأة شابة ، يظن أنها كاهنة أيبيرية ، ويعكس التمثال المذاهب والأفكار الفنية لمختلف الغزاة فى إسبانيا . .

ويقول الخبراء إن غطاء رأسها الثقيل الغريب أيبيرى وحليها البدائية الصنع فينيقية ، ولكنهم يجمعون على أن صنع التمثال نفسه ينم عن تأثير إغريقى قوى .

وفى متحف برادو (Prado) بمدريد تستطيع أن تشاهد تمثال « سيدة التشة » كما يسمى هذا التمثال . وإذا أطلعك شخص على ورقة مالية إسبانية من فئة « البيزيتا » فستشاهد صورتها مطبوعة عليها .

وبعد الإغريق والفينيقيين جاء القرطاجنيون ، وكان مجيئهم للإقامة والاستقرار . وقد وفد القرطاجنيون من شمال أفريقيا ، ويرجع أصلهم إلى نفس السلالة التى ينتمى إليها الأيبيريون ، وربما كان ذلك سبباً فى أن غزوهم كان على وجه العموم سلمياً فى جملته . ولكن لابد أنهم التحموا بأهل طرطوسة ، ربما لصداقتها للإغريق الذين كانوا أعداء للقرطاجنيين . وعلى أية حال فقد دمروا طرطوسة تدميراً شاملا بحيث زالت جميع معالمها ، كما أصبحت الشواطئ الجنوبية لإسبانيا — عقب انتصار القرطاجنيين — محرمة على الإغريق ، فأخذ القرطاجنيون فى استغلال مناجمها وحمل كنوزها ، وإنك لترى بقايا هذه المناجم حتى اليوم فى مقاطعة مرسية .

وقد كانت القوة البشرية الإسبانية أنفس كثيراً من المعادن التى حصلوا عليها . فقد أصبحت أحلام القرطاجنيين حقيقة واقعة ؛

لأن رجال القبائل الشرس من السكان الأقدمين من السلتيبيريين كانوا على أهبة الاستعداد لبيع خدماتهم فى المهنة المفضلة لديهم وهى الحرب. وقد كان السكان الأقدمون يعيشون على قطـــع الطرق وحرب العصابات ، وقدمت لهم جيوش قرطاجنة طريقة مثلى لمشاهدة العالم . فعندما زحف هانيبال (٢١٨ — ٢١٦ ق.م) قائد القرطاجنيين مخترقاً إسبانيا وفرنسا ، ثم انحدر على إيطاليا من جبال الألب فى محاولته الفاشلة للاستيلاء على روما ، كان مشاة الأيبيريين وفرسان الأندلس يؤلفون عماد جيشه العظيم .

وقد ساد الوئام بين القرطاجنيين والأيبيريين وتزاوجوا فيما بينهم وأصبحت لهم غاية مشتركة واحدة . ويجوز لنا أن نتحدث عن العنصر « القرطاسلتيبيرى » (Cartha-Celtiberians) إذا أردنا أن نخترع اسماً ذا رنين علمى لنصف به سكان شبه الجزيرة عندما دهمها الرومان بعد نحو عشرة أعوام من حملة هانيبال المشئومة على إيطاليا . ولهذا السبب فقد كان طرد الرومان لقوات قرطاجنة من إسبانيا عام ٢٠٥ ق.م حادثاً مريراً لأهالى شبه الجزيرة الذين قاموا بالثورة عندما أراد الرومان فرض حكمهم عليهم .. وقد تكررت ثوراتهم واتسمت بالشراسة إلى درجة أن الجنود الرومانيين كانوا يخشون أداء الخدمة فى إسبانيا ، وقد تمرد فيلق رومانى فى إحدى المرات عند سماعه بأنه قد تقرر إرساله إلى إسبانيا .

استمرت مقاومة الإسبان ١٥٠ عاماً ، ولم يخمد أوارها إلا قرب

نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، عندما خضع رجال القبائل الهمج الذين جاءوا من الداخل لحكم القانون الرومانى وأذعنوا للسلطات الرومانية . وأخيراً أصبحت فرنسا إقليماً متحداً وولاية رومانية شديدة الولاء لروما ، وجاء عليها وقت كانت فيـــه أكثر بلاد الإمبراطورية تشبعاً بمظاهر الحياة الرومانية خارج إيطاليا نفسها . لقد غيرت روما مجرى التاريخ الإسبانى . . فأزالت من حياة الإسبان ما كانوا قد اكتسبوه من معالم أفريقيا ، وجعلت من إسبانيا وحدة سياسية أوروبية . وقد قام الرومان بأعمال معمارية على نطاق واسع فى شبه الجزيرة ، وما زالت هناك آثار كثيرة لهم تنم عن إقامتهم الطويلة ، ويقال إنه كان هناك أكثر من ٨٠٠ مدينة رومانية فى إسبانيا : مدن ذات شوارع بديعة . . ومنازل جميلة (ذات تدفئة مركزية) تخدمها مجار عامة وتحميها من الخارج أسوار قوية . فمدينة طرقونة التى كانت حاضرة رومانية عظيمة على الساحل الشرقى كانت تحيط بها أسوار ضخمة طولها ٤٠ ميلا . وكانت شبه الجزيرة مغطاة بشبكة من الطرق الجيدة ، وإنك لتجد جسوراً (كبارى) رومانية فى أماكن عديدة تعبر مجارى الأنهار ، وما زال الأهالى يستخدمونها إلى اليوم . وقد أسفرت أعمال التنقيب فى المدينة الرومانية القديمة « إيطاليكا » (Italica) بالقرب من أشبيلية عن العثور على أرضيات مغطاة بالفسيفساء الرائعة فى الفيلات الرومانية . وكذلك عثر على مسرح رومانى يتسع لـ ٥٠٠٠ شخص ، بالإضافة إلى أطلال مدرج

كبير . . فى مدينة ماردة (Merida) فى مقاطعة « اكستريمادورا » بالقرب من الحدود البرتغالية . وفى ماردة أيضاً أسفرت أعمال التنقيب عن أنقاض جسر مائى (سد) بنى فى عهد الرومان . أما مدينة شقوبية التى تقع على بعد ٦٠ ميلا شمال غربى مدريد فإن بها أعظم آثار العمارة الرومانية على الإطلاق فى إسبانيا ، ممثلة فى سدودها المائية الهائلة التى شيدت من أحجار الجرانيت الصلدة والتى تحتوى على ١٢٨ قوساً معمارية ضخمة . وما زال هذا السد بعد ١٨٠٠ سنة من تشييده يجلب المياه إلى المدينة من الجبال التى تبعد عنها عشرة أميال .

وقد أعطت روما الإسبان ثلاث لغات . . القطالونية والبرتغالية والإسبانية . . وقد بدأت هذه اللغات كلها كلهجات محرفة عن اللاتينية ، ثم تطورت على مدى الأجيال بتهذيبها وصقلها وكونت لغات مستقلة . أما اللغة القطالونية فبالرغم من ماضيها المجيد وما تثيره من المشاعر الوطنية فى نفوس الإسبان فقد أصبحت أثراً ثميناً من آثار الماضى .

أما اللغة البرتغالية (التى تتداول فى البرتغال بالطبع) فإنها توجد فى إسبانيا كلهجة محلية فقط — بين أهالى جليقية فى الشمال الغربى .

وأما اللغة الإسبانية أو لغة قشتالة ، وهى اللغة القومية فتتميز بموسيقاها ورقتها وبالعديد من الألفاظ العربية التى دخلت فيها فزودتها بثروة لغوية عظيمة .

وقد ردت إسبانيا دينها الثقافى لروما فى صور شتى . . فقد استغل الرومان المناجم الإسبانية طيلة إقامتهم فى البلاد ، كما استغلوا موقع إسبانيا الاستراتيجى على البحر المتوسط وشجاعة المقاتلين الإسبان .

ولم يقف الأمر عند هذه الاعتبارات المادية ، بل إن روما استمدت من إسبانيا مجداً أدبياً وسياسياً . فقد نظم الكتاب الإسبان عدداً من أفضل الأشعار اللاتينية والمسرحيات أو مؤلفات الفلسفة والتاريخ . كما أن سبعة من أباطرة الرومان كانوا من أصل إسبانى .

ومن الطبيعى أن مصير إسبانيا التاريخى كان مرتبطاً بمصير روما ذاتها ، ففى القرن الخامس الميلادى كانت الجموع الجرمانية قد أخذت تهاجم أطراف الإمبراطورية الرومانية وتعيث فيها فساداً . وما لبثت هذه القبائل أن انقضت على إسبانيا التى خلت من المحاربين ، لأن المحاربين الإسبان كانوا يحرسون الممتلكات الرومانية المتداعية فى بريطانيا وشمال أفريقيا وإيطاليا .

وهكذا سقطت المدن الإسبانية المزدهرة مثل قرطبة وأشبيلية وطرقونة (التى كان عدد سكانها يفوق أية مدينة أخرى فى إيطاليا باستثناء روما نفسها) بدون أى مقاومة للغزاة .

وبمجئ الجموع الجرمانية الهمجية — وكانوا قوماً شقراً طوال القامة — تدفقت قبائلهم فى البلاد متخذين من الطرق الرومانية المعبدة وسيلة سهلة للانتقال . وما لبثت أن ظهرت من بينهم قبيلة « القوط

الغربيين » التى سادت البلاد وحكمتها . وقد تعرضت إسبانيا فى الفترة الأولى من حكمهم لأعمال القتل والنهب والسلب فانتشر المرض والبؤس . . ولكنهم تأثروا بعد ذلك بدماثة القوم المحكومين وثقافتهم فتحولوا إلى حكام ضعفاء لينى القناة . ثم إن الإسبان — وهم أنفسهم خليط من القرطاجنيين والسلتيبيريين والرومان — تزاوجوا مع القوط الغربيين ، وبمرور الوقت امتثل الغزاة والمحكومون لنفس القوانين ، وتعبدوا فى نفس الكنائس ، معترفين بالرياسة الروحية للبابا فى روما . وكانوا يتحدثون باللاتينية التى أصبحت على مرور الأعوام إسبانية .

ومع ذلك فلم يكن باستطاعة القوط الغربيين أن يجيدوا حكم رعاياهم . بل إنهم عجزوا عن حل مشكلاتهم وتصفية ضغائنهم العائلية المستحكمة ، فأدى ذلك إلى فقر الشعب وتذمره ، وإلى انقسام الأسرة المالكة بما استحكم من العداء بين أفرادها ، بحيث أصبحت البلاد عاجزة عن مجابهة عاصفة الغزو الإسلامى الذى كان يهددها .

لم يكن قد مضى قرن على رسالة الإسلام ، ومع ذلك فقد استطاع المسلمون بقوة إيمانهم أن يفتحوا فلسطين وسوريا ومصر وشمال أفريقيا ناشرين الدعوة حيثما حلوا . . وهناك فى شمال أفريقيا وقفوا يتطلعون إلى إسبانيا .

وفى عام ٧١١ م حين كان المسلمون فى شمال أفريقيا يعدون عدتهم قبل الانقضاض على إسبانيا كان رودريك(١) ملكاً على القوط

---

(١) أطلق عليه العرب اسم « لذريق » .

الغربيين ، وقد اغتصب العرش بعد عزله الملك السابق وتيزة(Witiza) أو « غيطشة » كما يسميه العرب ، وعاقب أبناءه الذين هربوا إلى شمال إفريقيا طالبين النجدة ضده . وكذلك جعل من الكونت جوليان حاكم ميناء سبتة خصما قوياً . وتقع سبتة على الشاطئ الأفريقي عبر المضيق من إسبانيا . وبانضمامه إلى المكيدة التي دبرها أبناء الملك السابق غيطشة ضد لذريق سلم سبتة إلى المسلمين الذين استخدموها قاعدة لحملتهم ضد إسبانيا .

وقد قاد (الشيخ) طارق بن زياد الفرقة الأولى من الفاتحين التي رست على الصخرة الهائلة التي تحمى الطرف الجنوبي لإسبانيا هزم الحامية القوطية هناك ، وقد أطلق طارق اسمه على هذه الصخرة فأصبحت صخرة طارق،أو جبل طارق ، الذى حرف إلى Gibraltar في اللغات الأوروبية .

وبالرغم من أن لذريق قام على رأس جيش قوامه ٨٠ ألفاً لرد الغزاة ، فإن معظم جنوده كانوا من العبيد ، يحاربون على الأقدام مسلحين بالمقاليع والأقواس والسهام .

أما جيش طارق فقد كان يتألف من ١٢ ألفاً من المحاربين معظمهم من الفرسان المسلحين جيداً . وخلال أسبوع من المعارك المستمرة . . أخذ القوط الغربيون يتقهقرون إلى أن هزموا عند نهر « برباط» (Guadalete) جنوبي إسبانيا على بعد أميال قليلة من مصبه في المحيط الأطلنطى . أما مصير لذريق فما زال غير مؤكد :

فالأهازيج الإسبانية القديمة جعلته يختفى من ميدان المعركة (مخلفاً) خفيه (صندله) الذهبيين المرصعين بالزمرد على شاطئ النهر ، ثم يظهر ثانية لمواصلة القتال فى معركة أخرى .

أما المؤرخون المسلمون فيذكرون أنه قد قتل ، وأن طارقاً أرسل رأسه محفوظاً فى الكافور – كتذكار للانتصار – إلى مكة مدينة المسلمين المقدسة فى الحجاز .

وانضم إلى الكونت جوليان وأبناء الملك غيطشة حلفاء آخرون فى حملتهم ضد لذريق ، وهم اليهود الإسبان الذين تواطأوا ضد القوط الغربيين على أمل التخلص من طغيانهم . .

وقد أقام اليهود فى إسبانيا منذ ١٤٠٠ عام على الأقل ، وتقول الروايات اليهودية القديمة إن اليهود أقاموا بإسبانيا التى يسمونها « سيفاردا » (Sepharda) فى عصر ما قبل التاريخ .

ومع أن هذه الادعاءات ينقصها الدليل إلا أنه من الجائز أن نفراً من اليهود قدموا إلى إسبانيا مع الفينيقيين قبل ميلاد السيد المسيح بستمائة أو سبعمائة سنة . ومن المعروف أن بعض الجاليات اليهودية ازدهرت فى المدن التجارية الساحلية . وقد تساهل الرومان مع اليهود فى إسبانيا وسمحوا بازدياد قوتهم ونمو ثرواتهم وتملكهم للعبيد والمنازل ومزارع الكروم والزيتون . وعلى أية حال فمع بداية حكم القوط الغربيين اختفى رخاء اليهود وتهددتهم الأخطار ؛ ففى القرن السابع أمر أحد ملوك القوط اليهود بالارتداد عن دينهم واعتناق

المسيحية ، مع استخدام القوة إذا لزم الأمر ، وقد جلبت عليهم مقاومتهم أفظع أنواع الانتقام . فليس غريباً لذلك أنهم كانوا متلهفين فى القرن الثامن للانضمام إلى القوات الإسلامية ضد القوط الغربيين .

وقد بدا لهم طارق وقواته كأنما أرسلتهم السماء لتحريرهم من الاستعباد .

الفصل الثالث

العـــرب

فيما بين عامى ٧١١ و ٧١٨ ميلادية اكتسح المسلمون شبه الجزيرة وفتحوا جميع أجزائها ، باستثناء نطاق صغير فى الشمال اتخذ منه الإسبان الذين لم يستسلموا مأوى لهم ، فكانوا يختبئون فى الكهوف والأودية ، كما لو كانوا من المطاردين الخارجين على القانون .

ومع أن طارقاً هو الذى بدأ الفتح ، فإن أطيب ثمار ذلك الفتح لم تكن من نصيبه هو وأتباعه لأن ، موسى بن نصير الذى كان يتولى القيادة العامة لشمال أفريقيا ، والذى كان طارق من مواليه ، ما لبث أن توجه فى أعقابهم إلى إسبانيا ، فأمر طارقاً وقواته أن يتخذوا مقرهم فى المناطق الجبلية والهضاب القاحلة فى الوسط والشمال — حيث الحدود التى يهددها الأعداء — واحتفظ موسى لنفسه بالجزء الجنوبى من إسبانيا ، وهو الإقليم الذى كان مفضلا عند المسلمين على الدوام ، والذى وصفه موسى بأنه مثل سوريا فى روعة أرضه وسمائه ، وكاليمن فى بديع طقسه ، وكالهند فى عطورها وأزهارها ، وكمصر فى فاكهتها وثمارها ، وكالصين فى كنوزها المعدنية .

وتطلق كلمة المغاربة (Moors) بصفة عامة على جميع مسلمى إسبانيا

ولكن هذه التسمية ليست كاملة الدقة . فالمغربى (Moor) هو المسلم العربى الذى تمثله قبائل البربر فى شمال أفريقيا ، فى حين أن الفاتحين المسلمين كانوا يضمون فى صفوفهم جماعات من عرب الشرق — من اليمن وبلاد العرب (الحجاز ونجد) وسوريا . وكان الفرنجة يطلقون على هؤلاء اسم (Saracens) ،وكان طارق مغربياً ، وموسى من عرب الشرق . وكان بينهما تنافس أحياناً يصل إلى درجة العداء المرير . ويوضح لنا هذا الانقسام بين المغاربة وعرب الشرق بعض السبب فى عدم استطاعة المسلمين بعد انتصاراتهم الحربية فى إسبانيا أن يقيموا فيها دولة هادئة مستقرة على طول الزمن . ولم يقتصر الأمر على ما كان بين المغاربة وعرب الشرق من عداء ، بل إن كل طائفة كانت ممزقة فى داخلها بما يوجد بين أفرادها من منافسات حادة وضغائن ثأرية ، وبذلك لم يكن هناك مجال لقيام حكومة مركزية قوية ، لشدة تعصب كل من المغاربة وعرب الشرق لاستقلالهم ، ولأنهم كانوا لا يدينون بالولاء إلا للزعيم المحلى أو لرئيس القبيلة . فلم تكن دولة المسلمين فى إسبانيا إلا نسيجاً واهياً من الولايات يعرضه أى لمس إلى التمزق .

ولعله من حسن حظ الإسبان ، ومما ساعدهم على الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم ، أن العرب الشرقيين كانوا أول من تحكم فى ميزان القوى فى شبه الجزيرة ، وظلت مقاليد الأمور فى يدهم عدة قرون . ويختلف هؤلاء العرب المثقفون عن البربر بما حباهم الله به

من ملكة الشعر وحب الجمال وتقدير العلم والتسامح الدينى ، مما حول إسبانيا فى عهدهم إلى دولة على درجة رفيعة من الثقافة والرقى. وبمر السنين خضع البربر أنفسهم لسحر تلك الحياة الهادئة الجميلة ، وأخذوا ينافسون العرب فى بناء المساجد والقصور وجمع الكتب وإحاطة أنفسهم بكل وسائل الترف ومظاهر الجمال .

ويبرز اسم عبد الرحمن الأول من القائمة الطويلة المعقدة لأسماء حكام إسبانيا من العرب .

كان عبد الرحمن حاكماً ذكياً ، أدخل كثيراً من الصناعات فى البلاد وشجعها ، كصناعات الحرير ، والورق ، وتطعيم الصلب بالذهب والفضة — وهى صناعة دقيقة عرفت باسم « الفن الدمشقى » (Damascene) وما زالت تمارس فى إسبانيا . كما ازدهرت صناعة الجلود التى نسبت إلى قرطبة . واهتم عبد الرحمن أيضاً بالزراعة ، فأدخل أشجار الموز ، وقصب السكر ، والقطن ، ونخيل التمر ، فى الأندلس . ويقال إنه زرع أول نخلة تثمر تمراً فى إسبانيا فى حديقة قصره . وكان يعتبر فلاحة البساتين من الفنون الجميلة ، تشهد بذلك حدائقه التى كانت مثال الروعة فى أزهارها ، وظلالها ، ومساقيها .

وأظهر عبد الرحمن اهتماماً بالغاً بأعمال البناء ، فقام بإصلاح الطرق ومساقى المياه الرومانية وصيانتها . وفى أثناء حكمه ارتفعت فى سماء الأندلس قصور جديدة ومساجد عدة بمآذنها الرشيقة وجدرانها الضخمة السميكة . وفى عام ٧٨٦ — فى أواخر أيامه —

شرع في بناء مسجد قرطبة الشهير الذى وضع تصميمه بنفسه ، وكان يشارك العمال فى عملهم لمدة ساعة على الأقل كل يوم حتى وافته المنية . وما زال مسجد قرطبة قائماً حتى يومنا هذا ، وبالرغم من بناء كنيسة مسيحية بداخله فإن ما بقى من آثار المسجد يكفى لأن يثير فى نفس المشاهد إحساساً بروعة الفن الشرقى وجماله . فهناك أكثر من ثمانمائة من الأعمدة التى نحتت من المرمر أو الجرانيت أو الحجر الرملى أو غيرها من أحجار الزينة (بل إن أحدها من حجر يعطى رائحة الفسفور) ، وانتشرت هذه الأعمدة فى صفوف طويلة تحمل عقوداً تتدلى منها مصابيح من النحاس أو البرونز أو الفضة . وقد جمعت تلك الأعمدة من مبان رومانية فى مختلف أنحاء إسبانيا وجنوبى فرنسا ، وحملها العرب الفاتحون إلى قرطبة .

وفى ساحة ذلك المسجد العظيم حيث يفوح شذا زهر أشجار البرتقال فى الهواء الدافىء العليل ، يمكنك دون عناء أن تتخيل تلك الأيام الرائعة التى شهدتها إسبانيا تحت حكم المسلمين ، حين كان النبلاء يشيدون قصورهم ذات الجدران السميكة وقد تحلت أبوابها بالعقود المستديرة التى تحاكى « حدوة » الفرس . أما غرفها فى الداخل فقد كانت أرضيتها وجدرانها تزدان ببلاط القرميد ، ويفصل كل حجرة عن الأخرى حائط رقيق من الحجر المثقوب بأشكال هندسية بديعة . وكانت الأزهار تتفتح فى صحون القصور المغطاة بفسيفساء من المرمر ، بينما يسمع الزائر هدير المياه الجارية . فى هذا الجو كان النبلاء يستمعون إلى الموسيقى ويقرءون الشعر وينظمونه ، ويتناقشون

فى الفلسفة اليونانية ، ويحاولون التنبؤ بالمستقبل بما عرفوه من علم الفلك وأوضاع النجوم ، كما كانوا يمارسون الكيميا بغية التوصل إلى حجر الفلاسفة — الذى كان يسود الاعتقاد أنه يحول أى معدن خسيس إلى معدن الذهب . وهنا أيضاً جمع العرب المكتبات العظيمة التى أثارت حسد الأوروبيين ، وكان عددها سبعين مكتبة فى الأندلس ومقاطعة مرسية المجاورة لها ، من بينها مكتبة واحدة تمتلكها إحدى كبار الأسر تضم خمسمائة ألف كتاب .

وقد يقال إن هؤلاء العلماء المسلمين قد انحرفوا بعلم الكيميا إلى شعوذة كيموية ، وبعلم الفلك إلى التنجيم ، غير أننا لا نستطيع أن نصف جميع أعمالهم ودراساتهم العلمية بالتفاهة والعقم ؛ فقد تركوا لنا كثيرا من البحوث العلمية القيمة فى موضوعات هامة مثل الرى ، وتطعيم النبات ، وتربية الخيل والماشية . وما زالت بساتين الفاكهة ومزارع الخضر المنتشرة فى جنوب إسبانيا وشرقها تحتفظ بهذه الذكرى النضرة بعد مرور ألف عام . وجدير بنا — نحن المتكلمين بالإنجليزية — أن نعترف بديننا للعرب عندما نستخدم بعض الكلمات التى أتتنا من لغتهم مثل Zenith (السمت) و Nadir (النظير) و Alchemy (الكيميا) و Algebra (الجبر) و Alcohol (الكحول) و Cotton (القطن) و Artichoke (الخرشـــوف) و Apricot (المشمش) — وقد اشتقت أصلا من البرقوق .

وفى يومنا هذا ، كثيراً ما يتصرف الإسبان بالفعل أو بالقول

وهم لا يدرون أنهم إنما يتبعون عادات عربية قديمة . فعندما يحييك إسبانى ، تزوره فى منزله للمرة الأولى، بقوله (Esta en su Casa) (أنت فى بيتك) ، أو عندما تبدى إعجابك بساعة صديقك أو بسيارته أو بحلته الجديدة فيرد عليك (Esta a su Disposicion) (إنها تحت تصرفك) ، فإن صديقك الإسبانى إنما يردد عبارات المجاملة المهذبة التى كان استعمالها شائعاً من ألف سنة مضت . وعندما يسترعى سمعك صياح مواطن إسبانى قد أخذه الإعجاب براقصة أو مغنية فصار يردد : "Ole, Ole" ، فتأكد أنه إنما يحرف ما كان يردده العرب فى نفس الموقف من : « الله ، الله ، هذا شىء جميل » .

وفى خلال الأربعمائة السنة الأولى من حكم العرب لإسبانيا – أى ما يقرب من نصف مدة إقامتهم فى البلاد – كانت معاملتهم للإسبان أرفق وأرحم معاملة لقيها شعب مهزوم على يد فاتحيه . فبالرغم من أنهم كانوا ينظرون إلى الإسبان باحتقار ويعتبرونهم سذجاً جهلاء قذرين ، فقد كان العرب متسامحين مع رعاياهم ، (وسرعان ما أنشأوا الحمامات العامة فى جميع المدن حتى الصغير منها كى تعم فائدتها جميع الشعب) . فمن النادر أن نجدهم يحثون المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام . وقد فسر بعض الكتاب هذا التسامح تفسيراً يفقده الباعث الإنسانى ، فقالوا إن الحكام كانوا يفكرون فى الضرائب العالية التى تجبى من المسيحيين واليهود والتى لم يكن المسلمون يؤدونها ، فكان هؤلاء الحكام يفضلون الضرائب الدسمة على أن يعتنق الإسلام قلة من أهل الكتاب .

وفى القرون الأربعة الأولى من حكم العرب لإسبانيا تمتع اليهود بالحياة الرغدة التى كانوا ينعمون بها من قبل فى تلك البلاد ؛ فقد شاركوا المسلمين فى اهتمامهم بالعلوم والحياة الفكرية ، واشتهر من بين اليهود عدد من المؤرخين والأطباء والفلاسفة والصيارفة الذين كانوا موضع تكريم فى المدن العربية . كما بلغ بعض الساسة اليهود مناصب مرموقة فى أكثر من ولاية عربية .

أما المسيحيون فظلوا خاضعين لقوانينهم تحت الحكم العربى : يحاكمهم قضاة من بينهم ، ويتولى قسسهم النواحى الروحية من حياتهم . وكانوا يتعبدون فى كنائسهم الخاصة ، فإذا لم تكن لهم كنيسة كان يسمح لهم بإقامة محراب فى النصف الغربى من مسجد قريب منهم ، لأن المسلمين كانوا يحتفظون دائماً بالقسم الشرقى من المسجد لإقامة شعائرهم الدينية . (لأن اتجاه القبلة نحو الشرق) .

وقـــد سمى رعايا المسلمين من المسيحيين باسم « المستعربين » (Mozarabs) وبمرور السنين اتخذت عادات المستعربين ونظرتهم إلى الحياة صبغة شرقية ؛ لأن المؤثرات المسيحية التى استطاعت أن تخترق ذلك الجو الإسلامى الذى كانوا يعيشون فيه كانت قليلة جداً . وقد تحول بعض المستعربين عن ديانتهم المسيحية إلى الإسلام ، ولـكن الأغلبية تمسكت بعقيدتها الكاثوليكية عبر القرون . ولما كانت اللغة العربية هى اللغة الوحيدة المستعملة فى البلاد ، فقد نسى المستعربون لغتهم ذات الأصل اللاتينى ، وأصبح من الضرورى أن يترجم الإنجيل من أجلهم إلى اللغة العربية .

وعندما استولى ألفونسو السادس (ملك قشتالة المسيحى) على مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ صدمت زوجته الفرنسية عندما علمت أن القسس كانوا يقيمون القداس وفقاً للطقوس القوطية القديمة التى تخلت عنها الكنائس فى جميع أنحاء أوروبا الأخرى ، وأنهم كانوا يقرءون الإنجيل ويعظون الرعية باللغة العربية . فألحت الملكة على أن تتبع الكنائس الطقوس التى كانت تسير عليها الكنائس الأوروبية ، ولكن القسس رفضوا الإذعان إلى هذا الأمر ، فأمرت الملكة بأن تخضع الكتب التى تحتوى على طقوس الصلاة بالطريقتين القوطية والرومانية لاختبار النار ، ووعدت بأن الكتب التى تتحمل الحريق أكثر من غيرها سيتم إقرارها . وقد أجرى اختبار النار ، وفازت فيه الكتب القوطية التى كانت مدونة على رقائق من جلود الأغنام والماعز ، على حين احترقت كتب الطقوس الرومانية ذات الورق العادى عن آخرها . ومع ذلك لم تبر الملكة بوعدها وتجعل الأمر يقف عند هذا الحد ، بل أعلنت أن حسم هذه المسألة لابد وأن يتم بالسلاح . فاختارت فارساً للدفاع عن قضيتها ، واختار المستعربون من جانبهم فارساً آخر . وأجرى اختبار السلاح ، وهزم فارس الملكة . وعندئذ وافقت على مضض على حل وسط : يقضى بألا تمارس الطقوس القديمة فى أية كنيسة جديدة يتم تشييدها ، ويسمح

للكنائس القديمة بأن تستمر على ما كانت تسير عليه من طقوس . ومع ذلك تحولت جميع الكنائس بمرور الوقت إلى استخدام الطقوس الرومانية ، ولا يوجد اليوم فى إسبانيا كلها مكان يقام فيه القداس كما كان يقام فى عهد لذريق ونبلائه الشقر الطوال القامة منذ ألف ومائتى سنة إلا فى معبد المستعربين فى كاتدرائية طليطلة .

اتخذ أمراء أسرة عبد الرحمن الأول الذين تعاقبوا على الملك بعده لقب « خليفة قرطبة » ، أو الرئيس الدينى لمسلمى إسبانيا . ولكن رغم الأهمية التى أضفتها عليهم تلك الزعامة الروحية فإنهم لم يستطيعوا أن يوحدوا البلاد ؛ إذ رفضت مدن عربية كبيرة مثل سرقسطة وطليطلة أن تعلن ولاءها لقرطبة . وقد أدى ذلك إلى أن الحكام المسيحيين فى أطراف إسبانيا الشمالية التى لم يسيطر عليها المسلمون استطاعوا أن يوسعوا رقعة ممتلكاتهم ، مستغلين ما كان بين المسلمين من فرقة ، وذلك باسترجاعهم كل مساحة متنازع عليها فى مكان ما ، أو كسب معاونة أحد الزعماء المسلمين فى حملة ضد زعيم آخر فى ولاية مجاورة . وعلى مر السنين أصبحت خريطة إسبانيا كالثوب المرقع ، تضم ولايات مستقلة . بعضها مسيحى وبعضها عربى . وكثيراً ما كانت تتغير تلك الصورة نتيجة لنشوب معركة واحدة أو سقوط حصن واحد .

وبالرغم من أن المسلمين لم يحتفظوا بجيوش كاملة كبيرة ، فإنهم كانوا يستطيعون حشد قوات لا تكاد تقهر ، إذ كانوا يعدون عدتهم

لحملة عامة . وكانت قوة المسلمين تتركز فى فرسانهم الذين كانوا يقضون معظم حياتهم تقريباً على ظهور الخيل . ولم يكن من المتصور أن يوجد عربى لا يجيد الفروسية . فعندما كانت تبدو نذر الحرب فى الأفق كان رجال القبائل من سوريا ومصر وشمال أفريقيا ينضمون إلى إخوانهم فى إسبانيا . وكان جميع المقاتلين يمتطون خيولا رشيقة سريعة ، وبلغ من مهارتهم فى ركوبها أنهم كانوا يبدون للناظر وكأنهم هم وخيولهم جهاز حربى واحد . كانت أسلحتهم خفيفة ولكنها مواض ، وكان كل فارس يرتدى خوذة من الحديد تحت عمامته ، وزرداً حديدياً تحت ملابسه ، ويحمل فى يده درعاً خفيفة من الخشب المضفر ، ورمحاً طويلا نحيلا ، وسيفاً وخنجراً من أجود أنواع الصلب . وفى ركاب الجيش العربى كان يسير المشاة من المستعربين واليهود ، وكانت أسلحتهم السهام والأقواس والمقاليع ، ولكن وظيفة هؤلاء المحاربين لم تتعد كونهم خدماً للفرسان ، وكان الفرد منهم يتقاضى نصف ما يتقاضاه الفارس من مخصصات .

استمرت الأمور على هذه الأوضاع إلى أن ظهر فى القرن الثانى عشر الميلادى قائد عربى اسمه المنصور (بن أبى عامر) هدد كيان الدول المسيحية الصغيرة التى كانت آخذة فى النمو . واستطاع المنصور فى كل حملة قام بها أن يقمع بعض الثورات التى قام بها أمراء مسلمون ، وأن يقتطع لنفسه أرضاً من أراضى المسيحيين الذين أخذ فى دفعهم نحو الجبال الشمالية التى كانوا قد اتخذوها قاعدة للتوغل البطئ نحو

الجنوب ، إلى أن وصل إلى أقدس أضرحتهم « سنتياجو دى كومبو ستيلا » (Santiago de Compostela) فى جبال جليقية فى أقصى الشمال . فما كان منه إلا أن جرد الكنيسة من مخلفاتها الأثرية النفيسة ، وحطم صلبانها وصورها المقدسة ، وحمل معـــه أجراسها الضخمة ليستخدمها فى وضع مقلوب كمصابيح فى مسجد قرطبة ، فكانت بذلك من أقدم وسائل الإضاءة غير المباشرة .

ظن المنصور بعد نهب كومبوستيلا أن قضية المسيحيين قد أصبحت قضية خاسرة ، وامتلأت نفسه ثقة بأنه سيقضى على كل مقاومة لهم فى حملته التالية . ولكن الحكام المسيحيين خيبوا ظنه فى هذه المرة ؛ إذ أخذوا فى جمع شتات محاربيهم الذين كانت روحهم المعنوية قد انهارت ، وكونوا منهم جيشاً ممتلئاً عزيمة ومشرباً بالتحمس الدينى ، استطاع أن يهزم المنصور هزيمة منكرة ويشتت شمل قواته . وقد رفض القائد العربى الذى انفطر قلبه أن تعالج جروحه التى أصيب بها فى المعركة ، ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل . وهكذا انهارت دولة المنصور التى كان يبدو عليها القوة انهياراً سريعاً ، حتى إنه فى السنوات السبع التى تلت وفاته استطاع « سانتشو جارسيا » (Sancho Garcia) — وهو أمير مسيحى من قشتالة — أن يصل على ظهر جواده إلى أبواب قرطبة كحليف لأحد الثائرين من الحكام المسلمين . ومع أن الثائر العربى لم يسمح لحليفه المسيحى بالدخول إلى المدينة المقدسة ، فقد حمله عند عودته إلى بلاده بالكثير من النفائس التى كانت قد نهبت فى الطريق إلى قرطبة .

ولم تمض سنوات قليلة حتى قامت فتنة بين المسلمين أنفسهم ، أدت إلى نهب قرطبة على يد إحدى الشيع المعارضة لحكام المدينة ، فعمت الفوضى ، واشتعلت النيران فى القصور والمساجد ، وقتل كثير من العلماء والنبلاء . وكان من نتيجة تلك الفوضى أن تقلص حكم الخليفة واستحال إلى ولايات صغيرة الحجم ، حتى أصبحت صورة الحكم الإسلامى شائهة إلى أبعد الحدود . كان المسيحيون أكثر تماسكاً وأقدر على تناسى خلافاتهم فى سبيل قضيتهم المشتركة ، وكان فى استطاعتهم أن يستعيدوا فتح إسبانيا فى القرن الحادى عشر . غير أن جماعة من مسلمى شمال أفريقيا قاموا بغزوة جديدة أوقفت تقدم المسيحيين ، وبذلك اشتد ساعد المسلمين فى إسبانيا ، وقويت قبضتهم على البلاد من جديد .

جاء هؤلاء الغزاة الجدد بفظاظتهم وأرادوا الانفراد بحكم البلاد ، وكانوا متطرفين فى تعصبهم ، فأخذوا فى حرق كنائس المسيحيين ومعابد اليهود ، بل إنهم أعملوا القتل فى المسلمين الذين انحرفوا عما اتخذه هؤلاء الغزاة لأنفسهم من معتقدات . وعندما أخذ تأثير الأندلس السحرى يعمل فى تهذيبهم ، حتى أصبحوا مترفين ناعمين ونسوا تقاليدهم الحربية ، حل محلهم غزاة آخرون من عبر المضيق واستأنفوا أعمال الاضطهاد ، حتى إنه يعزى إلى تلك القبائل الشديدة التعصب أنها دمرت الكثير من مكتبات المسلمين الكبرى فى إسبانيا .

ولكن على الرغم من هذه الانتفاضات المؤقتة ، كانت أيام المسلمين فى إسبانيا معدودة . ففى منتصف القرن الثالث عشر انسلخت البرتغال عن الحكم الإسلامى مكونة دولة مسيحية مستقلة ، فى حين كان معظم إسبانيا مقسماً إلى دويلات يحكمها ملوك أو أمراء مسيحيون فيما عدا مملكة غرناطة فى جنوب الأندلس . وهناك — فى غرناطة — كان من المقدر لشمس الشرق أن تأفل أفولا بطيئاً جميلا استغرق قرنين آخرين من الزمان .

الفصل الرابع

الاسترداد

لم يستطع الغزاة المسلمون ، حتى فى أوج انتصارهم ، اجتياح منطقة الجبال الوعرة الممتدة على طول الحدود الإسبانية الشمالية ؛ فقد بقى الإسبان المسيحيون الذين هربوا أمام الفاتحين أحراراً فى الأودية والتلال فى مقاطعات جليقيـــة واشتورية والباسك ونبرة (Navarre).

وكان بين اللاجئين الذين فروا من المغاربة الأمير القوطى بلاى (Pelayo) الذى اعتصم فى كهف عظيم بأشتورية يسمى كوفادونجا (Covadonga) بعد نجاته من موقعة وادى البرباط عام ٧١١ . ويقع هذا الكهف فى نهاية خانق ضيق بين جبلين طوله خمسة أميال . وهناك حمله أتباعه القلائل فوق دروعهم كما كانت عادة القوط ، ونادوا به ملكاً عليهم . وعندما سمع العرب بالحاكم الجديد لهذه المملكة الهزيلة أرسلوا أحد شيوخهم على رأس سرية من الفرسان إلى كوفادونجا ليعرض على بلاى الأراضى والألقاب إذا استسلم . ولكن بدلا من أن يقبل بلاى هذا العرض شن هو وفرسانه القلائل هجومهم على العرب ، على حين كان هؤلاء ينتظرون فى مرج خارج الكهف . ولم يتمكن فرسان العرب من التقهقر لأن جنودهم كانوا يتحركون ببطء

فى الخانق . وبينما كان الفرسان المسيحيون مشتبكين مع أعدائهم كان الكهول والأطفال والنساء قد اتخذوا لأنفسهم مخابىء وراء الصخور المطلة على الخانق ، وأخذوا يدفعون بالأحجار الضخمة وجذوع الأشجار على الجنود فى أثناء عبورهم الخانق فى صف مستطيل .

وقد أفنيت القوة العربية عن آخرها . وبالرغم من أن هذا النصر يبدو ضئيلا من حيث عدد المقاتلين الذين اشتركوا فى المعركة ، فإنه أثار حماسة المسيحيين لمواصلة الكفاح . ولذلك تعتبر موقعة كوفادونجا عام ٧١٨ بداية استرداد الإسبان لبلادهم ؛ إذ بدأت إسبانيا المسيحية فى النمو من جديد — ببطء وعزم ومشقة ، وانتشرت الحركة التحررية فى جليقية وأشتورية ومقاطعات الباسك ونبرة وأرغون وقطالونية فى الشمال ، ثم تسربت جنوباً حتى بلغت نهر أبره (Ebro) فى بادئ الأمر إلى أن امتدت إلى نهر دويره (Duero) ثم نهر تاجه (Tagus) .

ومن الصعب أن يصدق الإنسان أن تتغلب جماعات شبه همجية تفتقر إلى السلاح على قوات المسلمين المتفوقة . ولكن أحد الأسباب التى يعزى إليها نجاحهم هو إيمانهم بأن بطلا من أصحاب المعجزات يناصرهم فى حربهم من أجل المسيحية ، وهذا البطل هو القديس جيمس (Saint James) الذى يعرف فى إسبانيا باسم سنتياجو دى كومبوستيلا ، والذى أصبح فيما بعد القديس الحامى للدولة الإسبانية ومصدر الكثير من شجاعة مواطنيها . وقد أقسم أكثر من ملك أو قائد مسيحى بأنهم رأوا سنتياجو رأى العين — قبل المعركة أو فى معمعتها —

ممتطياً جواداً أبيض ملوحاً بسيف براق . وعندما يفكر الإسبانى فى سنتياجو فإن قلبه ينبض بالعزة الوطنية ويتملكه التحمس الدينى . فلم تكن حركة الاسترداد فى حقيقتها سوى حرب صليبية يقود فيها سنتياجو جحافل الإسبان ضد أعدائهم على مر القرون .

وتحكى الروايات القديمة (التى يصعب تمييز جانبها التاريخى من جانبها الأسطورى) أن القديس جيمس هو أحد الحواريين الاثنى عشر ، وكان قد وفد إلى إسبانيا ليعظ قومها . فلما استشهد فى فلسطين بعد ذلك قام بعض أتباعه المخلصين بوضع جثمانه فى تابوت من المرمر فطفا هذا التابوت بمعجزة على سطح البحر — وكان أحد الملائكة يوجه سيره — إلى أن قذفت به الأمواج على شاطئ جايقية حيث رقدت رفات القديس حتى القرن التاسع عندما شاهد أسقف تيودومير (Theodomir) أضواء غريبة تتلألأ ليلا فى مكان معين على الشاطئ . فلما استقصى الأمر اكتشف المقبرة وبداخلها هيكل عظمى ، ثم علم مما شاهده من رؤيا وما نزل عليه من وحى — كما تروى الأسطورة — أن ما عثر عليه هو رفات سنتياجو — قديس إسبانيا الخاص .

وخوفاً من استيلاء قراصنة البحار — الذين كانوا ينهبون الشاطئ أحياناً — على تلك البقايا الثمينة ، فقد تم نقلها إلى مكان يسمى كومبوستيلا الذى يبعد عن الشاطئ ببضعة أميال ، وهناك شيد الأهالى ضريحاً بسيطاً ليضم رفات القديس التى ما إن انتشر خبر العثور عليها بين الأهالى حتى أقبلت جموع الإسبانيين إلى كومبوستيلا لتتوجه

بالدعاء لعودة المسيحية إلى شبه الجزيرة بأكملها . وعندما كان الملوك والأمراء يشتبكون فى معارك ضد المسلمين كانوا يعبرون عن شكرهم على ما يحققونه من انتصارات بأن يهبوا ضريح قديسهم بعض الذهب والجوهرات . ولما جرد القائد العربى المنصور كومبوستيلا من كنوزها لم يجد أثراً لجثمان سنتياجو ، الذى قيل إن قوة خفية نقلته إلى مكان آخر آمين . ويدعى الإسبانيون اليوم أن الصندوق الفضى الذى يشاهد فى كاتدرائية كومبوستيلا يضم رفات ذلك القديس .

كان ضريح سنتياجو أشهر أضرحة أوروبا فى العصور الوسطى ؛ يؤمه الحجاج من إنجلترا وفرنسا والأراضى المنخفضة وألمانيا وإيطاليا . وكان رمز ذلك القديس هو الصدف . ولذلك كنت تشاهد الأصداف وقد حاكها الأسقف الألمانى على ردائه ، والملك الفرنسى على معطفه ، والفلاح الإنجليزى على سترته ، والتاجر الفلمنكى على عباءته . وانتشرت الأديرة على طول طريق الحج لإيواء المسافرين وإطعامهم ، كما ألف الرهبان أو الشعراء المتجولون كثيراً من قصص المغامرات لتسلية هؤلاء المسافرين . ومن المعتقد أن أغنية رولان (Song of Roland) استمدت من الأقاصيص التى كان هؤلاء الحجاج أول من استمع إليها وهم فى طريقهم إلى كومبوستيلا .

ويدين رولان بشهرته إلى إسبانيا ؛ إذ أن تسجيل اسمه فى التاريخ يرجع إلى قصة إسبانية . وتروى تلك القصة أن الإمبراطور شرلمان — وهو فى طريق عودته إلى فرنسا من غارة على مدينة سرقسطة

العربية ــ قاد جيشه نحو الشمال مخترقاً ممراً ضيقاً فى جبال البرانس يسمى ممر رنشــفالة (Roncesvalles) . وحتى تلك اللحظة كان كل شيء قد جرى على نحو ما يريد شرلمان : فقد افتدت سرقسطة نفسها بكنوز نفيسة ، وعندما وصل شرلمان إلى ممر رنشفالة اعتقد أنه أصبح بمنأى عن الخطر ، لأن الممـــر كان فى أيدى الباسك المسيحيين الذين كان بينهم وبينه معاهدة سلم وصداقة . فلما اجتاز شرلمان وطلائع جيشه ذلك الممر الجبلى الضيق بسلام ، لم يستطع الباسك مقاومة إغراء ما شاهدوه من النفائس الثقيلة التى تحملها مؤخرة الجيش وهى تشق طريقها فى الوادى الضيق . فما كان منهم إلا أن انقضوا عليهم ، كما انقض أتباع بلاى على المسلمين قبل ذلك بستين سنة ، ودفعوا بالحجارة وجذوع الأشجار على رؤوس الجنود الذين لم يكن لهم حول ولا قوة ، كما صوبوا نحوهم السهام والأحجار التى تقذفها المقاليع . وهكذا فقدشرلمان نصف جيشه ، وسرقت كنوزه ، قبل أن يتمكن من نجدته . ويسجل المخطوط القديم الذى يروى قصة هذه الهزيمة (Ruotland) ــ أو رولان ــ الذى قتل فى تلك المعركة ، وكان حاكماً على مقاطعات الحدود فى بريتانى . وذلك السطر الوحيد فى التاريخ هو كل ما نعرفه عن رولان الحقيقى ، ولكن آلاف الصفحات من القصص التى نسجها الخيال كتبت عن تلك الشخصية ، وفيها حل العرب محل الباسك الخونة ، وفيها أيضاً نسمع عن البوق السحرى ، وعن السيدة أود (Aude) التى تملكها الحزن

على وفاته . وقد نشأت جميع هذه القصص أول ما نشأت على طول طريق الحج إلى كومبوستيلا .

وكان لإسبانيا أبطال من أبنائها ، ولدوا على أرض إسبانية ، وحاربوا من أجـــل وطنهم . وقد ورد ذكر هؤلاء فى المدونات التاريخية القديمة وفى عدد لا يحصى من الملاحم الشعرية ، فهناك ما يربو على مائتى ملحمة تشيد بالأعمال البطولية – الحقيقية والخيالية – التى تنسب إلى «السيد» (Cid) الذى يعتبر بطل إسبانيا القومى فى العصور الوسطى ويحتل المكانة التى يحتلها رولان فى فرنسا . « والسيد » هو اللقب العربى الذى أطلق على روى دياز (Ruy Diaz) الذى عاش فى القرن الحادى عشر ، وكان محارباً معتداً بنفسه كثير المفاخرة ، صورته الملاحم على أنه فارس كريم كرس نفسه للدفاع عن المسيحية وأنه البطل الرهيب الذى كان يلقى الذعر فى نفوس المسلمين . فلاغرو أن تؤهله هذه الصفات ليكون بطلا شعبياً . ومما يروى عنه أنه البطل الذى كانت لديه الجرأة على أن يجادل الملك ، وأنه أغار على فرنسا وتحدى إمبراطورها ، كما ذهب إلى إيطاليا وأهان البابا .

وبالإضافة إلى مائتى الملحمة فقد نظمت فى سيرته قصيدة طويلة كتبت بعد وفاة البطل بنحو خمسين سنة . وتهز هذه القصيدة مشاعر قارئها بما فيها من حركة وحياة ، وفيها توصف مغامرات « السيد » على نحو معقول محتمل الحدوث ، كما ترد بها أسماء لأماكن حقيقية ، وأشخاص حقيقيين ، وأوصاف لمعارك تاريخية .

تروى قصيدة « السيد » أنه عندما أمر الملك ألفونسو السادس بنفيه من مسقط رأسه بورجوس ، ودع البطل زوجته اكسيمينا (Ximena) وابنتيه وداعاً حزيناً ، وانطلق على جواده فى صحبة نفر قليل من أصدقائه الأوفياء :

« كان يوم الفراق حزيناً ، مؤلماً كألم انتزاع ظفر من إصبع اليد ، ولما حان الوقت قفز إلى سرجه وسار على رأس أعوانه ، ولكنه كان كلما تقدم فى سيره يدير رأسه إلى الوراء ليلقى نظرة أخيرة على أعز ما يمتلك على وجه الأرض » :

ولا يخلد السيد فى منفاه إلى الهدوء ، بل نجده يقتحم القلاع العربية الواحدة تلو الأخرى ، ويستولى عليها ، ويقتل عدداً من المسلمين ، ويزداد ثراء بما يجمعه من أسلاب . ثم يهزم كونت برشلونة المسيحى ، ويستولى أخيراً على مدينة بلنسية العربية . وبعد أن يسترضى « السيد » الملك ألفونسو بالهدايا الثمينة ، يعرض عليه أن يختار لابنتيه الفيرا (Elvira) وصول (Sol) زوجين من النبلاء . وتروى القصيدة بعد ذلك ما اتصف به هذان الزوجان من جبن وقسوة ، وكيف أنهما انتقما من « السيد » لإساءات صورها لهما خيالهما بضرب زوجتيهما وتركهما وحيدتين فى إحدى الغابات . فيتوجه « السيد » إلى طليطلة ليقابل الملك ، ويتهم الزوجين بما ارتكباه من جرائم . فيأمر الملك بأن يحسم النزاع فى ساحة المبارزة . ويلقى الزوجان الجبانان هزيمتيهما على أيدى الفرسان الذين يمثلون « السيد »

وتحصل كل من الفيرا وصول على ترضية ، وتتزوج كل منهما بزوج فاضل من الأسرة المالكة .

ويتفق قدامى المؤرخين من الإسبان والعرب مع ما ورد فى الملاحم وفى قصيدة « السيد » عن شجاعته وإقدامه ، ولكنهم لا يجعلون منه رجلا مثالياً ؛ إذ أنهم يصفونه — رغم ما أوتى من شجاعة — بالقسوة والغدر . فهو على استعداد لبيع خدماته لأى حاكم مسلم يجزل له العطاء ، ولا يتردد فى خيانة الملك المسلم الذى عهد إليه بحصار بلنسية ؛ إذ ما إن تستسلم له المدينة الجائعة حتى يحتفظ بها لنفسه . ولكن يجب علينا أن نتذكر — قبل أن نصدر حكمنا على هذا البطل وفقاً لمقاييسنا الحديثة للخير والشر — أن كلا من المسلمين والمسيحيين فى ذلك الوقت كانوا يلجأون إلى الخداع ، وبخاصة خداع أعدائهم . وقد اعترف المؤرخون العرب أنفسهم — وهم الذين أطلقوا على روى دياز « سوط النقمة فى البلاد » — بأنه كان من عجائب خلق الله فى حب المجد ، ومتانة الخلق ، والشجاعة .

استعاد العرب بلنسية بعد ثلاث سنوات من وفاة « السيد » ، وظلت فى حوزتهم ثلاثة قرون أخرى . وإذا كانت مغامرات « السيد » قد انتقصت من ثروة إسبانيا فى الأراضى والقلاع ، فإن هذا الفارس الأنانى الطموح كان رمز البطولة ، ومصدر الإلهام للكثيرين من بنى وطنه الذين بذلوا النفس من أجل بلادهم . فقد شجع ما كان يحكى عن أفعاله نبلاء إسبانيا وقسسها وفلاحة مواصليها على الكفاح —

حتى تحت الظروف التى كان المسلمون يهددون فيها بالقضاء على جميع ما حققوه من مكاسب .

وما إن حل القرن الحادى عشر حتى كانت مملكة قشتالة قد تمكنت من أن تضم تحت لوائها مساحات كافية من الأراضى المتفرقة لتجعل من نفسها أقوى دولة مسيحية فى إسبانيا . وكان ألفونسو السادس — مولى « السيد » ؛ قد استولى على طليطلة عام ١٠٨٥ ، ولعل القارئ يذكر الحملة التى شنتها ملكته ضد قداس كنائس المستعربين . كان ألفونسو غنى الأفكار ، خصب الخيال ، وكان أكثر تسامحاً من أسلافه ومن معظم معاصريه الذين كانوا يؤمنون باستعباد المستوطنين المسلمين فى الأراضى التى يفتحونها . فقد لاحظ ألفونسو كيف كان المستعربون راضين عن أحوالهم تحت سماحة الحكم الإسلامى ، ولذلك فإنه عامل مسلمى طليطلة بعد فتحها معاملة تتسم بالشرف والإنصاف . وأدرك بعض أمراء المسيحيين الآخرين أن رضا الرعية عن الحكم يقلل من احتمال انقلابها عليهم ، فأخذوا يحذون حذو ألفونسو .

وبالتدريج تسببت الحروب والمعاهدات والمصاهرات الملكية فى اندماج دويلات مسيحية صغيرة بعضها فى بعض ، حتى بدت صورة إسبانيا الموحدة أكثر وضوحاً . وفى بداية القرن الثالث عشر تحالف ألفونسو الثامن ملك قشتالة مع ملوك نبرة وأرغون ، وقاد جيوشهم المتحدة صوب الجنوب مخترقاً ممراً سرياً فى جبال سيرا

مورينا لينقضوا على جيش عربى موحد كان يعسكر فى سهل منحدر يعرف باسم « نافاس دى تولوزا » (Navas de Tolosa) فأفنوهم عن آخرهم . وتؤرخ هذه المعركة خاتمة تسلط العرب على شبه الجزيرة . وبعد مرور أقل من عشرين سنة عليها استولى ملك أرغون (الذى كان يفخر فى الوقت ذاته بأنه «كونت برشلونة») على جزر ميورقه ومينورقة وأبيسة التى تتكون منها جزر البليار الرائعة فى البحر المتوسط والتى ما زالت تعتبر جزءاً من إسبانيا .

وكان أهم حادث مهد السبيل إلى وحدة إسبانيا هو الزواج الذى تم فى عام ١٤٦٩ بين فرديناند ولى عهد أرغون وإيزابيلا وريثة عرش قشتالة ، وقد أطلق عليهما اسم الملك والملكة الكاثوليكيين . وكان كل منهما طموحاً ، ففرديناند يطمع فى سلطة سياسية لاحد لها ، وفى السيطرة على مزيد من الأراضى . أما إيزابيلا فقد كانت تحلم باليوم الذى تسود فيه الديانة الكاثوليكية جميع إسبانيا فلا يتذبذب هواء البلاد بصلوات مسلم أو عبادة يهودى . فعقد كلاهما العزم على أن يجعلا من إسبانيا المتحدة تحت لوائهما دولة كاثوليكية عظيمة ، واتجهت أنظارهما إلى غرناطة — آخر مملكة إسلامية فى شبه الجزيرة . وقد كانت غرناطة فى الواقع دولة صغيرة ضعيفة دانت بالولاء لقشتالة زمناً طويلا ، وكان ملكها العربى أحد الشهود الذين وقعوا وثيقة زواج فرديناند وإيزابلا . كان حكام غرناطة ينعمون بالمعيشة فى قصر الحمراء البديع ، حياتهم مليئة بالمسرات والرغد ، ولاتتعدى واجباتهم تصريف الشئون المحلية . كانوا يصيدون الحيوان باستخدام

الصقور فى الجبال والمراعى التى تحيط بالمدينة ، وكانوا يرحبون بالعلماء الذين يفدون من أفريقيا والشرق الأدنى ، يجالسونهم إلى جانب بركة فى ساحة القصر ، أو فى حديقة بالقرب من نافورة ، ويطارحونهم الشعر ، أو يتناقشون معهم فى مسائل فلسفية . فكانت حياتهم تبدو آمنة ساحرة . ولكن القصر والمدينة كانا حافلين بالخونة والمتآمرين ، وكانت فسيفساء القصر تلطخ أحياناً بدماء الاغتيالات السياسية . وفى أحيان أخرى كان بعض أمراء غرناطة الحانقين يخالفون العهود التى أخذوها على أنفسهم تجاه قشتالة ويهاجمون الأراضى المسيحية . وبين الفينة والفينة كانت المدينة تضم داخل أسوارها جماعات من مغامرى شمال أفريقيا الذين يعدون العدة لحملات أوسع نطاقاً ضد المسيحيين .

لاحظ فرديناند وإيزابلا أن هذا الإسفين الإسلامى يحول دون توحيد إسبانيا ، فصمما على إزالته وأخذا فى الاستعداد للحرب . فجعل القسس والأساقفة يحثون الناس فى عظاتهم على فتح غرناطة ، وأخذ الأهالى يتحدثون عن الحملة القادمة على أنها حرب مقدسة . وبعد إعداد دام عدة سنوات خرج فرديناند عام ١٤٩١ على رأس خمسين ألفاً من رجاله لمحاصرة المدينة . وتبعت الملكة وأطفالها الجيش وأقاموا فى منازل واطئة شيدت من الحجارة خصيصاً لهم فى إحدى القرى التى لاتبعد كثيراً عن أسوار غرناطة والتى أطلقت الملكة عليها اسم « الإيمان المقدس » (Santa Fe) . عاشت الملكة مع أطفالها فى تلك القرية عدة شهور ، على حين كان فرديناند ورجاله

يتصدون لقوات المسلمين التى تجازف بالخروج من المدينة ، ويتلفون الأراضى المحيطة بها ، ويقطعون جميع الإمدادات الغذائية عن سكان غرناطة المحاصرين . وقد تعرضت الملكة نفسها لأخطار الحرب ، بل إنها اكتست درعاً يمكن مشاهدتها اليوم فى متحف السلاح الملكى بمدريد . وحدث ذات مرة أن نجت الملكة بأعجوبة من طعنة وجهها إليها أحد المسلمين المتعصبين ، وفى مرة أخرى كاد فضولها بالنسبة إلى قصر الحمراء يوقعها فى الأسر ، إذ كانت قد صعدت إلى سطح أحد المنازل فى قرية قريبة لتلقى نظرة على ذلك القصر الخرافى عندما أحاطت شرذمة من الفرسان العرب بالقرية وأوشكت أن تدخلها لولا أن فرسان حرس الملكة الخاص وصلوا فى الوقت المناسب للتصدى لهم وردهم .

سلمت غرناطة الجائعة بعد شهور من الحصار . وفى يناير من عام ١٤٩٢ ارتفع صليب فضى فوق قصر الحمراء ، حين كان فرديناند وإيزابلا يدخلان المدينة فى موكب مهيب . وهكذا انتهى فى غرناطة ذلك الكفاح الذى بدأه بلاى فى كوفادونجا عام ٧١٨ والذى استمر ٧٧٤ سنة .

الفصل الخامس

المنتصرون

بعد ثلاثة أشهر من فتح غرناطة طرد فرديناند وإيزابلا اليهود من إسبانيا بعد أن تبينا أن الأمة ستكون أكثر أمناً ووحدة بدونهم . فقد خشيا أن يتآمر اليهود — إذا تزايد سخطهم — مع العرب فى شمال أفريقيا ، كما فعلوا من قبل سنة ٧١١ لتمهيد السبيل إلى غزو جديد لإسبانيا . وتشتت اليهود بعد أن جردوا من ثرواتهم فى الدول الواقعة على طول الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط ، حيث يتفاخر أحفادهم إلى اليوم بأصلهم الإسبانى .

وفى نفس العام ، وقع حدث ثالث فى التاريخ الإسبانى كان أكثر أهمية ومغزى للعالم من طرد اليهود أو غزو غرناطة ، وهو اكتشاف كريستوفر كولمبس للعالم الجديد فى ١٤ من أكتوبر سنة ١٤٩٢ .

ورغم اهتمام الملكة إيزابلا عدة أعوام بنظرية كولمبس التى تقول بإمكان اكتشاف طريق بحرى إلى الشرق الأقصى ، بأن يتجه الإنسان عن طريق البحر غرباً ، إلا أنها لم تستطع أن تقدم له يد المعونة ، فقد كانت محتاجة إلى كل إيرادتها وإمكانياتها لتمويل الحرب ضد

المسلمين فى غرناطة . ولم يكن فى استطاعتها التفكير فى كولمبس أو فى مغامرته حتى دان النصر للإسبان .

ولكن بعد ذلك بقليل ، وفى أبريل عام ١٤٩٢ ، وقعت الملكة عقداً مع كولمبس فى بلدة سانتافى ، خولته بمقتضاه القيام برحلته . ولم يكن لدى الملكة أموال معدة تكفى لتمويل المشروع ، ولكنها لم تبع مجوهراتها — كما تقول الأسطورة — وإنما أصدرت أمرها إلى ميناء بالوس الصغير (Palos) بإعداد سفينتين مزودتين بالرجال ، وتسليمهما لكولمبس ، وذلك كغرامة لاقتراف بالوس مخالفات معينة . وتذمر أهالى البلدة محتجين على توقيع هذه العقوبة عليهم ، فى حين قام أخوان من نفس البلدة ، هما : مارتين (Martin) وفسنت بنزون (Vicente Pinzon) بإعداد السفينة الثالثة .

وإذا ذهبت إلى « بالوس » اليوم (وهى تقع على بعد ٥٠ ميلا جنوب غربى أشبيلية يربطها بها طريق جميل يخترق المزارع والبساتين) فستجد أنها بلدة صغيرة مهملة تعيش على صيد السمك ، لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ عهد كولمبس . . وبالرغم من تعرضها لفعل الزمن ، فإن كنيسة سان جورج القديمة ما زالت قائمة بها . . ويلقى القس بعظاته من نفس المنبر الحديدى الذى أعلن منه التفويض الملكى للرحلة (رحلة كولمبس) فى الصباح الباكر من يوم ٣ من أغسطس عام ١٤٩٢ . وكان قداس ذلك اليوم هو آخر قداس يحضره كولمبس وقباطنته ورجاله لأشهر طويلة . وعقب القداس ، سار المغامرون

جماعة متجهين من البلدة البيضاء إلى الشاطئ حيث رست سفنهم الثلاث الخفيفة . ويمكنك أن تتصور كيف احتشد أهل البلدة على الشاطئ يرقبون إبحارهم .

ولقد سمعنا عن الصعوبات والشكوك التي صاحبت أول رحلة عبر الأطلنطى ، ويمكننا أن نتصور فرحة هؤلاء البحارة عند وصولهم إلى جزيرة صغيرة من جزر بهاما (Bahamas) فى ١٢ من أكتوبر ، استولى كولمبس على هذه الجزيرة باسم إيزابلا وأطلق عليها اسم سان سلفادور (San Salvador) — ولم يدر بخلده أنه كان على أعتاب قارتين عظيمتين .

وفى الرحلة الثالثة من رحلاته الأربع التى قام بها إلى العالم الجديد رست سفنه فعلا على شواطئ أمريكا الجنوبية . . ولكنه لم يدرك أنه قد اكتشف عالماً جديداً كاملا . ومات معتقداً أنه قد وصل إلى الهند عن طريق البحر . ولهذا السبب كان الإسبان فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر يطلقون على أمريكا الشمالية والجنوبية وجزر البحر الكاريبى اسم جزر الهند (Indies) .

كانت تلك الأراضى — من الناحية القانونية — ملكاً خاصاً لإيزابلا وتاج قشتالة ، لا يخص فرديناند شىء منه ، لأنها هى التى آمنت بكولمبس وساعدته ، لا زوجها .

وكان فرديناند قد مد الحملة الأولى ببعض المال . . ولكنه اشترط أن يرد المبلغ إليه بالكامل مهما تكن نتيجة المغامرة . وفى حالة

نجاح الحملة يرد إليه ماله أضعافاً مضاعفة . وبناء على ذلك فإن رحلات كولمبس الأربع إلى نصف الكرة الغربى كانت فى الواقع باسم قشتالة . ولم يكن يسمح لرعايا الملك فرديناند فى مقاطعتى قطالونية وآرغون بالرحيل مع كولمبس ، بالرغم من أن القطالونيين كانوا من أمهر البحارة المدربين فى إسبانيا ، وكانوا حتى ذلك الوقت قد حققوا لأمتهم معظم أمجادها البحرية . وقد استمر احتكار قشتالة لهذه الاكتشافات حتى بعد وفاة الملكة إيزابلا ، لأنها اشترطت فى وصيتها أن يكون لشعبها وحده الحق فى الاستكشاف والإقامة والتجارة مع جزر الهند . ومن حين لآخر كان هذا الحظر يرفع فى حالات خاصة ، ولكنه استمر سارى المفعول عموماً نحو ثلاثمائة سنة .

وعندما عاد كولمبس ورجاله ثانية إلى أرض الوطن فى مارس عام ١٤٩٣ هزت قصص مغامراتهم مشاعر كل إسبانى . فبالنسبة إلى شعب جبل على المخاطرة والمغامرة بدت الحياة وقت السلم مملة لا طعم لها ولا رونق . ولذلك رحبوا بالتحدى الذى تمثل فى مغامرات جديدة . فقد كانوا يحلمون بالثروات الخرافية الموجودة عبر المحيطات الغربية . ويتأجج تحمسهم لنشر المذهب الكاثوليكى بين أهالى العالم الجديد . واحتشد رجال من كل سن وكل لون ليشتركوا فى الحملات التى بدئ فى تنظيمها إلى جزر الهند .

فأبحرت من إسبانيا جماعات تضم بحارة وجنوداً محترفين وتجاراً وفلاحين وعلماء وقسساً وطغاماً ، هدفهم الكشف والإقامة واستغلال

الثروات الطبيعية والتبشير بالمسيحية فى تلك الأراضى التى تشمل حالياً جزر الهند الغربية والمكسيك والحدود الجنوبية للولايات المتحدة وأمريكا الوسطى وجزءاً كبيراً من أمريكا الجنوبية .

وقد اختلفت حظوظهم ومصائرهم ، فبعضهم لقى حتفه من الحمى ، أو من السهام المسمومة فى الغابات والمستنقعات ، وفاز بعضهم بهبات من الأراضى الخصيبة ، وشيدوا القصور الحصينة كالقلاع فى موطنهم الجديد ، فى حين جمع فريق ثالث كنوزاً ضخمة من الذهب والجوهرات ، وعادوا بها إلى إسبانيا ليعيشوا كالأسياد فى القلاع التى شيدوها .

وقد تركوا من بعدهم سجلات مشرقة يمكنك رؤيتها إذا زرت دار محفوظات جزر الهند فى أشبيلية . ويرجع الفضل فى إنشاء هذه المكتبة العظيمة التى تحوى الوثائق المتعلقة بالاستكشافات والفتح والاستعمار فى العالم الجديد إلى فرناندو (Fernando) ابن كولمبس الذى تركها للدولة بعد وفاته . أى شجاعة تفصح عنها تلك الوثائق والخطابات التى بهت لونها ودب فيها الاصفرار ؟ وأى مشقات استتبعت كل ميل فى هذه الخرائط القديمة الملونة . فلا عجب إذا كان هؤلاء الرجال — الذين كتبوا الرسائل من المراكز الأمامية فى البرارى ورسموا الخرائط وهم يشقون طريقهم عبر الغابات الكثيفة التى يتعذر اختراقها ، وفوق ممرات الجبال — قد أطلق عليهم التاريخ لقب (Conquistadores) وهى كلمة إسبانية تعنى المنتصرين أو الفاتحين

(Conquerors) . ولكن هذا اللقب علق بهؤلاء المغامرين على أنه لقب مشرف . وبالرغم من قسوتهم وغدرهم وجشعهم للإثراء السريع فإن شجاعتهم الباهرة تجعلنا نغض الطرف عن أخطائهم .

وإن حقيقتهم لتبدو جلية فى سجلات الهند الغربية ونشعر أنهم جد قريبين منا ، فهنا نجد ما كتبه « بالبوا » (Balboa) عن «البحر الآخر» الذى كان يأمل فى اكتشافه ، وكان ذلك قبل أن يعبر مضيق بنما مباشرة ليكشف المحيط الهادى . وهنا أيضاً مجموعة من الخطابات التى كتبها فرانسسكو بيزارو (Francisco Pizarro) راعى الخنازير الإسبانى الذى استولى على إمبراطورية هنود الانكا الخرافية فى بيرو وأبحر بفيض من ذهبها وجواهرها الثمينة إلى إسبانيا . وهنا أيضاً سجلات « بونسى دى ليون » (Ponce de Leon) الذى انطلق ليبحث عن ينبوع الشباب ، وبدلا من أن يجده اكتشف فلوريدا . تلك سجلات آلت إلينا من ماجلان (Magellan) البحار البرتغالى الذى أبحر على رأس خمس سفن إسبانية عام ١٥١٩ ، وبعد عامين أعلن اكتشاف جزر الفلبين . وقد قتل ماجلان فى تلك الجزر ، ولكن إحدى سفن أسطوله الصغير أقلعت لتطوف حول العالم تحت قيادة بحار من الباسك هو سباستيان دل كانو (Sebastian Del Cano) .

وهذه الوثائق العتيقة تقص علينا حوادث أغرب فى حبكتها من روايات الفروسية الخيالية ، أو قصص المغامرات التى كانت مألوفة فى عصر الفاتحين : قصص عن أسماء رنانة لفرسان مثل أماديس

(Amadis) وفلوريسمارتى (Florismarte) وبالمرين (Palmerin) أو دون بليانس (Don Belianis) الذين أتوا بأعمال خارقة فى عهدهم وجالوا يقاتلون التنينات والمردة ، ويقتحمون القلاع المسحورة لينقذوا السيدات الفاتنات من الأخطار ، ويقومون بمآثر تبهر الأنفاس .

وقد كان من المتوقع أن يتخذ الروائيون من القصص التى يرويها المستكشفون والمستعمرون مادة أساسية لرواياتهم : ولكنهم كانوا يفضلون أن يتناولوا القصص الخرافية البالية ويعيدوا صياغة موضوعاتها مع شىء من التغيير فى التفاصيل . ولكن لا يمكن لأية قصة من نسج الخيال أن تضارع القصة الواقعية لغزو كورتيز (Cortes) للمكسيك من حيث الإثارة ونواحى البطولة .

وهرنان كورتيز نبيل إسبانى مغامر كان يعيش على إيراد أراضيه التى يملكها فى كوبا . . وإلى أن اختير لقيادة حملة لارتياد الأرض الجديدة التى كانت قد اكتشفت أخيراً فى غربى خليج المكسيك . فغامر بكل ما يملكه فى سبيل المستقبل ، ورهن كل ممتلكاته فى كوبا للمساهمة فى تمويل الرحلة . . ومن ضمن استعداداته قام بصنع علمين نقش عليهما بخيوط الذهب نداء الحرب : « إخوانى وزملائى . . هيا بنا نتبع علامة الصليب المقدس بثقة وإيمان وبها ننتصر » . وكانت هذه الأعلام ترفرف عندما أبحر من كوبا بقوة تزيد قليلا على خمسمائة من الجنود المشاة ، وعدد قليل من الفرسان ، وستة عشر حصانا ، ومائة بحار ، وعدد قليل من المدافع ، ومائتى مواطن كوبى زنجى

كانوا بمثابة الخدم والعمال . وعند بلوغه المكسيك دمر كورتيز سفنه . حتى لا يكون ثمة نكوص عن مشروعه العظيم المقبل . وقد كتب تابعه برنال دياز (Bernal Diaz) الذى ترك لنا تاريخاً رائعاً لتلك الحملة « من المؤكد أن سنتياجو والسيدة العذراء قد ساعدانا وبثا قدراً كبيراً من الشجاعة فى قلوبنا » .

وحتى إذا نظرنا إلى غزو كورتيز للمكسيك اليوم فإن هذا الغزو يبدو عملاً مستحيلاً . لقد استطاع كورتيز أن يقنع آلافاً من رجال قبائل الهنود من رعايا الازتك الذين كانت لهم السلطة المطلقة فى أواسط المكسيك بأن يثوروا ضد حكامهم وينضموا إلى جماعته الأوروبية القليلة العدد . واتجه كورتيز إلى الشمال مع حلفائه من الهنود واعتقل إمبراطور الازتك المقدس مونتزوما (Montezuma) واحتفظ به كرهينة ، ووطد مركزه بجسارة فى عاصمة الازتك تنوتشتتلان (Tenochtitlan) ؛ مدينة المكسيك الحالية ، التى كانت آهلة بالسكان . وبعد ذلك بقليل قتل الإمبراطور مونتزوما بيد شعبه رجماً بالحجارة ، لاعتقادهم أنه قد خانهم واستسلم للأجانب باختياره . وبعد قتله هدد الازتك الثائرون كورتيز ورجاله بالفناء . . وأدرك القائد الإسبانى أنه يجب عليه أن يغادر المدينة بأى ثمن . وتحت ستار الليل انسحب بقواته من مراكزهم فى المدينة مؤملا الوصول إلى منطقة مكشوفة قبل اكتشاف أمره ، ولكن العدو حمل عليهم وهم يعبرون ممراً طويلا ضيقاً يصل بين العاصمة والأراضى المحيطة بها . . وكان الهجوم وحشياً إلى درجة أن نصف الإسبان وآلافاً من الهنود

المتحالفين معهم قد ذبحوا . وتعرف هذه الليلة المشئومة فى حياة كورتيز ورجاله فى التاريخ المكسيكى باسم « الليلة الحزينة » . وكان كورتيز بين الناجين . وبعد المعركة مباشرة جمع أشلاء قواته من الرجال الجرحى والجائعين إلى النوم والراحة والطعام ، وشن هجوماً مضاداً على حشود مطارديهم . ورغم ما يبدو من استحالة ذلك فقد أحرز الإسبان نصراً حاسماً وطد لهم فتح المكسيك .

ومن المسلم به أن تفكير معظم الفاتحين اتجه أول ما اتجه إلى سلب ذهب الأهالى وجواهرهم . ولكن الحكام الإسبان من ناحية أخرى لم يكونوا ينظرون إلى أراضى الهند الغربية على أنها مجرد مصدر للكنوز ، بل كانوا تواقين إلى تأسيس مستعمرات هناك . وبينما كانوا يحصلون على الثروة الخيالية التى تتدفق عليهم من العالم الجديد كانوا يبعثون إليه بالمؤن التى غلت ثروة أعظم على مر العصور . فالسفن الإسبانية التى كانت ترسو فى موانى أشبيلية وقادس وتفرغ حمولتها من اللآلىء والزمرد والحلى الذهبية وسبائك الذهب والفضة والأشياء النفيسة المصنوعة من الريش والمنسوجات الوطنية ، بل ومن حيوان اللاما من إقليم جبال الإنديز ، والطيور ذات الريش الزاهى الجميل من مضيق بنما . . كانت هذه السفن تبحر إلى الغرب مرة أخرى محملة بالخيول ، والأغنام ، والمواشى ، والخنازير ، والدواجن . والكلاب وكلها حيوانات لم تكن معروفة فى العالم الجديد . وأرسلت النباتات والبذور لتترعرع فى الأرض الجديدة . . وانتقلت زراعات القصب السكر والقطن والبن من العالم العربى إلى العالم الغربى الجديد . وكذلك

انتقل عنب النبيذ البديع من مزارعه فى إسبانيا لينضج تحت شمس العالم الجديد .

وكان المستعمرون الإسبان يرهقون الأهالى الذين يعيشون فى إقطاعاتهم ويسيئون معاملتهم . وقد قرأنا عن قسوتهم وكيف كانوا يرغمون الأهالى على العمل المرهق فى المزارع والمناجم . وقد عومل الهنود فى جزر البحر الكاريبي بالذات بقسوة بالغة ، حتى انقرضت سلالتهم وبدئ فى استقدام الزنوج للقيام بالعمل الشاق .

وعلى أى حال فإن إيزابلا ومن خلفوها على العرش لم يكونوا يقرون أو يرضون عن مثل هذه المعاملة . . بل نراهم على العكس قد أرسلوا تعليماتهم إلى السلطات الإسبانية فى الهند الغربية يأمرونهم بأن يعاملوا الهنود « بمودة ولطف حتى يهتدوا ويؤمنوا مختارين بتعاليم مذهبنا الكاثوليكى المقدس دون إرغام أو سوء معاملة » . ولم تكن هناك أية تفرقة عنصرية بين الإسبان والهنود ، وحرمت القوانين التى أصدرها الممثلون الملكيون الرق نهائياً . وقبل ذلك بأعوام كان كولمبس قد أحضر معه بعض الهنود الذين أزمع بيعهم كرقيق ، ولكن إيزابلا أرغمته على تحريرهم . وكان لهذا الأسلوب الرسمى من التسامح والعطف تجاه الوطنيين وقع أكبر بكثير مما نتصور . ويتفق المؤرخون الحديثون على أنه بالرغم من سوء المعاملة التى حدثت إبان الفتح والاستعمار فإن إسبانيا كانت أكثر إنسانية من معظم الإمبراطوريات الاستعمارية الأخرى ؛ فهى لم تعمل على استئصال شأفة الهنود إبان

حكمها ، مثلما فعلت بعض الدول الأوروبية الأخرى . ويشير المؤرخون إلى أنه لايوجد مكان آخر فى العالم استطاع فيه الأوروبيون أن يأخذوا بيد الجماعات الوطنية البدائية بمثل ما أظهره الإسبان من عطف وصبر ، أو أن يحتفظوا بحدود على هذه الدرجة من الخطورة بأقل ما يمكن من سفك الدماء .

وكان نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فى المستعمرات فى هذا الوقت يتصف بالرحمة والحكمة ، فلم يكن القساوسة والرهبان الذين ذهبوا ليعلموا الهنود وينشروا الهداية بينهم يقومون بحمايتهم من الاستغلال فقط ، ولكنهم أدركوا أيضاً حاجة الأهالى إلى التعليم فى البلاد الجديدة فأنشأوا المدارس الابتدائية فى كل مكان . وقد أسسوا عشراً أو اثنى عشرة جامعة أيضاً .. ومن بينها جامعة سان ماركوس(San Marcos) بمدينة ليما فى بيرو عام ١٥٥١ ، وجامعة المكسيك عام ١٥٥٣ . وهى أقدم من جامعة هارفارد (أقدم جامعة فى الولايات المتحدة) بحوالى مائة عام . وكان رجال الكنيسة يقومون بالتدريس ،ولكنهم كذلك اختلطوا بالهنود حتى يتعلموا اللهجات المحلية المختلفة ، فقد كانوا يعلمون أن عليهم أن يبشروا بديانتهم ويعلموا الأهالى بنفس لهجاتهم . وقد كتبوا وألفوا فى قواعد الأجرومية الهندية والإسبانية ، وفى أصول الدين المسيحى ، كما وضعوا المعاجم « القواميس » وعلموا الهنود المتأخرين القراءة والكتابة والمبادئ الأولية للدين المسيحى ، وقاموا بتدريبهم على الحرف المفيدة ، وعلى الأساليب الحديثة فى الزراعة .

وقد أظهر كثير من رجال الدين هؤلاء شجاعة وحمية نادرتين فى نشر الديانة المسيحية والتعليم بين الأهالى ، بل إن كثيرين منهم كانوا يضاهون الفاتحين فى شجاعتهم . وقد برز اثنان بالذات من بين هؤلاء كأمثلة للعبقرية الإسبانية فى القرن السادس عشر وهما : القديس اجناتيوس لويولا (Saint Ignatius Loyola) والقديس فرانسيس اكسفيار (Saint Francis Xavier) .

وكان اجناتيوس لويولا أحد نبلاء الباسك ، وسيماً شجاعاً ، مرحاً وخيالياً . وفى شبابه عندما كان لا يقاتل أو يزور أصدقاءه من صفوة القوم ، كان يمضى وقته فى قراءة قصص الفروسية الخيالية . وكان فى الثلاثين من عمره عندما حطمت ساقيه طلقة مدفع فى إحدى المعارك ، وكانت الإصابة جسيمة إلى درجة أنه كان يخشى أن يصبح كسيحاً طيلة حياته . كان اويولا معتداً بنفسه ، ولم يرق له أن يصبح مقعداً ، فدعا الأطباء لكسر ساقيه وإعادة جبرهما ، مؤملا بذلك أن تتحسن مشيته . وكان هذا يعنى عدة شهور من عدم الحركة ، ومزيداً من وقت الفراغ للقراءة . ولعل كثرة التفكير فى هذه الفترة كانت سبباً فى أنه أصبح أقل غروراً ونزقا ؛ فترك روايات الفروسية الخيالية وانهمك فى قراءة الكتب الدينية . . وكان قبل ذلك يحلم بالدفاع عن سيدة جميلة ، أو شن هجوم على قلعة فوق التلال . . ولكنه الآن — ولم يغادره خياله — قطع على نفسه عهداً بأن يكون من جنود السيدة العذراء ، وأن يبث تعاليم المذهب الكاثوليكى فى كل مكان ؛

وقد واتته الرؤى التى كان يرى فيها الخير والشر كفارسين يتصارعان من أجل روحه .

وحينما استطاع السير مرة أخرى — ولو أن العرج لازمه بقية حياته — لم يعد إلى أصدقائه ، بل أخذ يصوم ويدرس وتواتيه الرؤى. وفى إحدى ليالى عيد الميلاد بينما كان يصلى فى كنيسة صغيرة فى أحد الأديرة داخله شعور حقيقى بأن السيدة العذراء قد نصبت منه فارساً فى الصباح بعد أن أمضى الليل ساهراً كأحد أتباعها . ومن تلك اللحظة أصبحت رسالته واضحة ، وهى النضال من أجل العقيدة الكاثوليكية فأنشأ جماعة دينية كان أعضاؤها يقطعون على أنفسهم عهداً بالطاعة العمياء — أشبه بالنظام العسكرى — وأن يحاربوا بكل خلجات قلوبهم وعقولهم من أجل نصرة العقيدة الكاثوليكية . . وكان هذا النظام هو جمعية المسيح أو جماعة الجزويت (Jesuits) ، وقد انضم إلى هذه الجمعية رجال من كل إقليم فى أوروبا ، ومضوا للتبشير فى كل جزء من الأرض . وأخذت هذه الجمعية تزداد قوة ونفوذاً ، وبعد مدة أصبحت مكروهة وغير موثوق بها فى أماكن كثيرة . . ولكن بما أنها كانت عالمية أكثر منها إسبانية خالصة فى نظمها . . فلا يعنينا تتبع تاريخها . وكل ما يجدر بنا أن نتذكره هو أن الشجاعة وأحلام الغزو (غزو الأرواح فى هذه الحالة) التى خلقت جماعة الجزويت كانت من الصفات الإسبانية التى تميز بها العصر البطولى لتلك البلاد .

وأما القديس فرانسيس — ثانى الشخصيات الدينية البارزة فى القرن السادس عشر — فقد كان هو أيضاً من نبلاء الباسك ومن جماعة

الجزويت . . وقد اختير لنشر الديانة المسيحية فى الهند والشرق الأقصى . . وإننا لنسمع بما قام به فى جنوب الهند حيث عمّد عشرة آلاف وثنى ، وفى « جوا » على الشاطئ الغربى للهند كان يعالج المرضى وينشىء الإرساليات والمدارس ، ويعلم الأهالى ويقوم بتبشيرهم . . وفى خلال بضعة أعوام انتقل إلى جزر الهار فى جنوب المحيط الهادى ، ومنها إلى اليابان بعد ثلاثة أعوام كأول مبشر مسيحى هناك . وبعد ثلاثة أعوام أخرى رحل إلى الصين . . ولكنه توفى قبل أن يصل إليها . . وأعيد جثمانه ليدفن فى « جوا » بعيداً عن قلعة أجداده القديمة ومسقط رأسه فى شمال إسبانيا .

الفصل السادس

تألق حكم آل هابسبورج فى إسبانيا

بينما كان الإسبان يستكشفون ويستعمرون أمريكا كانت رقعة إسبانيا فى أوروبا تزداد اتساعاً . فقد أدت انتصارات الملك فرديناند الحربية إلى ضم مملكة نابولى فى جنوب إيطاليا و جزيرتى صقلية وسردينيا من جزر البحر المتوسط إلى أراضيه . وعقب وفاة الملكة إيزابلا حصل على نبرة (Navarre) آخر إقليم مستقل فى شبه الجزيرة باستثناء البرتغال طبعاً . وذلك بزواجه من وريثة هذه الملكة وهى سيدة تحمل الاسم الجميل : «جيرمين دى فوا » (Germaine de Foix) .

وعندما توفى فرديناندعام ١٥١٦ آلت مملكتا قشتالة وأرغون بكل ممتلكاتهما إلى وريث شاب فى السادسة عشرة من عمره هو شارل حفيد فرديناند وإيزابلا ، إذ كان ابنهما الوحيد قد توفى قبل ذلك بسنوات عديدة وهو فى التاسعة عشرة فقط من عمره . وكان فقده خسارة كبيرة لأنه كان ذكياً وطيباً ، ولأن شقيقته جوانا (Juana) — التى أصبحت وريثة للعرش بعد وفاته — كانت معتوهة . فعندما توفى زوجها الأرشدوق « فيليب » النمسوى الوسيم رفضت أن تقوم بدفنه وأصرت على الاحتفاظ بجثمانه بجوارها . ولما كانت لا تصلح للحكم فقد حجزها والدها فى أحد الأديرة ونصب ابنها شارل وريثاً لمملكتى قشتالة وأرغون .

وكان استقبال الإسبان لملكهم الجديد أبعد ما يكون عن الترحيب والمحبة ، فقد كان بالنسبة إليهم أجنبياً لأن والده الأرشدوق فيليب كان نمسوياً ، وهو نجل مكسيمليان إمبراطور النمسا من أسرة هابسبورج . ورغم أن شارل أضاف إلى سلطان الملوك الكاثوليك تلك المساحات الواسعة التي كانت لجده مكسيميليان (وتشمل النمسا والأراضي المنخفضة وأجزاء من ألمانيا) فإن ذلك لم يكن له أثر في رعاياه الإسبان . فلم يكن شارل من مواليد بلادهم ، وكان ذلك في نظرهم مما ينقص من قدره .

ثم إنه لم ينشأ في إسبانيا ، وأكثر من ذلك فإنه لم يكن — حتى بداية حكمه — يجيد الكلام بالإسبانية . وكان الإسبان يشكون فيما إذا كان الملك الجديد سيستطيع التغلب على كل هذه العيوب .

وكان شارل من جانبه لا يشعر باهتمام كبير نحو ممتلكاته الإسبانية ؛ ففي البداية لم يظهر أي استعداد للإقامة في تلك الدولة . بل بقي في النمسا وفلاندرز (وهو إقليم ينطبق بالتقريب على بلجيكا الحديثة وشمال شرقي فرنسا) واضعاً نصب عينيه انتخابه إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة خلفاً لمكسميليان . وكان أمراء أوروبا الدنيويون يختارون واحداً منهم ليحمل هذا اللقب ويتولى حكمهم كما ينتخب الكرادلة البابا ليكون رئيسهم الأعلى . وفي عام ١٥١٩ تم بالفعل انتخاب شارل إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة . ومع أن لقبه كان « شارل الأول » بالنسبة إلى إسبانيا ، إلا أنه كان

يعتبر الخامس بنفس الاسم بالنسبة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولذلك فقد غلب عليه لقب شارل الخامس حتى فى إسبانيا ذاتها .

وفى أثناء انشغال شارل بمناوراته فى الشمال للحصول على لقب الإمبراطور المقدس أرسل نبلاء نمسويين وفلمنك لحكم إسبانيا . وقد أثار هؤلاء الحكام الغرباء ثائرة الإسبان الذين استنكروا الضرائب التى فرضها الملك الجديد لتغطية نفقاته فى الخارج . كما أظهروا اشمئزازهم من الجنود الفلمنك الذين قدموا إلى إسبانيا واحتلوا المنازل الإسبانية . ويمكننا تصور مدى المعاملة السيئة التى سلكتها هذه القوات عندما نتذكر أنه فى عهد شارل تحولت كلمة فلامنكو (Flamenco) الإسبانية (وتعنى: من أهالى فلاندرز) إلى مرادف للسوقية والصفاقة ؛ وفى النهاية تحول هذا السخط من سوء معاملة الحكام إلى ثورة عارمة اجتاحت شمال إسبانيا ووسطها ، وبخاصة فى قشتالة . وقد سميت هذه الثورة الخطيرة باسم (Comuneros) أو ثورة سكان المدن ؛ لأن سكان المدن الكبيرة على وجه العموم هم الذين حملوا السلاح ضد حكومة ملكهم وقاسوا لهيب المعركة ؛ وهم الذين أعدم زعماؤهم عندما أخمدت الثورة فى النهاية . وقد قابل هؤلاء الزعماء الموت أبطالا وصاح واحد منهم — وهو چوان براڤو (Juan Bravo) — قبيل صعوده إلى المشنقة : « لسنا خونة ، وإنما نحن حماة الحرية فى الدولة ».

وكان صغر سن شارل وعدم خبرته هما السبب فى هذه الثورة المشئومة ، لأنه لم يدرك طبيعة المزاج الإسبانى ، وما يتصف به

من كبرياء واستقلال ، وتجاهل الرغبة الوطنية القوية فى الحكم المحلى .
إن كل فرد فى إسبانيا يفخر باستقلاله ، ولا يقتصر ذلك على النبلاء والأغنياء وحدهم ، بل يشمل كل فرد ؛ فالدوق ، والفلاح ، والأسقف ، والشحاذ ، يشتركون جميعاً فى شدة الاعتزاز بالنفس .
ويشعر كل شخص بأن كونه إسبانيا يخول له احترام الآخرين وتقديرهم وأن له الحق فى الحكم على أى شخص آخر كائناً من كان . هل تذكر جرأة « السيد » على مواجهة الملك وإهانة البابا ومحبة الإسبان له لجسارته ؟ لقد كان مسموحاً لأعيان الإسبان أن يرتدوا قبعاتهم فى حضرة الملك رمزاً لمساواتهم مع عاهلهم ؛ فكان أهالى قشتالة يرددون : « نحن متساوون مع الملك ، إلا أننا لسنا أغنياء مثله » . وقد كتب أهالى أرغون لملكهم : « كل فرد منا لا يقل شأناً عنك ، ونحن فى مجموعنا أفضل منك » .

وقد ذكر الملك فرديناند مرة عن جنوده أنهم بالرغم من بسالتهم فإن خروجهم الطبيعى على الطاعة يجعل من المتعذر على أى قائد أن يسيطر عليهم .

وعندما تقدم العمر بشارل بدأ يتعلم كيف يعامل رعاياه الإسبان بطريقة أفضل . وبمرور السنين ، يزول إعراض شارل عنهم . ونجده يفضل الإقامة فى إسبانيا عندما لا ينشغل بالحروب ، فيتجول فى ربوعها ، ويبنى القصور الجديدة ، ويعيد تشييد القديم منها ، ويرأس مبارزات الفرسان ، ويصارع الثيران ، ويجلس أمام الفنانين الذين يرسمون

لوحات له . وما زالت شخصيته الجذابة تظهر فى ا اهد الإسبانية : فيمكنك أن تشاهد أين كان يعيش ، والمبانى التى شيدها فى مدريد وطليطلة وبلد الوليد وغرناطة وأشبيلية ، وستسمع ما قاله وفعله ، وستحس بسيرته العظيمة وتألق إمبراطوريته .

وستذكرك أشياء كثيرة بأعماله الحربية فى الخارج ، لأن الحرب كانت مهنته المختارة التى كان يمارسها بإخلاص طوال حياته . فقد اشتبك مع فرنسا فى أربع حروب بسبب إيطاليا التى جاهدت الدولتان فى السيطرة عليها . وحارب القراصنة من مغاربة شمال أفريقيا الذين دأبوا على مهاجمة الشواطئ الإسبانية والاستيلاء على السفن الإسبانية . وأطلق سراح عشرين ألفاً من المسيحيين الذين كان المغاربة يحتفظون بهم عبيداً لهم . وفى بداية عهده تمرد جيشه الذى ينقصه النظام فى إيطاليا ، واستولى على روما ونهبها كما لو كانت مدينة معادية ، فى حين أنها لم تكن كذلك .

وفى أوائل عهد شارل اختلف المصلح البروتستانتى العظيم مارتن لوثر مع البابا ، وانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية ، وانضم إلى مذهبه الجديد حكام وشعوب عدد كبير من الولايات الألمانية . وبعد نحو ربع قرن من هذا الحدث توجه شارل لمحاربة هذا الحلف من الأمراء اللوثريين (أو البروتستانت) . وهكذا بدأت سلسلة الحروب الدينية التى حلت فى نفوس الإسبان محل صراعهم الطويل ضد العرب وكراهيتهم الطويلة لليهود .

وكان لهذه الحياة الحافلة بالجهاد أثرها فى شارل ، الذى دبت فيه الشيخوخة قبل أوانها . وعندما بلغ الخامسة والخمسين وأدرك أنه لم يبق له من الحياة إلا القليل تنازل عن العرش إلى نجله ووريثه فيليب الثانى ، واعتكف فى دير يوست (Yuste)، الذى يبعد مائة ميل عن مدريد . وهناك أمضى العامين الأخيرين من حياته فى أبهة ملكية محاطاً بحاشية ضخمة من رجال البلاط .

وكان فيليب الثانى يفتقر إلى جاذبية والده ونشاطه ، ومع هذا كان الشعب الإسبانى يحبه أكثر من والده ، وربما يرجع ذلك إلى أنه إسبانى المولد . ويقول الذين أعجبوا بهذا الرجل الصارم التقى الصريح إنه كان يتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره . . ويهدف دائماً إلى مجد إسبانيا وعظمتها وجلال الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية وفقاً لمفهومه عن الشرف والمجد والجلال . وإن زيارة واحدة لقصر الاسكوريال تعطيك لمحات عن شخصيته أكثر من أى كتاب . والاسكوريال هو ذلك البناء الفخم البارد الشبيه بالقلعة الذى بناه على سفح تل على بعد نحو ٣٠ ميلا شمال غربى مدريد ليكون قصراً وديراً وضريحاً ملكياً . ولربما كان يظن أن جلال إسبانيا يتطلب بناء فى مثل ضخامة الاسكوريال (الذى يطلق عليه أحياناً الأعجوبة الثامنة فى العالم) ففيه دهاليز ضيقة يزيد مجموع طولها على مائة ميل و ٨٦ سلماً ، وثلاث كنائس ، و١٥ بهواً مكشوفاً إلى السماء الصافية ، وآلاف من النوافذ التى تطـــل على مرتفعات قشتالة الشهباء ذات السطح المتموج .

وإذا كان فيليب يحب العظمة والأبهة الرسمية فإن ميوله الشخصية كانت بسيطة . ويعكس جناحه الخاص فى الاسكوريال مدى تقواه وصرامته . فالمكتبة التى مازالت تضم كتبه على رفوفها بسيطة كصومعة راهب ، وحجرة نومه صغيرة ومظلمة ، وبها محراب صغير فى أحد أركانها ونافذة تشرف على الكنيسة الرئيسية بطريقة يظهر منها المحراب الرئيسى كله . وحتى عندما كان يرقد على فراش المرض ، فإن فيليب كان يستطيع النظر من النافذة ومتابعة القداس الذى يعقد فى المحراب الرئيسى .

وقد ورث فيليب عن والده ممتلكاته الواسعة باستثناء بعض الأراضى الألمانية التابعة للتاج الإمبراطوري (إذ لم ينتخب فيليب إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة كما كان والده) . وفى عهده حارب البرتغال وهزمها وضمها إلى إسبانيا ، وهكذا حكم شبه الجزيرة كلها . وبقيت البرتغال جزءاً من الإمبراطورية الإسبانية مدة ٦٠ عاماً ، ولكنها استعادت استقلالها فى عهد فيليب الرابع .

ولم يقتصر ما ورثه فيليب عن أبيه شارل على الأراضى فقط ، بل إنه ورث عنه الحروب وكراهية شعوب أوروبا الأخرى له واشتباهها فى نواياه ؛ لأن تلك الشعوب كانت تحسد إسبانيا وتخشى قوتها العظيمة ، كما تخشى جشعها وتطلعها للاستيلاء على مزيد من الأراضى ، ولم تكن لدى فيليب ميول والده العسكرية ، ولذلك قلما كان يصحب جيوشه إلى ميدان القتال أو يقودهم فى المعركة ، بل كان الرجل الشاحب الضئيل يجلس إلى مكتبه ساعة بعد أخرى

يوقع الوثائق ويكتب بيده الأوامر المطولة ويدرس التقارير العسكرية وخطط الحرب التي لم يكن هناك ما هو أكثر منها في عصره : حروب مع البرتغال وضد الأتراك الذين كانوا يحكمون إمبراطورية عظيمة من القسطنطينية ، حروب ضد فرنسا وفلاندرز ، وحملات حربية ضد المغاربة في غرناطة الذين دفعهم الجور والطغيان إلى الثورة بل حرب ضد البابا نفسه . وكانت تلك الحروب تستهدف القضا على كل ما ليس بإسباني أو مخالف للكاثوليكية الإسبانية :

وقد وقعت موقعتان من أشهر المواقع الحربية في التاريخ في عهد فيليب الثاني وكلتاهما من المواقع البحرية ، وهما موقعة ليبانتو (Lepanto) وهزيمة الأرمادا الإسبانية .

وفي الأولى تحالفت إسبانيا مع البندقية والبابا ضد الأتراك وتلاقوا معهم في مضيق ليبانتو على الساحل الغربي لليونان . وقاد دون جوان النمسوى الجسور (وهو أخ غير شقيق لفيليب) الأسطول المتحالف إلى نصر ساحق . هل تتذكر قصيدة جلبرت تشسترتن عن معركة ليبانتو التي يتكرر فيها « دون جوان النمسوى ذاهب إلى الحرب » من منا يستطيع نسيان تصوير ذلك النصر :

« دون جوان النمسوى قد اقتحم خط المعركة
دون جوان يدب على مؤخر السفينة الذى اصطبغ بدماء المذبحة
لقد جعل لون المحيط أرجوانياً كسفينة قرصان ملطخة بالدماء
واللون القرمزى يغطي الفضة والذهب
محطماً نوافذ السفن ومفجراً عنابرها » .

أما حملة الأرمادا فقد كانت كارثة لإسبانيا . كان فيليب يرغب فى سحق قوة إنجلترا البحرية وبذلك يمنع المساعدات عن الثوار البروتستانت من رعايا هولندا (الأراضى المنخفضة) فأعد أعظم أسطول بحرى فى ذلك العصر وكان مكوناً من ١٣٢ سفينة و ٣٠,٠٠٠ رجل .

ويشاء سوء الحظ أن أمير البحر الذى نظم الحملة وكان سيقودها ، مات قبل الإبحار مباشرة .

وكان رجل البلاط الذى اختاره فيليب ليخلفه فى قيادة الأسطول لا يفقه شيئاً عن البحار أو الحروب البحرية ، وقد عبر عن عجزه لفيليب . ولكن فيليب كان جد واثق بالنصر ، حتى إنه أصر على تولى هذا النبيل القيادة بأية كيفية ، قائلا إن الله سيكون القائد الحقيقى لهذا الأسطول .

ولكن يبدو أن الله كان القائد الحقيقى للأسطول الإنجليزى لا الإسبانى . فمنذ البداية لازم النحس الإسبان . فبينما كان الأسطول يدور حول الطرف الشمالى الغربى لإسبانيا شتتت الأنواء السفن وعطلت بعضها وأغرقت بعضها الآخر . . وفى القناة « القنال » الإنجليزى أمام كل من بليموث وكاليه — أعملت السفن الإنجليزية السريعة بمدافعها ذات المدى الطويل يد الدمار فى السفن الإسبانية الثقيلة المتعددة الطبقات كما فتكت بالسفن الصغيرة . ولم يستطع الإسبان أن يلتحموا بالسفن الإنجليزية عن قرب حتى ينقض عليها

رجالهم ويشتبكوا مع الإنجليز فى قتال يدوى كما كانت خطتهم . بل إن السفن الإنجليزية « الثور » و « الدب » و « الكلب الأسود » و « الانتقام » طاردت السفن الإسبانية وأغرقتها أو اضطرتها إلى الاتجاه شمالا ، وكان من بينها سفن يفخر بها الأسطول الإسبانى مثل « سانتا ماريا » و « سان ماركوس » و « سان لويس » و« سان ماتيو » وغيرها مما لا يحصى من السفن .

وهلل الإنجليز : « لقد نفخ « يهوه »(Jehovah.) (الله بالعبرية.) وشتتهم » ، على حين كانت الأنواء والأحوال الجوية السيئة مستمرة فى ثورتها فى بحر الشمال ، حيث غاصت ١٩ سفينة إسبانية أخرى. وأخيراً ، وبعد أسابيع طويلة من الجوع والحمى ووابل من العواصف والمشاق ، عاد نصف سفن الأسطول الإسبانى يعرج إلى الموانى الإسبانية . . وتحكى قصة أحد أمراء بحر الأرمادا الذى استطاع أن ينجو ببضع سفن ويعود بها إلى ميناء سان سباستيان . أنه عندما رسا على البر لم ينظر إلى أحد ولم يتكلم مع أحد ، حتى زوجته وأولاده وذهب إلى منزله حيث أغلق حجرته عليه واستلقى ووجهه إلى الحائط ومات.

أما الملك فيليب فقد كان أكثر استسلاماً للقدر . فعند سماعه بالأخبار المهولة قال بهدوء : « لم أكن أتوقع أن على أسطولى أن يحارب الجو أيضاً ! » .

. . وبهزيمة الأرمادا فى ذلك الصيف العاصف من عام ١٥٨٨ هوى لقب إسبانيا كسيدة لأوروبا . فقبل وفاة فيليب بعد ذلك بعشر

سنوات كانت الإمبراطورية قد بدأت فى التفكك والانقسام ، وقد استمرت فى تفككها بالتدريج فى عهد خلفائه .

مات فيليب الثانى عام ١٥٩٨ والقرن السادس عشر يقارب نهايته . وتتابع طوال القرن السابع عشر ثلاثة ملوك آخرين من أسرة هابسبرج ، هم : فيليب الثالث ابن فيليب الثانى ، وفيليب الرابع حفيده ، وشارل الثانى ابن حفيده ، وكان معتوهاً يظن أن الشياطين قد استولت على روحه وجسده .

وقد وقع فيليب الثالث « مرسوماً » يقضى بطرد المغاربة القلائل الذين بقوا فى إسبانيا بعد سقوط غرناطة ، والذين أرغمهم الإسبان على اعتناق الدين المسيحى .

وكان هؤلاء المغاربة يقومون بكل الأعمال الشاقة التى يحتقرها غالبية الإسبان : كانوا يقومون بأعمال البنـــاء ، وصنع الأحذية ، والحياطة ، والنسيج ، إلى جانب أنهم كانوا من أمهر المزارعين : ورغم أنهم كانوا شعباً صبوراً فقد ثاروا ضد إرغامهم على الارتداد عن دينهم ، وهدم ثقافتهم القديمة ، وحرق كتبهم الثمينة ، وتخريب مبانيهم الجميلة . وكانت ثوراتهم متعددة وخطيرة حتى أمر فيليب الثالث عام ١٦٠٩ بطردهم من البلاد فى خلال ثلاثة أيام . فغادر البلاد على عجل ما بين نصف مليون و ٩٠٠ ألف رجل وامرأة وطفل وجهتهم شواطئ شمال أفريقيا أو بلاد أخرى فى البحر المتوسط . وأذنت السلطات لعدد قليل جداً منهم لا يجاوز ٦٪ من مجموعهم

الكلى بالبقاء ليقوموا بأعمال الرى والزراعة .. ولكن بعد قليل لم يبال كثير من المنفيين بالعقوبة وتسللوا إلى موطنهم القديم .

وقد لاقت إسبانيا الأمرين من جراء هؤلاء القوم ؛ إذ لم يكن هناك من بين الإسبانيين من يقوم بالأعمال اليومية المرهقة التى كان يقوم بها المغاربة . فقد كانت أحلام الذهب والمغامرات فيما وراء البحار تشغل أذهان الإسبان . وفضلا عن ذلك فإن ذوى القدرة والشجاعة منهم دفعتهم تلك الأحلام إلى الهجرة بالآلاف إلى العالم الجديد بحثاً عن الثروة ، فى حين كان آلاف آخرون يخدمون فى صفوف الجيوش الإسبانية فى فلاندرز وفرنسا وإيطاليا . وبدأت البقية الباقية منهم من الكسالى والذين لايؤبه لهم فى النزوح إلى المدن الكبرى .

وأخذت الأحوال الاقتصادية تزداد سوءاً فى إسبانيا خلال القرن السابع عشر . فكنت ترى معالم الفقر فى كل مكان . وكانت الطبقة المتوسطة فى مسيس الحاجة إلى ضرورات الحياة ، وكان الفقراء يموتون من الجوع . وكان الجوع من الأمور المفضلة عند كتاب هذا العصر . . ولقد كتب إسبانى هذا الوصف للأحوال السائدة فى ذلك الوقت يقول : « تجول فى الحقول التى كانت يوماً مزدهرة ، ستجدها مغطاة بالأشواك والحشائش الطفيلية ، فلم يعد هناك من يزرعها ؛ إذ أن الغالبية العظمى من الإسبان لا يفعلون اليوم شيئاً : بعضهم تحت ستار ادعاء النبل ، وآخرون لأنهم يفضلون الاستجداء ، فشوارع مدريد تقدم مشهداً فريداً . إنها مكتظة بالعاطلين والمتشردين

الذين يمضون يومهم فى لعب الورق ، ينتظرون على أبواب الأديرة فى انتظار موعد الغداء، أو ينطلقون إلى الريف لنهب المنازل . والأسوأ من ذلك أن الأمر لا يقتصر على هذا النوع من حياة الخمول والبطالة بل إن الميادين تموج بالأفاقين والمتشردين الذين أفسدت رذائلهم وآثامهم المدينة كلها وعمرت المستشفيات » .

وكانت تلك البلادة التى عمت الشعب الإسبانى إحدى نتائج حالة الركود فى البلاد وأحد الأسباب فى تلك الحالة فى الوقت ذاته . كما كانت القيود العقيمة التى فرضت على التجارة والصناعة من العوامل الأخرى التى تسببت فى أزمة إسبانيا الاقتصادية ؛ فقد عرقلت هذه القيود السخيفة صناعة السلع التى اشتهرت بها الدولة فى أوروبا وتسببت فى فقدان الأسواق الخارجية . فقد كان صانع الأحذية — على سبيل المثال — يعاقب إذا لم يقم بصنع أحذيته وفق النمط الذى يفرض عليه أن يتبعه حرفياً ، وحظر تصدير الحرائر الفاخرة والأقمشة الصوفية إلى أمريكا .. ولم يسمح إلا بتصدير الخشن منها . ولم تحقق التجارة مع المستعمرات الإسبانية الدخل الذى كان متوقعاً منها .

ومن أسباب ذلك احتكار أفراد قلائل لهذه التجارة التى كان يتناولها ميناء أشبيلية فى البداية ، ثم قادس بعد ذلك . وقد حظر على المستعمرات التجارة مع أية دولة باستثناء إسبانيا . ورغم ذلك فان الإسبان لم تزود تلك المستعمرات بالملابس والأدوات الزراعية أو الآلات ، وقام الإنجليز والهولنديون والفرنسيون بتهريب مثل هذه السلع على نطاق واسع إلى المستوطنين الذين كانوا فى حاجة

إليها وعلى استعداد لدفع ثمن ما يشترون . وقد ازدادت هذه الدول ثراء بأسرها للسفن الإسبانية المحملة بكنوز أمريكا من الذهب والفضة.

وبالرغم من ازدياد وطأة الضرائب يوماً بعد يوم فلم يكن لدى الملوك – ابتداء من شارل الخامس – المال الكافى لسد نفقات حروبهم ، أو حياة البلاط الفاخرة .

وفى كثير من الأحيان كان فيليب الثالث يهمل دفع أجور خدمه. وقد نصب فيليب الرابع صناديق فى الكنائس متوسلا إلى رعاياه أن يلقوا بتبرعاتهم فيها كى يسد نفقاته الشخصية .

وترك شارل الثانى المعتوه خيول اسطبلاته الملكية تموت جوعاً لعجزه عن إطعامها .

ورغم ذلك فعندما رحلت ابنة الملك فيليب الرابع لتتزوج من الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا احتاجت إلى ٧٠ حصاناً لتحمل ما أخذته معها من فضة وعطور ، وحزمت أثوابها فى عشرين حقيبة كبيرة مغطاة بالساتان وموشاة بالفضة ، أما قفازاتها فحملتها فى حقيبتين من الساتان موشاتين بالذهب .

الفصل السابع

العصر الذهبي

عندما نصف القرنين السادس عشر والسابع عشر بأنهما كانا العصر الذهبي فى إسبانيا فإننا لا نفكر فى قوة إسبانيا وكنوزها المادية ، بل فيما تفتحت عنه العبقرية الإسبانية من ثروة فى الآداب والفنون ؛ ففى خلال هذا العصر أخرج الأدباء والرسامون الإسبان أعمالا أبهجت العالم منذ ذلك الوقت .

ومن بين هذه الكنوز نوع جديد من الأدب عن قصص التشرد (Picaresque) ، وقد سميت بهذا الاسم ، لأن بطلها كان متشرداً أو محتالا (Picaro) . حول الأدباء الإسبان الفقر والحياة الحقيرة التى لمسوها بالقرب منهم إلى قصة مغامرة . . ولكنها ليست قصة مغامرة من نوع روايات الفروسية ، ففى روايات الفروسية يلتقى الفارس بالتنينات ، أو يستغرق فى نوم سحرى فى قلعة أو غابة كثيفة .. ويفوز بدوقية وسيدة جميلة . أما فى قصص التشرد فإن بطلها يعاشر القتلة والنشالين وينام فى المجارى والزرائب القذرة ، وعندما يجوع يسرق رغيفاً من الخبز أو بعضاً من النقود ، ولا يقابل إلا الخادمات أو زوجات أصحاب الحانات السليطات أو الشمطاوات السكيرات ؛

وفى روايات الفروسية يفوز البطل عن طريق شجاعته الفريدة ، أما المتشرد فيعيش بحيلته وسرعة خاطره وتسبح روايات الفروسية فى جو من الخيال ، أما قصص التشرد فتأخـــذنا إلى صميم الحياة الواقعية وتعرض لقطات صادقة عن المتشردين والمجرمين بصلابتهم وآثامهم وتواكلهم ، وقد عجت بهم شوارع المدينة ، وجعلوا الطرق الريفية خطرة على المسافرين . إنها قصص تروى حياة الجريمة والفقر والآلام التى يمكن أن نلمسها فى سجلات ذلك الوقت ، ولكن على نحو يدعو إلى التسلية .

وأول قصة تشرد من نوعها — ومن أشهرها قاطبة — قصة : « لازاريللو دى تورمس » (Lazarillo de Tormes) ؛ التى نشرت عام ١٥٥٤ وجاءت على لسان بطلها لازاريللو . وهى تعرض لنا مغامراته المختلفة . فعندما يموت أبوه الوغد فى قتاله ضد العرب فى شمال أفريقيا ، تجد أمه أن من المتعذر عليها إطعام طفلها فتؤجره إلى شحاذ أعمى . ويعرف هذا الهرم أكثر من مائة صيغة للاستجداء والدعوات التى تتلى فى المناسبات والأغراض الخاصة ، ويحصل على كثير من الطعام والنقد ، ولكنه شديد البخل إلى حد أن لازاريللو يكاد يتضور جوعاً إذا لم يسرق الخبز من حقيبة زاد الرجل الأعمى ، والنبيذ من إبريقه ، وبعض قطع النقود من وقت لآخر . وعندما يضبطه يحطم الإبريق على وجهه ، ثم يمسح الجروح التى سببها الإبريق بخرقة مبللة بالنبيذ المراق . ويضمر له لازاريللو الحقد على ما فعله به وعلى ما لاقاه منه من أنواع القسوة والعنت .. وينتقم لنفسه بأن يقود الرجل الأعمى خلال أشد الطرق وعورة .

« إذا كانت هناك أحجار فليخترقها ، وإذا كان هناك وحل فليغص فى أعمق جزء منه ! » .

وعندما يترك لازاريللو الشحاذ يعمل فى خدمة أحد القسس . ولكنه يقول إنه قد هرب من الرعد ليلقى بنفسه إلى البرق ، لأن القسيس أيضاً بخيل . ويتضور لازاريللو مرة أخرى جوعاً من طعامه المكون من البصل ، وقطرات من المرق ، والعظام المجردة من اللحم ، إلى أن يسرق مفتاح الصندوق الذى يخبىء فيه سيده الخبز . وعندما يفتقد سيده الطعام يقول لازاريللو إن الفيران والثعابين هى التى تسطو على الصندوق ! ولكن القسيس يضبطه فى النهاية متلبساً بالسرقة ويطرده من منزله .

ثم يخدم لازاريللو آخرين ، ومن بينهم أحد السادة المتأنقين المفلسين الجائعين الذى كان شديد الكبرياء حتى ليأنف من العمل . وهناك راهب أيضاً من بين من عمل فى خدمتهم ، وشرطى . ومع هؤلاء جميعاً كان لازاريللو يعيش بسرعة خاطره وسعة حيلته . . ورغم ذلك فلم ينعم بالمعيشة الطيبة .

وقد سطرت قصص التشرد أسلوباً أدبياً جديداً فى أوروبا . . وانتقلت إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا . . وحتى فى الأدب الأمريكى يجرى مداد التشرد فى عروق شخصيتى « توم سوير » (Tom Sawyer) و « هكلبرى فن » (Huckleberry Finn) اللتين خلقهما الكاتب مارك توين .

ولم تصور حياة المشردين والمجتمع المنحط الذى يعيشون فيه بالروعة التى تصورها القصص القصيرة « لميجويل دى سرفانتس » (Miguel de Cervantes) أحد أدباء العصر الذهبى الذى نتذكره بتحفته الخالدة « دون كيخوته » ومع ذلك يقول النقاد إن قصصه القصيرة كانت كافية لأن يحظى بالشهرة حتى ولو لم يكتب « دون كيخوته » على الإطلاق . وتدور واحدة منها واسمها « رينكونيتى وكورتاديللو » (Rinconete & Cortadillo) حول صبيين أحدهما نشال والآخر نصاب (فى أوراق اللعب) ، وقد التحقا بنقابة للمتشردين فى أشبيلية والتقيا بكثير غيرهما من الأوغاد . وهذه القصة واقعية بشكل مدهش . وتجعلك تشعر بالبغض ، وتشم وتشاهد القذارة ، وتسمع الضحكات واللعنات التى تدوى على « أرصفة » السفن على طول نهر الوادى الكبير . وتقودك مباشرة إلى الحجرة الصغيرة العارية المجردة حيث يعقد المتشردون اجتماعهم .

وقد كتب سرفانتس من واقع خبرته الحقيقية بحياة الطبقة الدنيا فى أشبيلية . إذ لابد أنه كان قد قابل مثل هذه الشخصيات التى وصفها عندما كان فى السجن فى أشبيلية وبلد الوليد (Valladolid) ؛ ففى أشبيلية سجن بتهمة سوء التصرف فى أموال حكومية ، ولكنه لم يتهم قط باستعمال هذه الأموال المفقودة لنفسه ؛ إذ كل ما فى الأمر أنه لم يكن لديه استعداد للأعمال التجارية .

وفى بلد الوليد ألقى به فى السجن عقب موت رجل لم يكن قط

يعرفه ، وكان هذا الرجل قد استدرج حيث قتل أمام المنزل الحقير الذى تقيم فيه أسرة سرفانتس .

وقد تمرغ سرفانتس فى مختلف نواحى الحياة القاسية ، ولولا أنه لم يكن عديم المبادئ لعاش بطلا فى قصة تشرد حقيقية .

كان سرفانتس فى حداثته مغامراً . فقد ذهب إلى نابولى قبل أن يبلغ العشرين فى حاشية كاردينال شاب ، وانضم إلى فرقة عسكرية جندت لمحاربة القراصنة الأتراك ، واشترك فى معركة ليبانتو . وعندما اشتبكت الأساطيل المسيحية والتركية فى تلك المعركة كان سرفانتس مريضاً بالحمى ، ولكنه أصر على الاشتراك فى القتال خوفاً من أقوال الناس إذا لم يؤد واجبه . ففضل أن يموت مقاتلا فى سبيل الله والملك على أن يبقى تحت سطح السفينة .

وقد جرح ثلاث مرات فى القتال . وحطمت إحدى القذائف يده اليسرى . وعندما شفى من جراحه اشترك فى أعمال حربية أخرى. ثم أبحر عائداً إلى إسبانيا مؤملا فى الالتحاق بوظيفة حكومية مكافأة له على بسالته . وعندما لاح الشاطئ الإسبانى هاجم القراصنة الجزائريون السفينة وقتلوا قائدها وكثيراً من البحارة والمسافرين ، وأخذوا الناجين ومن بينهم سرفانتس إلى الجزائر حيث بيعوا رقيقاً . وقد بقى فى الأسر خمس سنوات ونصف سنة ، وظل أغلب الوقت مقيداً بالأغلال لمحاولته الفرار أربع مرات . وأخيراً افتداه أحد الرهبان الذى وهب نفسه لجمع الأموال لتحرير المسيحيين من الأسر قبل أن يوشك

مالكه على السفر إلى استانبول . وكان سرفانتس يرقد وقتئذ مقيداً بالأغلال فى عنبر السفينة التى كانت ستقوم بتلك الرحلة .

ومن الصعب تتبع حياة سرفانتس بعد ذلك ، لأنه عاش طوال الأعوام الأربعين التالية فى فقر وانزواء .

وقد كتب بعض مسرحيات لم تنجح . وألف قصة عن الرعاة والراعيات وفق الأسلوب الأدبى السائد فى ذلك العصر ، ولكنها كانت سخيفة . ولم يستطع أن يقيم أوده عن طريق الشعر ، بالرغم من فوزه بين حين وآخر بجائزة للشعر . وتزوج ورزق بابنة . وكانت شقيقاته — وهن فقيرات أيضاً — يقمن معه فى منزله . وعمل مع الحكومة لتزويد الجيش بالمؤن خلال إعداد حملة الأرمادا . . وتقدم للالتحاق بأربع وظائف مختلفة عبر البحار دون أن يفوز بإحداها . . وأحياناً يفتقد كل أثر له لمدة أعوام عديدة إلى أن يظهر اسمه فى وثيقة ما من الوثائق القضائية .

وفى الثامنة والخمسين من عمره نشر سرفانتس الجزء الأول من « دون كيخوته » ، وفى الثامنة والستين ، قبل وفاته بعام واحد ، انتهى من الجزء الثانى من هذه القصة التى عدها أكثر من ناقد أعظم قصة ظهرت فى العالم . وقد كانت هذه القصة بلاشك أكثر القصص شهرة ورواجاً على مر الأجيال .. فقد صدرت منها طبعات وترجمت إلى لغات أجنبية أكثر من أى عمل آخر ، باستثناء الإنجيل . وصدرت مئات الكتب التى تحللها وتشرحها ، وانهمك الفلاسفة والنقـــاد

والشعراء فى محاولة تحديد المعنى الحقيقى لكل سطر والعثور على عظة من كل مغامرة جنونية لبطلها ؛ ذلك الفارس الهرم الذى ينتمى إلى قرية بإقليم لا مانتشا (La Mancha) .

ولنفترض أننا نفكر فى « دون كيخوته » كقصة فروسية وقعت حوادثها فى العالم الحقيقى .

يبرز دون كيخوته نفسه من الصفحة الأولى للكتاب ، وتعرفه لأول وهلة : ذلك النبيل ذو الحصان الأعجف وكلب الصيد الذى يعيش فى منزل الأسرة مع ابنة أخيه ومديرة للمنزل ، وكان فقيراً إلى درجة أنه ينفق ثلاثة أرباع دخله فى الطعام والباقى على الملابس . ولما كان لديه متسع من وقت الفراغ فإنه يتحول إلى روايات الفروسية يلتهمها ، ويصبح مغرماً بالمطالعة حتى إنه لينسى الذهاب للصيد أو يلتفت إلى شئون مزرعته الضئيلة . . ومن إدمانه للقراءة مع قلة نومه تصيبه لوثة ، ويشعر بأنه يجب عليه أن يخرج ليكون فارساً جوالا مثل أبطال الروايات . ولما كان جنونه مطبقاً فإنه كان متأكداً من قدرته على إصلاح الفساد الذى استشرى فى العالم .

ينظف سرفانتس درع جده التى كان قد علاها الصدأ فى الطابق العلوى . وعندما لا يجد خوذة هناك إلا خوذة جندى على هيئة قبعة نسائية ذات حافات ضيقة ، فإنه يصنع مقدمة للخوذة من الكرتون ويلصقها بها ، ثم يقوم بتجربة خوذته ، ولكن سيفه ينفذ من الكرتون فيتحتم عليه أن يقوم بعمل مقدمة أخرى للخوذة ، ويحرص على عدم

تجربة الخوذة الثانية خشية تلفها قبل أن تبدأ مغامراته . ويطلق على حصانه العجوز اسم روزينانتى (Rosinante) ، وهو اسم ذو رنين جميل ، رغم أن معناه « حصان العمل البائس » .

ولما كان كل فارس يهيم بإحدى السيدات ويقوم بأعمال الشجاعة فى سبيلها ، فقد كان لزاماً على بطلنا أن تكون له واحدة ، لأنه كان يعتقد أن الفارس الجوال الذى لا يقع فى الحب كالشجرة بلا أوراق أو ثمر ، أو كالجسد بلا روح ، وقد كان يعجب سرا بفتاة جميلة ريفية خشنة من جيرانه ولم تكن هى تكاد تدرك وجوده . . واختارها لتكون سيدته وكان اسمها ألدونازا لورنزو (Aldonaza Lorenzo) — وهو اسم تنقصه الرومانسية الواجب توافرها فى اسم محبوبة الفارس .. ولذلك يطلق عليها اسم : « دولسنيا دل توبوسو » (Dulcinea d l Toboso) ويقسم بإخلاصه الأبدى لها .

دعنا نتبعه فى إحدى مغامراته العجيبة :

يعتقد دون كيخوته أن صاحب إحدى الحانات الحقيرة قد عمده فارساً ، متوهماً أن ذلك الرجل هو سيد إحدى القلاع ، ويدرك أن كل فارس لابد له من تابع ، ولذلك يعود إلى قريته ويقنع جاراً ريفياً بديناً اسمه سانتشو بانزا (Sancho Panza) بترك زوجته وأولاده والركوب معه . وبالرغم من أن سانتشو كان يتمتع بالإدراك السليم ، فإنه يجتذب بالتفكير فى مغامرات الفروسية . . على طول الطرق ، وفى الجبال ، ويحلم بالأسلاب الثمينة التى سيجمعها من انتصارات سيده . . ولا يداخله الشك فى سيده لفترة طويلة على الرغم من تحققه

من طواحين الهواء التى كان دون كيخوته يراها كمردة شريرة . . فيندفع ليهاجم إحداها . . فتلقى به نصالها الدائرة وهو يئن ويتألم . ويدرك سانتشو أيضاً أن هذا قطيع من الأغنام ، فى حين يؤكد سيده أنه جيش مقبل عليهم ، فيشير سانتشو إلى أن قطيعين من الأغنام يقتربان من البقعة التى كانا يقفان فيها ، ويسأل سيده بوداعة : « ما الذى سنفعله يا سنيور ؟ » فيصيح دون كيخوته : « ماذا نفعل؟ يجب علينا مساعدة المحتاجين والضعفاء . واعلم يا سانتشو أن الجيش الذى يقترب أمامنا يقوده الإمبراطور العظيم «أليفا نفارون » (Alifan-faron) سيد جزيرة « ترابوبانا » الهائلة (Trapobana) ، أما الجيش الآخر الذى خلفنا فهو جيش عدوه بنتابولين (Pentapolin) ملك الجرامانتاس (Garamant-s) صاحب الذراع المرفوعة الذى يذهب دائماً إلى القتال وذراعه اليمنى عارية ». ويسأل سانتشو : « ولماذا يكره هؤلاء السادة كلا منهما الآخر ؟ » ويجيب دون كيخوته : « إنهم يكرهون بعضهم بعضاً لأن أليفانفارون ، ذلك الكافر المخرف ، يهيم بحب ابنة بنتابولين الجميلة الساحرة ، وهى مسيحية ، ولا يريد والدها تزويجها لملك كافر إلا إذا تخلى عن دينه واعتنق ديانتنا » . فيصيح سانتشو غير مصدق عينيه : « قسماً بلحيتى إن بنتابولين على صواب . . ويجب على أن أساعده بكل ما فى استطاعتى » .

ويسير الفارس وتابعه إلى منحدر على أحد التلال حيث يشاهدون سحب الأتربة المتصاعدة ويستمر دون كيخوته فى ترديد أسماء الفرسان والنبلاء المشهورين الذين يركبون من خلال الضباب ويصف دروعهم

وأعلامهم وأسلحتهم المميزة . . ويعترف سانتشو المسكين الذى استبدت به الحيرة بأنه لايستطيع رؤية أحد منهم ويقول : « لابد أننا تحت تأثير سحر ! » .

غير أنه عندما يهاجم دون كيخوته قطيع الأغنام يبقى سانتشو ملازماً مكانه على المنحدر ، وبعد أن يقتل دون كيخوته عدداً كبيراً من الأغنام ويكاد هو يقتل بما يرجمه به الرعاة من الأحجار . . يهرول سانتشو إلى مكان الفارس الجريح ويقول له زاجراً : « ألم أخبرك أنك كنت مندفعاً لتهاجم قطيعاً من الأغنام ؟ » .

وإنه لمن المؤسف أننا لا نستطيع متابعة البطلين عبر الطرق المتربة وخلال أدغال الغابات ، وفى الخانات الإسبانية القذرة . إننا نرى الواقع أمامنا كما يراه سانتشو بانزا . . ومع ذلك نكاد نقتنع مثله بأن ما يصوره خيال دون كيخوته المجنون أقرب إلى الحقيقة من ذلك الواقع .

وقد حظى سرفانتس بشهرة عالمية ،لأن دون كيخوته شخصية تمثلنا جميعاً . أما لوبى دى فيجا (Lope de Vega) فإنه ذو عبقرية خارقة كسرفانتس ، إلا أنه إسبانى قح مما جعل اسمه أكثر شهرة من أعماله .. وقد قيل عنه إنه لو كان قد اقتصر على كتابة نصف ما كتب لتضاعفت شهرته ؛ لأن الناقد الأدبى يتردد فى تكوين رأى عن أديب تنتظم أعماله التى وصلت إلينا ٤٧٥ مسرحية طويلة ثبتت صحتها ، و ٥٣ مسرحية أخرى يعتقد أنها له ، إلى جانب ٥٠ دراما

دينية من فصل واحد ، وآلاف الصفحات من القصص المنثورة ، والتاريخ ، والشعر الروائى الطويل .

وقد كان لوبى بلا شك أكثر الأدباء الذين عرفهم العالم إنتاجاً ؛ فنى حياته الطويلة قدم ١٨٠٠ مسرحية مطولة من كل الألوان ، منها الكوميدية والتراجيدية وكذلك كوميديا العباءة والسيف (comedia de capa y espada) — وهى سلسلة طويلة من المؤامرات الحافلة باختلاط الشخصيات والتنكر والمفاجآت ، وكان غالباً ماينتهى من المسرحية فى يومين ويكتبها بخط يده دون معاونة سكرتير أو مساعد . وعندما أبحر مع الأرمادا كتب فى وقت فراغه على ظهر السفينة شعراً روائياً طويلا من ١١ فصلا . . وقد استمد موضوعاته من مصادر كثيرة ، منها قصص الإنجيل ، وحياة القديسين ، والأساطير الإسبانية وروايات الفروسية والحروب فى إيطاليا وهولندا والجزائر ، والصراع ضد العرب فى غرناطة . ويكاد تصويره للحياة اليومية يشبه السينما سكوب والسينما الملونة لشدة وضوحها ومطابقتها للحقيقة . . وكان شعره المنظوم — يفقد رونقه بالترجمة — ناعماً وصافياً وساحراً . أما آراؤه فقد كانت منعشة فياضة مشبعة بروح الخيال والوطنية والمزاح والتهكم . وأحياناً نرى فيها عين العقل كهذه السطور من كوميديته (العباءة والسيف) :

الرجال والطيور على حد سواء يلقنون دروساً فى الكلام . ولكن أحداً لم يقم بتعليم الصمت بعد ، وإنه لخطأ كبير أن تشيد المدارس

التى تعلمنا الكلام ولا تكون لدينا مدرسة واحدة تستطيع أن تعلمنا الصمت .

وبالرغم من أنه لم تمثل مسرحية من مسرحيات لوبى باللغة الإنجليزية فقد ترجم بعضها إلى تلك اللغة وإلى الفرنسية والألمانية والبولندية ، وكثيراً ماتقدم هذه المسرحيات على المسارح الأوروبية ، كما أن المسارح الإسبانية—منذ عام ١٩٣٩ —كثيرا ما تقدم مسرحيات لوبى بالإضافة إلى أعمال أخرى للأدباء الذين عاصروه .

وهناك عدد آخر من كتاب الدراما فى العصر الذهبى ومن بينهم بدور كالديرون دى لاباركا (Pedro Calderon de la Barca) الذى عرف خارج إسبانيا أكثر من لوبى . وقد ترجم كثير من الشعراء الإنجليز صفحات من أشعاره المشرقة . . وإنك لتسمع كثيراً عن تحفته « الساحر العجيب » (Majico Prodigioso) وكذلك عن « الحياة حلم » (La Vida es sueno) .

وفى الدراما الأولى يبيع أحد العلماء روحه للشيطان ، ولكن الفتاة المسيحية التى يحبها تقوم بإنقاذه فيصبح مسيحياً ثم يستشهد معها .

وتروى دراما « الحياة حلم » قصة أمير سجن منذ طفولته فى برج منفرد بأمر والده الملك ؛ لأن المنجمين تنبأوا بأنه سيكون شريراً ومفسداً . وعندما يأمر الملك بإحضار الأمير التعس إلى البلاط — لفحص صدق أو بطلان هذه المزاعم — ينقل الأمير الشاب وهو نائم بعد تخديره . وعند استيقاظه يخبرونه بأن حياته السابقة ما هى إلا أضغاث أحلام . وعندما يتصرف بطريقة مليئة بالوحشية والخيلاء

يخدر مرة أخرى ويعاد إلى سجنه بالبرج ، حيث يصر حارسه على أن الحلم لم يكن سوى تجاربه فى البلاط . . وفى النهاية عندما يعود إلى بلاط والده نراه رجلا أكثر حكمة ودماثة خلق .

ولم يترك كالديرون نتاجاً أدبياً كبيراً إذا ما قورن بلوبى . فقد ألف نحو ١٢٠ مسرحية فقط وعدداً كبيراً من الـ (autos) أو الدراما الدينية ذات الفصل الواحد ، كما أنه كان أول من كتب الـ «سارسويلا» (zarzuelas) وهى مسرحيات كوميدية قصيرة تحفل بالغناء والرقص المبنيين عادة على الموسيقى الشعبية القديمة .

وقد أصبحت هذه المسرحيات شعبية فى إسبانيا منذ عهد كالديرون . . أما الآن فقد بدأت فى التغير ؛ إذ قلت فيها الموسيقى الشعبية وزادت الإيقاعات الحديثة .

وهناك كاتب مسرحى ثالث ينتمى إلى هذا العصر وهو « تيرسو دى مولينو » (Tirso de Molino) . وقد ألف ٣٠٠ أو ٤٠٠ مسرحية . وإننا لنتذكره من أجل مسرحية واحدة بوجه خاص هى (El Burlador de Sevilea) أو (The Gay Deceiver of Seville) « مخادع أشبيلية المرح » التى قدمت للعالم شخصية « دون جوان » العاشق العظيم الشجاع الذى لا يقيم وزناً للمبادئ ، والذى لا قلب له . وقد « اقتبس » الملحنون والأدباء الفرنسيون والإيطاليون والإنجليز والنمسويون شخصية « دون جوان » الذى استمر سحره بالنسبة إلى الإسبان أيضاً منذ عهد تيرسو .

ومنذ أكثر من مائة عام بقليل جعله خوزيه زوريلا (Jose Zorrilla) الأديب الإسبانى بطلا لمسرحيته (Don Juan Tenorio) وفيها ينقذ دون جوان من الجحيم التى قادته إليها خطاياه بحب دونا أينيس (Dona Ines) الفتاة الطاهرة . وقد حظيت هذه المسرحية بشعبية كبيرة بين الناطقين بالإسبانية ، حتى إنها تقدم كل عام منذ أكثر من قرن على مسارح إسبانيا وأمريكا اللاتينية فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر قرابة الاحتفال بـ «يوم إنقاذ الأرواح» (All Soul's Day) الذى يتلو فيه الكاثوليك صلوات خاصة طالبين المغفرة لموتاهم .

لم يكن العصر الذهبى غنياً بأدبائه فقط . . فقد ظهر فيه عدد كبير من الرسامين الذين حظى بعضهم بشهرة عالمية . ولكن من أعظمهم ثلاثة شاعت لوحاتهم فى غالبية الدول ، وهم : الجريكو (El Greco) ، و بيلاثكث (Velasquez) ، وموريللو (Murillo) .

(واسم الجريكو الحقيقى هو « دومنيكوس تيوتو كوبولوس (Domenicos Theotocopoulos) ولكنهم يسمونه « اليونانى » من باب الاختصار ؛ لأنه ولد فى جزيرة « كريت » اليونانية . وقد وفد الجريكو إلى إسبانيا بعد أن تلقى دراسته فى إيطاليا على يد أعظم الفنانين عام ١٥٧٥ ، وأقام فى طليطلة حيث أمضى الأعوام الأربعين الباقية من حياته . وإذا رأيت إحدى لوحاته فإنك لن تخطئ قط فى تمييز لوحاته الأخرى ؛ لأنها كلها على النمط الذى تمتاز به عبقريته الغريبة : الوجـــوه المسنونة ، والأجسام الطويلة الملتوية لصور الأشخاص ، ثم الألوان القاتمة الغريبة والشعور بالتشاؤم الذى يخيم

على المناظر الطبيعية كما لو كانت عاصفة مرعدة على وشك الهبوب . وهناك لوحات عديدة لألجريكو فى الولايات المتحدة ومن أشهرها لوحته عن طليطلة التى يحتفظ بها متحف المتروبوليتان من مدينة نيويورك . فإن الفنان لم يصور طليطلة كالمدينة ذات الألوان البنية الدافئة والأسقف الفخارية كما هى عليه حقيقة . ولكنه حولها إلى مكان ذى ألوان خضراء غير طبيعية ومبان بيضاء مشوبة بالاخضرار وتنساب استحكاماتها خلال المروج الهزيلة الخضراء تحت سماء مبرقشة باللون الأسود المخضر والأزرق المخضر . . إلى النهر الذى تنساب مياهه اللزجة المخضرة . إنك لن تنسى لوحته عن طليطلة إذا رأيتها مرة واحدة .

ويحوى متحف برادو (Prado) فى مدريد ثروة من الأعمال الفنية من مختلف البلاد والعصور . ومع ذلك فلا شك فى أنك ستبهر فى زيارتك الأولى لهذا المتحف بأعمال فنان واحد هو بيلاثكث . . الذى يضم المتحف معظم نتاجه أو مايقرب من ٥٠ لوحة . وقد خلد بيلاثكث بلاط الملك فيليب الرابع كما لم يخلد فنان بلاط أى ملك آخر . فهناك سبع لوحات لفيليب نفسه وعديد من اللوحات الجميلة لدون بالتازار كارلوس (Don Baltasar Carlos) ابن فيليب الأكبر الوسيم الذى مات وهو فى السادسة عشرة ، ولوحات عديدة أخرى لابنته مارجاريتا تيريزا (Margarita Teresa) ولوحات أخرى لأفراد الأسرة المالكة ورجال البلاط . كما توجد لوحات جذابة رائعة لأقزام البلاط .

ولم يوجد فنان يضارع بيلاثكث فى الرسم ، أو فى استخدام الألوان ، أو فى سحر الأضواء والظلال . كما لم يوجد له نظير فى دقة ملاحظته ، أو فى نقل ما تراه عيناه إلى لوحاته بيد لا تخطئ .

وتحفته (Las Meninas) أو « وصيفات الشرف » معلقة بمفردها فى إحدى الغرف ، وتعكس مرآة ضخمة معلقة على الجدار فى مواجهة اللوحة لمشهد كما رآه الفنان تماماً من مرآة عند رسمه له . وقد ظهر هو بنفسه فى الصورة أيضاً إلى اليسار يواجهك فى أثناء وقوفك وأنت تتطلع إليه .

ويبدو السحر فى تيه هذه المرايا الحقيقية المرسومة . . وتشعر أنك مثل أليس تنتقل خلال المرآة التى تتطلع إليها إلى عالم آخر هو بلاط فيليب الرابع ، وتظهر أمامك الأميرة الشقراء الصغيرة مارجاريتا تيريزا نابضة بالحياة ، حتى إنك لتشك أنها مرت بجانبك منذ لحظة فى ثوبها الأبيض الحريرى . وتشاهد وصيفاتها الرشيقات ويتملكك العجب من منظر القزمين القبيحين ، وتشعر بميل إلى كلبها الكبير الذى يرقد أمامها ، وينساب ضوء من النافذة إلى يمينك على وجوه الأميرة وتابعيها ، ثم يتدفق الضوء من خلال باب مفتوح فى النهاية البعيدة للاستوديو الفسيح ، فى حين تنشر الظلال تراباً فضياً فى الأجزاء الأخرى من الحجرة .

وتنعكس صورة الملك فيليب وزوجته الملكة ماريانا (Mariana) انعكاساً خافتاً على مرآة على الجدار الخلفى للحجرة التى علقت فيها

الصورة ، فيبدوان وكأنهما وقفا إلى جـوارك تماماً لكى يظهرا فى المرآة ، بل إنك لتكاد تتوقع أن ترى خيال صورتك منعكساً مع صورتهما .

وقد ولد كل من بيلاثكث وموريللو وترعرعا فى أشبيلية ، ولكن بيلاثكث يكبر موريللو بـ ١٨ سنة ، وارتفع شأنه حتى أصبح رساماً للبلاط فى الوقت الذى توجه فيه مواطنه الصغير إلى مدريد فقيراً لا يعرفه أحد . وقد أظهر بيلاثكث مودته لموريللو بطرق شتى ، ولكنه لم يؤثر فى أسلوبه . فبينما جعل بيلاثكث الناس فى هذا العالم يعيشون فى نفس عالمهم ، نجد أن العذراء والملائكة والقديسين فى لوحات موريللو تبدو كبشر أيضاً ، ولكنه يضفى عليهم طلاوة ومرحاً حتى إنهم ليبدون من غير عالمنا الأرضى . وربما رأيت لوحته الساحرة عن العذراء وهى صاعدة فى طريقها إلى السماء فى صحبة عدد من صغار الملائكة المعجبين بها .

ويضم متحف برادو نحو ٤٠ لوحة من لوحات موريللو ، ولكن أشبيلية هى مدينته ومسقط رأسه وهو فنانها المفضل . ومن ثم فإنك لتجد كثيراً من لوحاته هناك فى الكاتدرائية وفى غيرها من الكنائس والمبانى .

وتزور منزله الذى يقع فى ميدان صغير فى الحى القديم . . وعندما تجد لوحة لموريللو لا يعالج فيها موضوعاً دينياً فإنها ، توحى لك بأشبيلية : بأطفالها ذوى الملابس المهلهلة وهم يأكلون البطيخ والعنب

أو الخبز ، الذين ربما يكون نظر موريللو قد وقع عليهم فى أحد الأحياء التى تزدحم بالغوغاء بالقرب من النهر .

وعندما تسير – حتى اليوم – خلال بعض الشوارع الضيقة فى أشبيلية فى وقت متأخر بعد الظهر ، وقد تلونت الظلال بالألوان البنية والرمادية الذهبية التى كان موريللو يميل إلى استخدامها ، فإنك تكاد تتوقع وأنت تتطلع إلى إحدى النوافذ أن تشاهد إحدى الفتيات ذوات الوجه المرح الضحوك التى صورها لنا موريللو بكل ما تحتويه من نضارة وجمال .

الفصل الثامن

الوصمة : محاكم التفتيش

لقد سمعنا جميعاً بمحاكم التفتيش ، تلك المحاكم التابعة للكنيسة الكاثوليكية التى أنشأها فرديناند وايزابلا فى إسبانيا ، بعد أن أذن لهما البابا بذلك على مضض ، لمحاكمة وإدانة أى شخص لا تتفق معتقداته وسلوكه مع التعاليم الصارمة لمذهب الدولة . ولقد كان هناك ما يسمى بمحاكم التفتيش فى أوروبا منذ القرن الثالث عشر ، ولكن محكمة التفتيش الإسبانية كانت أكثر نشاطاً وأشد فى أحكامها من سابقيها ؛ فقد كانت تمثل مخططاً قومياً لإسبانيا . إذ كانت الملكة ايزابلا تنظر إليها على أنها وسيلة للإبقاء على إخلاص الكاثوليكيين للكنيسة ، وكان فرديناند يراها سلاحاً سياسياً قوياً ؛ ففى تلك الأيام كان الحاكم يسيطر على الكنيسة ، وكان من الممكن أن يعتبر عدو الحكومة عدواً للكنيسة ، فيقدم إلى محكمة التفتيش لمعاقبته .

وربما كان فرديناند وايزابلا وكبار رجال الكنيسة المقربين إليهم يعتبرون محكمة التفتيش وسيلة مناسبة لإنقاذ الأرواح والإبقاء على إسبانيا قوية وموحدة ، ولكن البلاد فى مجموعها لم تشاركهم فى تحمسهم لهذا الرأى . فعندما أمر فرديناند رعاياه فى أرغون وبلنسية وقطالونيا باستقبال رجال محكمة التفتيش ومساعدتهم فى إقامة المحكمة رفضوا

ذلك سواء أكانوا من رجال الدين أم من غيرهم من الرجال العاديين. واحتجت قطالونيا بوجه خاص ، وتشاحنت مع فرديناند ثلاثة أعوام كاملة قبل أن تسمح له بتأسيس محكمة التفتيش فى مدينة برشلونة.

ولايمكن الدفاع عن محاكم التفتيش التى سطرت أسود الصفحات فى تاريخ إسبانيا . . ولكننا نفسرها — إلى حد ما — بأنها كانت أطول وأعنف حالة وباء تميز بها ذلك العصر . ولم تنفرد إسبانيا والكنيسة الكاثوليكية بالقسوة والتعصب ؛ إذ انتقلت عدوى الظلم والتعسف إلى سائر المذاهب والبلاد فى أوروبا ؛ ففى ألمانيا اشترك أتباع لوثر مع الكاثوليك فى اضطهاد بعض طوائف البروتستانت مثل المورافيين والدنكارديين الذين هرب كثير منهم إلى الولايات المتحدة طلباً للحرية . وفى سويسرا أحرق جون كالفن (John Calvin) الزعيم البروتستانتى الشهير — الطبيب الإسبانى ميجويل سرفيتو (Miguel Serveto)أو سرفيت (Servet) بدعوى الهرطقة ، وهو الذى ينسب إليه بعضهم اكتشاف الدورة الدموية . وفى فرنسا وإنجلترا مات الكاثوليكيون والبروتستانت على حد سواء فى سبيل معتقداتهم .

وقد اختارت محاكم التفتيش صليباً أخضر رمزاً لها . . وكانت إسبانيا كلها ترتعد خوفاً من منظره . وقد تعرض أناس من كل طبقات المجتمع لمواجهة هذه الهيئة الرهيبة . ومنهم رجال الكنيسة الذين لم يوافقوا على كل تفاصيل المذهب ، واليهود الذين اعتنقوا المسيحية ولكن إخلاصهم للعقيدة كان موضع شك ، والرجال والنساء

المهووسون الذين يزعمون نزول الوحى عليهم خلال الرؤى ، أو يدعون النبوة ، والبحارة البريطانيون والهولنديون الذين أسرت سفنهم فى أثناء إغارتها فى أعالى البحار أوسطوها على شواطئ أمريكا . ومن آن لآخر كانت تحاكم الكتاب والرسامين على الرغم من أنه لم يعرف أنه قد حكم على كاتب أو فنان واحد بالإعدام . ولم يكن للمحاكم سلطة على أهالى أراضى الهند الغربية ، كما أنها لم تحفل بالغجر الذين يهيمون فى شبه الجزيرة بالرغم من استهزائهم بالدين ومعيشتهم بطريقة شائنة علنا .

وقد كان من عادة مختلف أنواع المحاكم فى أوروبا خلال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر استعمال التعذيب لاستخلاص الاعترافات من الأشخاص المتهمين فى الجرائم . وحذت محاكم التفتيش حذوها لكن دون أن تكون أشد قسوة من المحاكم الأخرى . غير أن مثل هذه الإجراءات تعتبر منافية للمسيحية ومخجلة فى محكمة دينية . وكانت سلطات محاكم التفتيش لاحد لها ، فكان فى إمكانها الأمر بالقبض على أى شخص وزجه فى السجن شهوراً ، أو ربما سنوات ، قبل أن تستدعيه للمحاكمة ، وهى لاتجد نفسها ملزمة بإبلاغه بما هو متهم به أو بمن اتهمه حتى يحاكم . ومع ذلك فقد كان مسموحاً له بكتابة قائمة بخصومه ، وكانت الشهادة التى يدلى بها أى واحد من هؤلاء لا تستخدم ضده . وكانت المحاكمة تعقد سرية فى النهاية ، وإذا رفض سجين الاعتراف بالجريمة المنسوبة إليه فكثيراً ما كان التعذيب يرغمه على تغيير شهادته . وكان المفروض

أن يعيد اعترافه عندما ينتهى التعذيب ، فإذا لم يفعل ذلك فقد يعاد تعذيبه مرة ثانية وثالثة ورابعة .

ومن المحتمل أن يطلق سراح المتهم عندما تنتهى المحاكمة ، وربما كان كل ما يدان به هو القيام بالحج إلى أحد الأضرحة تكفيراً عن خطاياه ، أو قد يلزم بارتداء قميص أصفر رسم عليه صليب أحمر للدلالة على أنه قد أخطأ ثم ثاب إلى رشده ، وفى بعض الأحيان كان يحكم عليه بالسجن لمدة ٦ أشهر ، أو سنة ، أو ١٠ سنوات ، أو بقية حياته . أما إذا حكم عليه بالإعدام فإنه يحال إلى السلطات المدنية التى تقوم بتنفيذ الحكم .

وقد كانت الإجراءات الرسمية المتعلقة بالحكم على السجين ومعاقبته تسمى « حكم الدين » ، وكان يحتفل بها احتفالا كبيراً ، وتجذب كثيراً من المتفرجين الذين كانوا يعتبرونها من أحسن ما يمكن مشاهدته من أنواع الدراما المثيرة . وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان الناس يندفعون بالآلاف إلى الميدان الرئيسى للبلدة أو المدينة ليروا رجال محاكم التفتيش عند وصولهم فى موكب مهيب ، ثم لمشاهدة المتهم وقد اقتيد إلى وسط الميدان ، ثم لسماع النطق بالحكم ، وهذا هو أول فصول الدراما . أما الفصل الثانى ، أو تنفيذ الحكم على المحكوم عليه ، فيتم فى اليوم التالى — مرة أخرى أمام حشد كبير من المتفرجين المهتمين . وكثيراً ما كان الملك فيليب يحضر مثل هذه المشاهد ، التى منها المحاكمة التى عقدت فى بلد الوليد حيث أحرق

ثمانية عشر شخصاً بدعوى الهرطقة . وفى مرة أخرى فى أحد أيام يونيو الجميلة اصطحب أطفاله إلى مدينة طليطلة لحضور الحكم بمائة جلدة والسجن لمدة سنة على رجل ادعى أنه تحضره رؤي وأنه يستطيع معرفة الغيب .

لقد كان العذاب والبؤس والموت أشياء تشد نفوس الإسبان إليها دائماً ، كما نلاحظ ذلك بوضوح تام فى فنونهم وآدابهم وتاريخهم . كما أن عبقرية الإسبان فى تحمل المشاق وشجاعتهم التى لا تكاد تقهر تظهر فى عدم مبالاتهم بالألم وتجردهم من الشفقة على الذين يتألمون أو يعذبون .

وقد أصبح اسم أول رئيس لمحاكم التفتيش (رئيس القضاة) رمزاً للتعصب والقسوة . فقد تسبب هذا الرجل « توماس دى توركيمادا» (Tomas de Torquemada) فى إحراق ستة آلاف كتاب مريب ، أو مؤيد للإلحاد ، فى يوم واحد فى أشبيلية . وخلال الثمانية عشر عاماً التى كان فيها رئيساً للقضاة حوكم أمامه أكثر من مائة ألف متهم . وقد ثار الجدل بين المؤرخين حول عدد الذين حكم عليهم بالإعدام . فيقول بعضهم إنهم لا يزيدون على تسعين شخصاً ، ويدعى آخرون أنهم أربعة آلاف ، ويرتفع بعضهم بعدد الضحايا إلى تسعة آلاف . ولعل مرجع هذا اللبس أن كثيراً من الذين كانوا على وشك القبض عليهم لمحاكمتهم أمام محاكم التفتيش تلقوا إنذاراً فى الوقت المناسب فهربوا من إسبانيا . وبالرغم من غيابهم فقد

حوكموا ، وإذا صدر الحكم بإعدامهم فقد كان يتم إحراقهم على هيئة دمى .

وبالرغم من أن محاكم التفتيش لم تنته رسمياً فى إسبانيا إلا فى عام ١٨٣٤ ، فإنها كانت قد تضاءلت قبل ذلك بمدة طويلة حتى أصبحت ظلا لكيانها المخيف السابق . والواقع أنها فقدت سلطانها بنهاية القرن السابع عشر ، ولم يعد أحد يسمع عنها إلا فى القليل النادر بعد ذلك ! .

الفصل التاسع :

الطلاء الفرنسي - البوربون

عندما توفى شارل الثانى آخر ملوك أسرة هابسبورج فى إسبانيا عام ١٧٠٠ ارتقت أسرة مالكة جديدة — البوربون — عرش البلاد . وأول ملوك هذه الأسرة هو فيليب الخامس الذى كان جده من أسرة البوربون هو ملك فرنسا لويس الرابع عشر .

ولم يكن لشارل الثانى المسكين الضعيف العقل ولى للعهد من صلبه ، ولذلك أوصى بتاج إسبانيا الذى ترجع أحقيته له إلى جدته الإسبانية . ولعلك تذكر جهاز العرش البديع الصنع الذى أخذته معها تلك السيدة الصغيرة عندما نزحت إلى فرنسا لتتزوج .

ومع ذلك فقد كان هناك مطالب آخر بالعرش هو الأرشدوق شارل النمسوى من أسرة هابسبورج الذى كان وثيق الصلة بهذه الأسرة التى ظلت تحكم إسبانيا نحو مائتى سنة .

وعندما أصبح فيليب الخامس ملكاً على إسبانيا وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وجد نفسه فى حرب مع الأرشدوق شارل وحلفائه — إنجلترا والنمسا وهولندا ومقاطعة قطالونية الإسبانية . وبالطبع كانت فرنسا فى صف فيليب ، وكان الصراع باهظ النفقات وفى نهايته احتفظ فيليب بالتاج ، ولكن إسبانيا فقدت أقاليم هامة

فى أوروبا . وكان أكثرها مبعثاً للإذلال استيلاء إنجلترا على جبل طارق — تلك البقعة الثمينة من الأراضي الإسبانية . وما زالت إنجلترا تحتفظ به منذ ذلك الحين ، جارحة كبرياء إسبانيا فى الصميم .

أما قطالونية فقد عقدت صلحاً مع الملك فيليب ، ولكنه ألغى حقوقها القديمة فى الحكم الذاتى وأعلن حظر استعمال اللغة القطالونية فى الحياة العامة .

وكان فيليب الخامس ملكاً أفضل من سابقيه من أمثال فيليب الرابع وشارل الثانى من أسرة هابسبورج . لأنه أجرى بعض التنظيم فى الحالة المالية المضطربة التى كانت موجودة . كما أنه قام بتحسين أحوال البلاد ببناء الجسور والطرق الجيدة التى لم يكن القديم منها سوى دروب غير ممهدة . كما أنه عمل على نظافة مدريد التى كانت حتى ذلك الوقت مكاناً موحلا قذراً ، وشيد عدداً كبيراً من المبانى الفخمة ، ومن بينها القصر الملكى فى مدريد وقلعة « لا جرانخا » (La Granja) التى تقع على بعد أميال قليلة من مدينة شقوبية (Segovia) .

وقد سببت أفواج المتشردين الذين لايخضعون للقانون ممن كانت تعج بهم المدينة انزعاجاً كبيراً للملك ، مما حدا به إلى إصدار أوامره بإلحاق كل الرجال الصالحين للخدمة العسكرية بالجيش ، وإرسال المرضى والعجزة منهم إلى المستشفيات والملاجئ .

وإذا قارنا قلعة « لا جرانخا » بمبنى الأسكوريال الكئيب الذى شيده فيليب الثانى ، فإننا ندرك التغيير الكبير الذى طرأ على حكام

إسبانيا بقدوم فيليب الخامس . فقد شيدت هــذه القلعة التي تقع على بعد ٧٠ ميلا شمال غربي مدريد على الطراز الفرنسي . وهي تشبه قصر فرساي الواقع بالقرب من باريس . ويعتقد بعض الناس أنها أكثر جمالا وروعة من قصر فرساي ، لأن حدائق قصر فرساي تقع في منطقة منبسطة ، في حين أن أراضي لا جرانخا الخضراء ذات السياجات المقلمة والمشايات المورقة والطرقات التي تحفها التماثيل والنافورات الجميلة تشــاهد من خلال سحرها البديع قمم جبال « جوادا راما » (Guadarrama) المقفرة التي تغطيها الثلوج حتى في أوائل الصيف .

وقصر « الأسكوريال » رغم فخامته موحش أشبه ما يكون بالقبور ، أما قصر لا جرانخا فله طابع دنيوي بهيج منعش . وكل قصر منهمــا يرمز إلى الملك الذي شــيده . فلم يشــارك فيليب الخامس فيليب الثاني في معتقداته عن الموت والأبدية ، أو في تهوسه الديني المتقد . فقد كان فيليب الخامس أقل تعصباً من أسلافه فسحب بعض السلطات التي كانت لمحاكم التفتيش وأعاد الحياة إلى المدارس والجامعات التي كانت كلها تختنق تحت وطأة الرقابة الصارمة ، وسمح للإسبان مرة أخرى بالسفر إلى الخارج للدراسة ، كما بجلب الكتب الفرنسية وغيرها من الكتب الأجنبية الأخرى إلى البلاد ، واختلط الإسبان المستنيرون بصفوة العقول المفكرة الأجنبية والعلماء في البلاط الملكي . ومع ذلك فإن هذا الجديد من الأفكار المتحررة

لم يؤثر فى غالبية الشعب الذين ظلوا راسخين فى إعمال عاداتهم وخرافاتهم القديمة .

ونستطيع أن نصف القرن الثامن عشر فى إسبانيا بطبقة من الطلاء الفرنسى البديع تغطى المزاج الإسبانى الحديدى . وقد ازدانت هذه الحقبة بالكتاب والرسامين والمهندسين المعماريين الموهوبين ، ومع ذلك فإن عبقرية إسبانية صميمة قد انبثقت خلال ذلك الطلاء الصناعى من الأساليب الفنية الفرنسية بجذوة مرهفة الإحساس . فقرب نهاية هذا العصر عبر الفنان فرانسسكو جويا بدقة عن مشاعر الإسبان القوية نحو الحياة ، وهى مليئة بما يبكى وما يضحك .

وعلى الرغم من أن فيليب وولديه اللذين حكما من بعده قاموا بإصلاح الأحوال الاقتصادية فى إسبانيا فقد تسببت سياستهم الخارجية فى اضطراب جديد . . لأنهم أشركوا بلادهم فى حروب خارجية استمرت معظم القرن الثامن عشر : حروب مع إنجلترا والنمسا وهولندا والبرتغال . وقبل نهاية ذلك القرن كانت إسبانيا قد فقدت كل إمبراطوريتها الأوروبية ما عدا جزر البليار وجزر كنارى .

أما القرن التاسع عشر الذى حل وعلى عرش إسبانيا شارل الرابع — حفيد فيليب — فقد جلب على البلاد من الدمار والمهانة ما لم تشهده فى القرن السابق .

وقد بدأ فجر هذا القرن تحت ظل أطماع نابليون بونابرت فى السيطرة على العالم بأسره . وبدلا من وقف نابليون شمال جبال

البرانس ، أخذ شارل وابنه فرديناند يحوكان الدسائس ويدبران المؤامرات معه ، إلا أن نابليون فاقهما فى الدهاء . وانتهى الأمر بأن قبض على ناصية الأمور فى إسبانيا . وتعد المسألة كلها مزيجاً من الطمع والغباء والخبث .

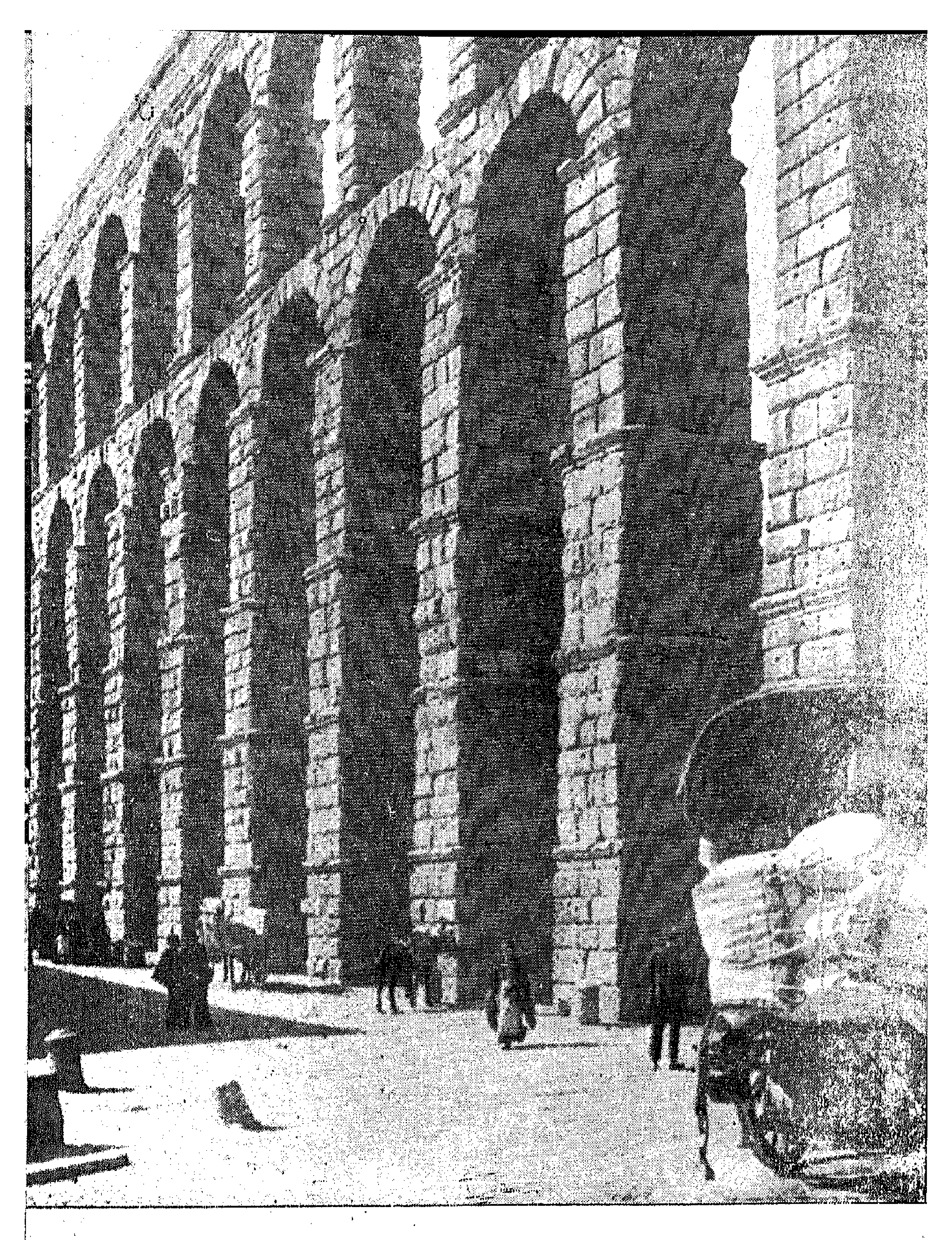
وإذا نظرت إلى هذا الموضوع كقصة مشوقة فإن لوحات جويا عن الشخصيات الرئيسية فى المكيدة كلها — باستثناء نابليون ذاته — قد عبرت عنها بصورة مدهشة . انظر إلى صور شارل الرابع العديدة التى رسمها جويا والمعلقة فى متحف برادو بمدريد ، تجده يبدو على شىء كبير من الابتذال والغباء ، فضلا عن الغرور الذى ينعكس مما يحيط به جسمه من النياشين المرصعة بالجواهر . وانظر إلى زوجته الملكة ماريا لويزا (Maria Luisa) تجد عينيها الضيقتين تحملقان من خلال شعر كث . وقد قال نابليون إن شخصيتها غير المعقولة تبدو بجلاء على وجهها . وحتى ابنها الصغير فرديناند يبدو على وجهه الخسة والخبث . وقد أطلق الإسبان على فرديناند فى بداية الأمر لفظ « المبتغى » (The Desired) ، ولكن هذا اللقب تحول إلى نوع من السخرية ، إذ لا يوجد شعب يمكن أن يبتغى حاكماً فى مثل حقارته . وأخيراً هناك الصورة التى رسمها جويا لجودوى (Godoy) الأثير لدى الملكة ، ذى الوسامة المبتذلة . ولكنه لم يكن ذا قدرة كافية تجعله ينجح كرئيس للوزراء . قارن هؤلاء برسوم بيلاثكث (Velasquez) لفيليب الرابع وأسرته التى يبدو فيها الملك والملكة ماريانا وأطفالهما

على قدر كبير من الوقار والأناقة ، فى حين تبدو تلك الأسرة المالكة التى جاءت بعدهم سوقية ورخيصة .

وبقدر ما كانوا سوقيين ورخيصين كانوا أغبياء ، لا يفكر أحد منهم إلا فى نفسه ، ويشترك كل منهم فى تدبير المؤامرات من ناحية والعمل على إحباط المؤامرات التى تدبر ضدهم من ناحية أخرى . وأخيراً وقع الملك والملكة فى شباك نابليون ليقضيا بقية حياتهما فى المنفى ، وكذلك جودوى ، على حين أمضى فرديناند خمس سنوات فى سجن بإحدى القلاع الفرنسية خلال الفترة التى كان يحاول فيها جوزيف شقيق نابليون أن يستقر على عرش إسبانيا المتأرجح . وقد نعت الإسبان جوزيف بنعوت سيئة ربما كان أخفها وصفهم له « جوزيف الزجاجة » لكثرة ما كان يشرب من النبيذ .

وفى الوقت الذى أغوى فيه نابليون شارل وفرديناند وجودوى بعبور الحدود إلى فرنسا ، كان هناك سبعون ألف جندى فرنسى قد دخلوا إسبانيا فعلا .

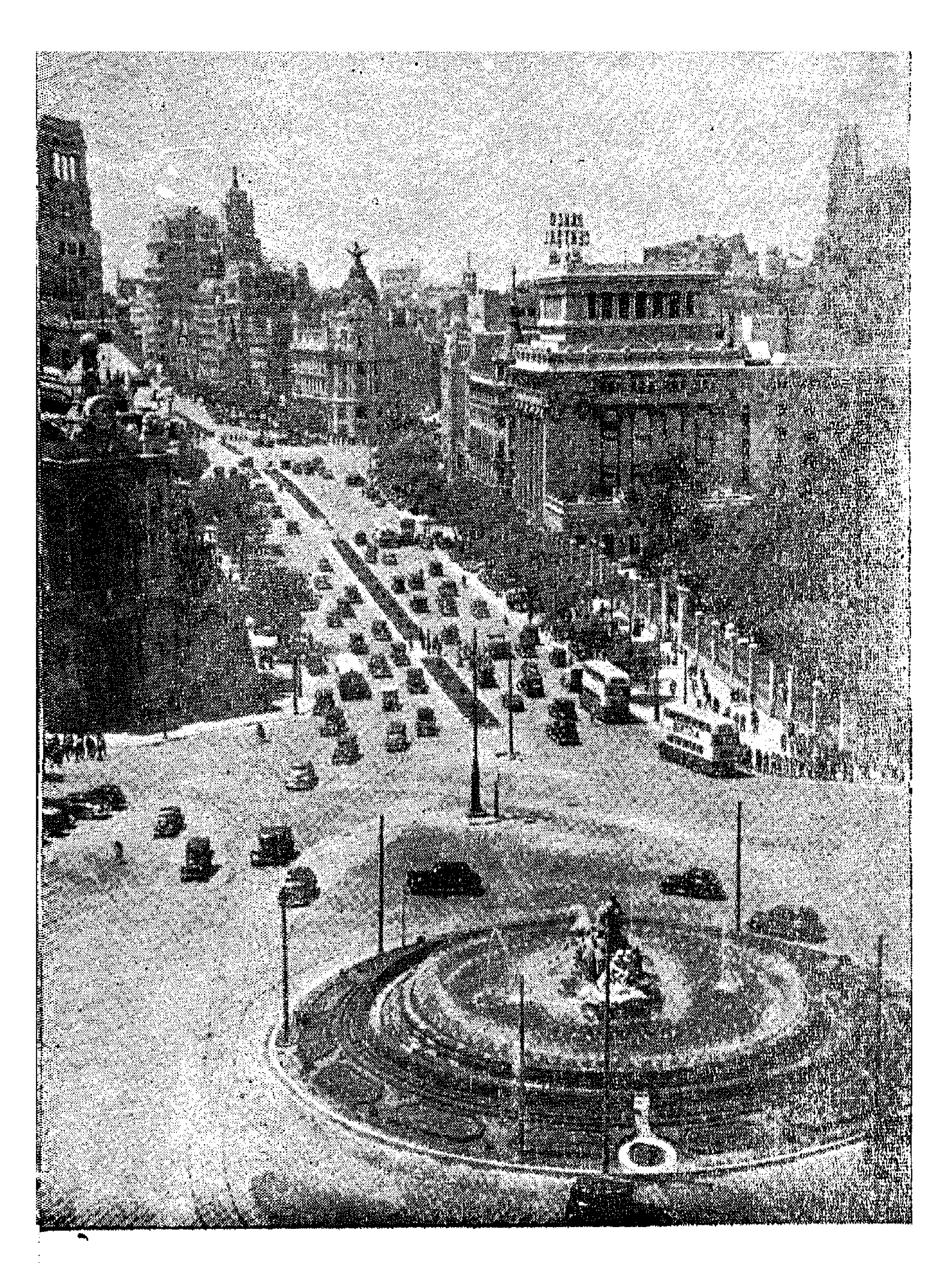
وفى الثانى من مايو عام ١٨٠٨ تردد بين أهل مدريد أن نابليون أصدر أمراً بإرسال من تبقى من أفراد الأسرة المالكة فى مدريد إلى فرنسا ، وتجمع الأهالى حول مركبة الدون فرانسسكو — وهو أمير فى الثالثة عشرة من عمره — عندما علموا أنه لا يرغب فى مغادرة مدريد ، وأنه يبكى بكاء مراً من التفكير فى أنه سينفى ، واستطاع الأهالى فك أعنة جياد المركبة وأطلقوا سراح الجياد . وإزاء هذا قامت



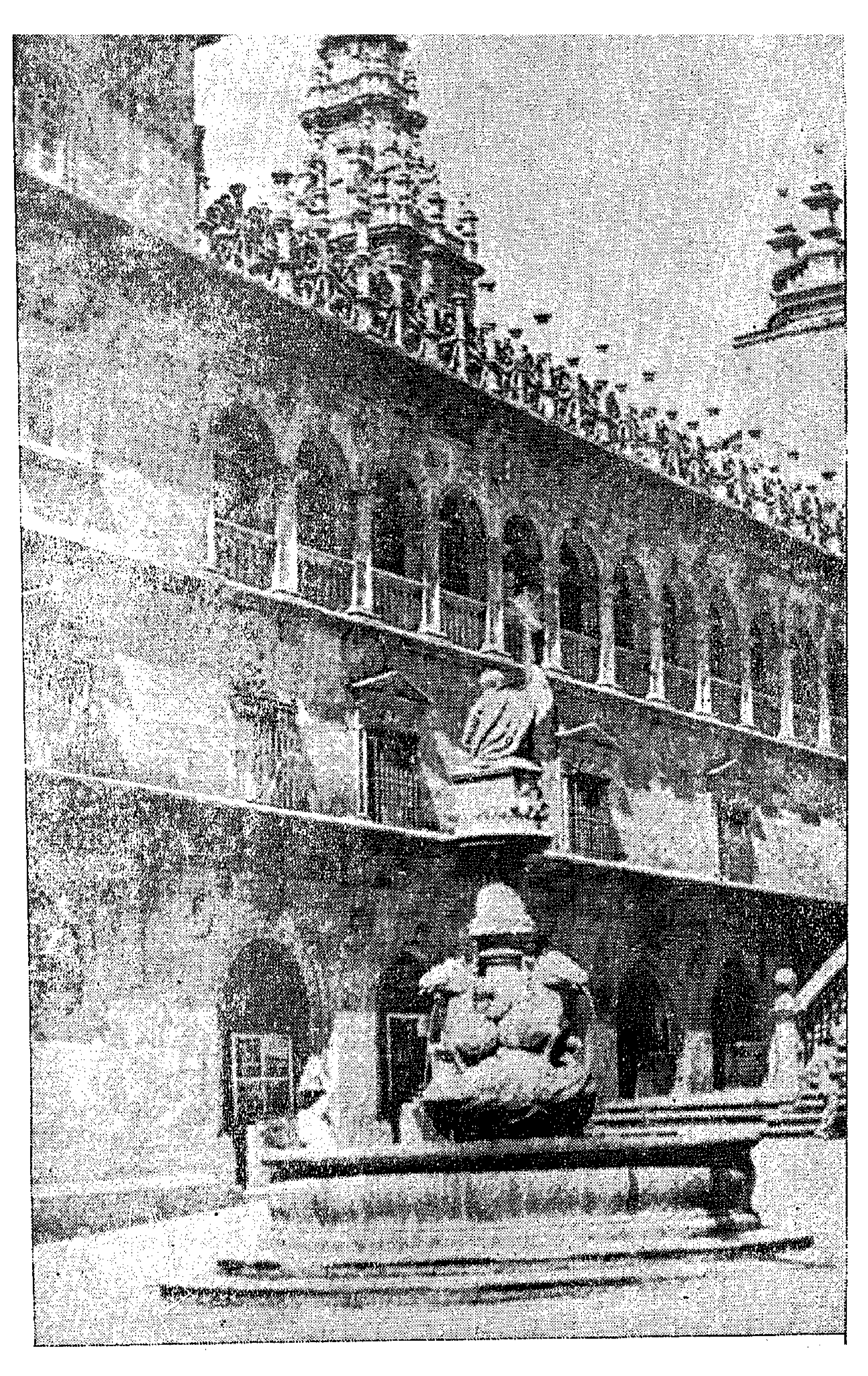
القناطر الرومانية لنقل المياه فى شقوبية



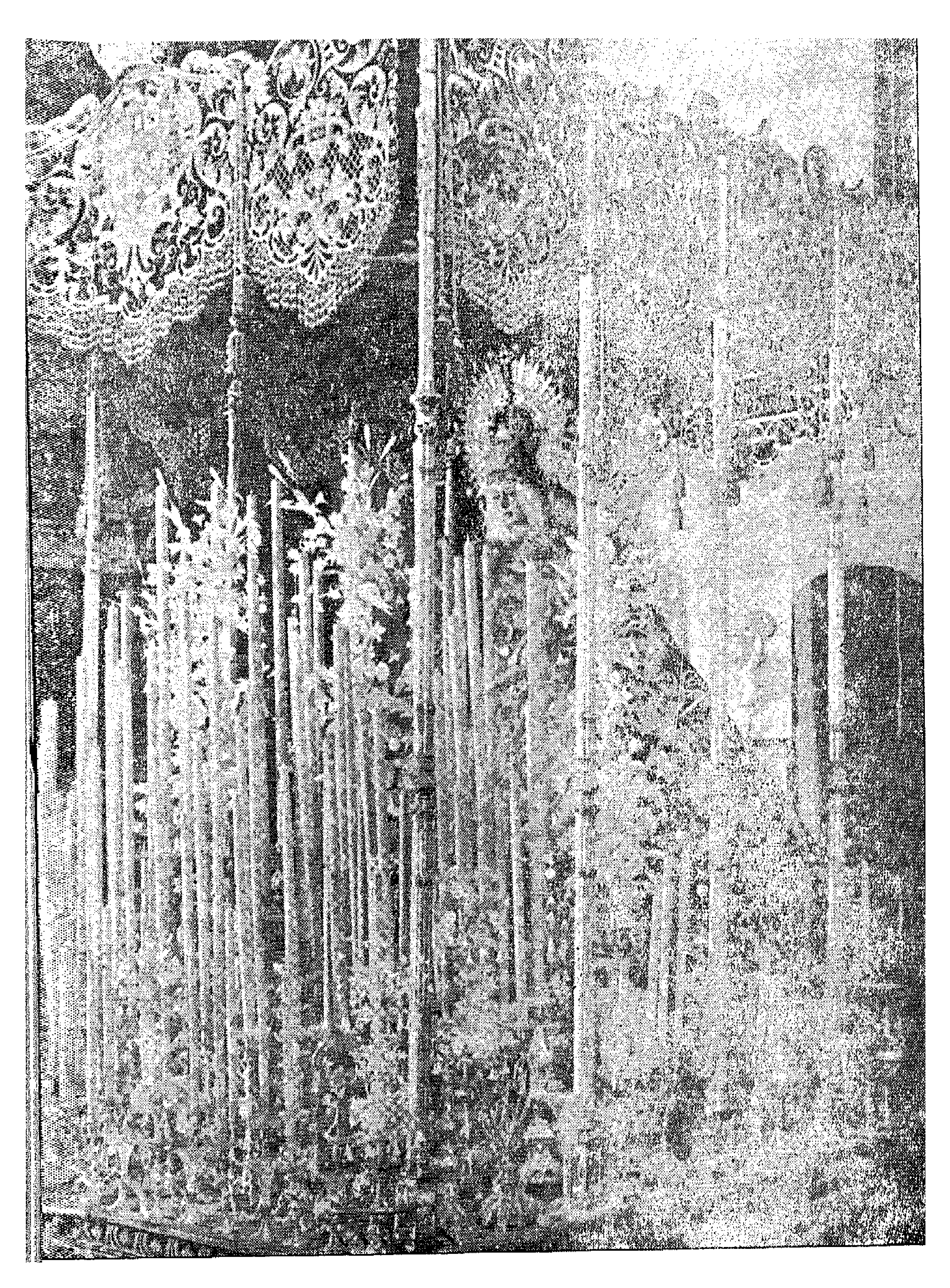
منظر طبيعي بالقرب من « خادراكي » في قشتالة الجديدة



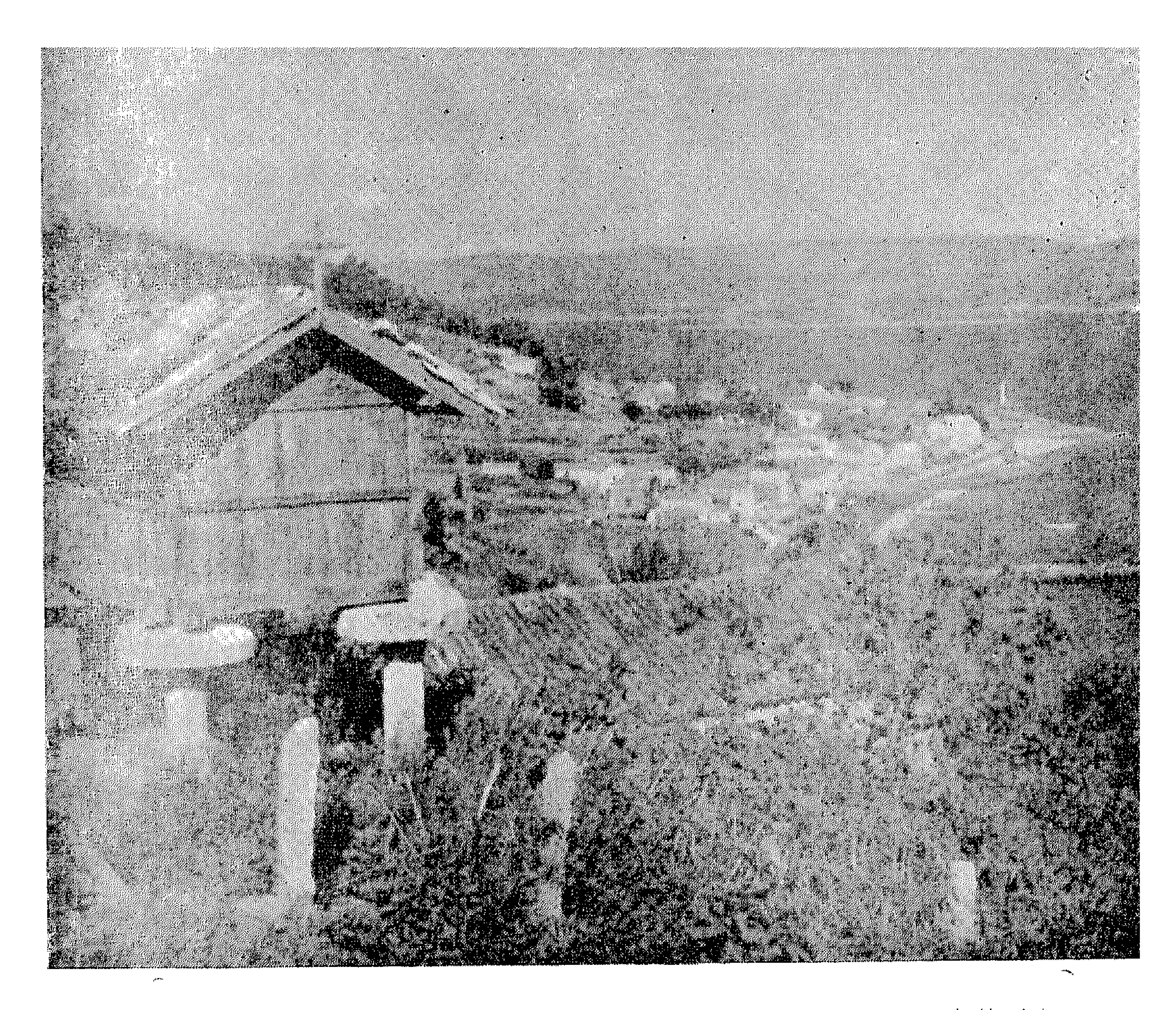
طريق القلعة الفسيح فى مدريد



صحن كاتدرائية سانتياجو دى كومبوستيلا
ويتمثل فيه فن العمارة فى عصر النهضة



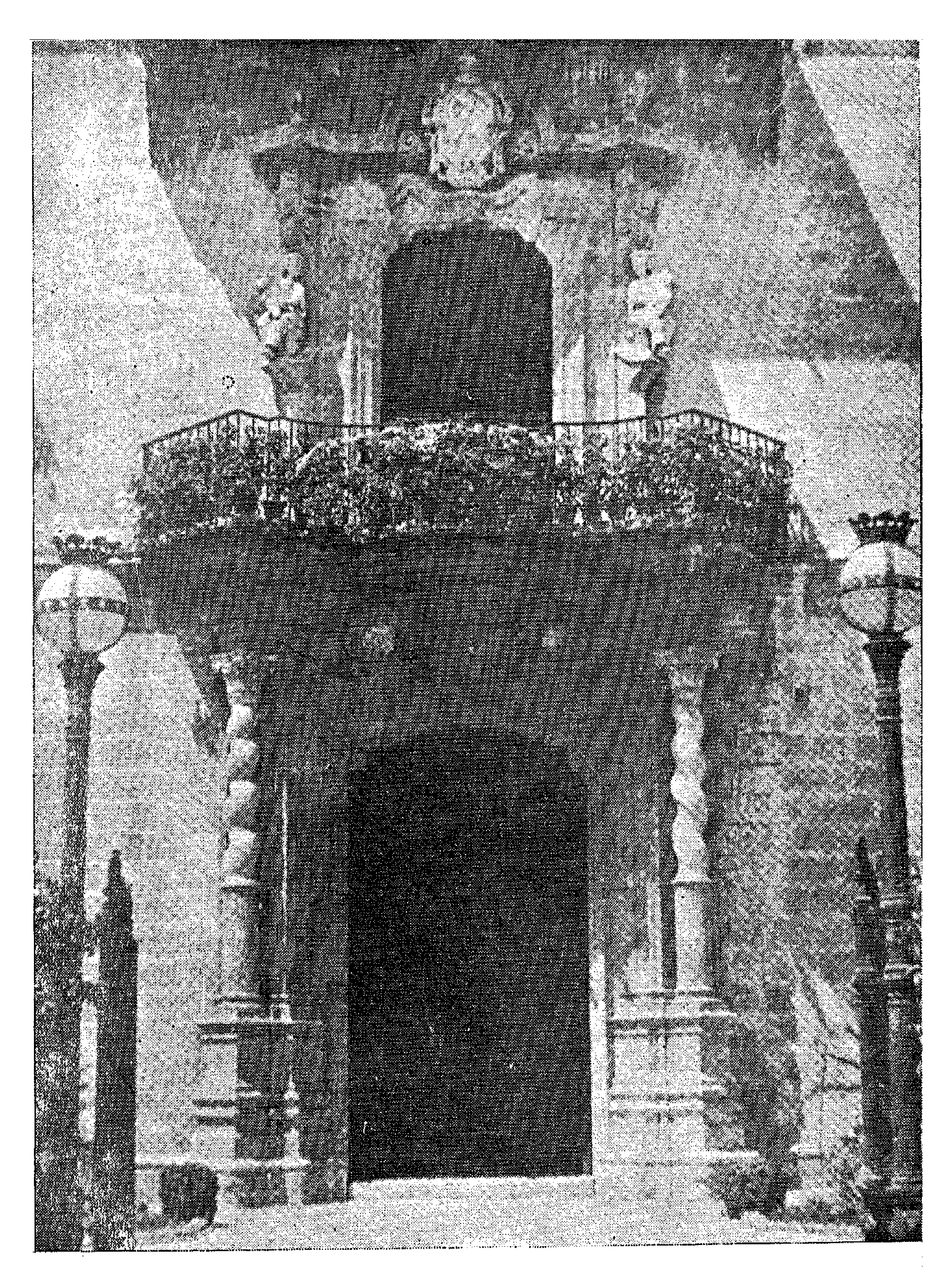
احدى المنصات التى تحمل تمثال العذراء فى احتفالات الأسبوع المقدس بأشبيلية .



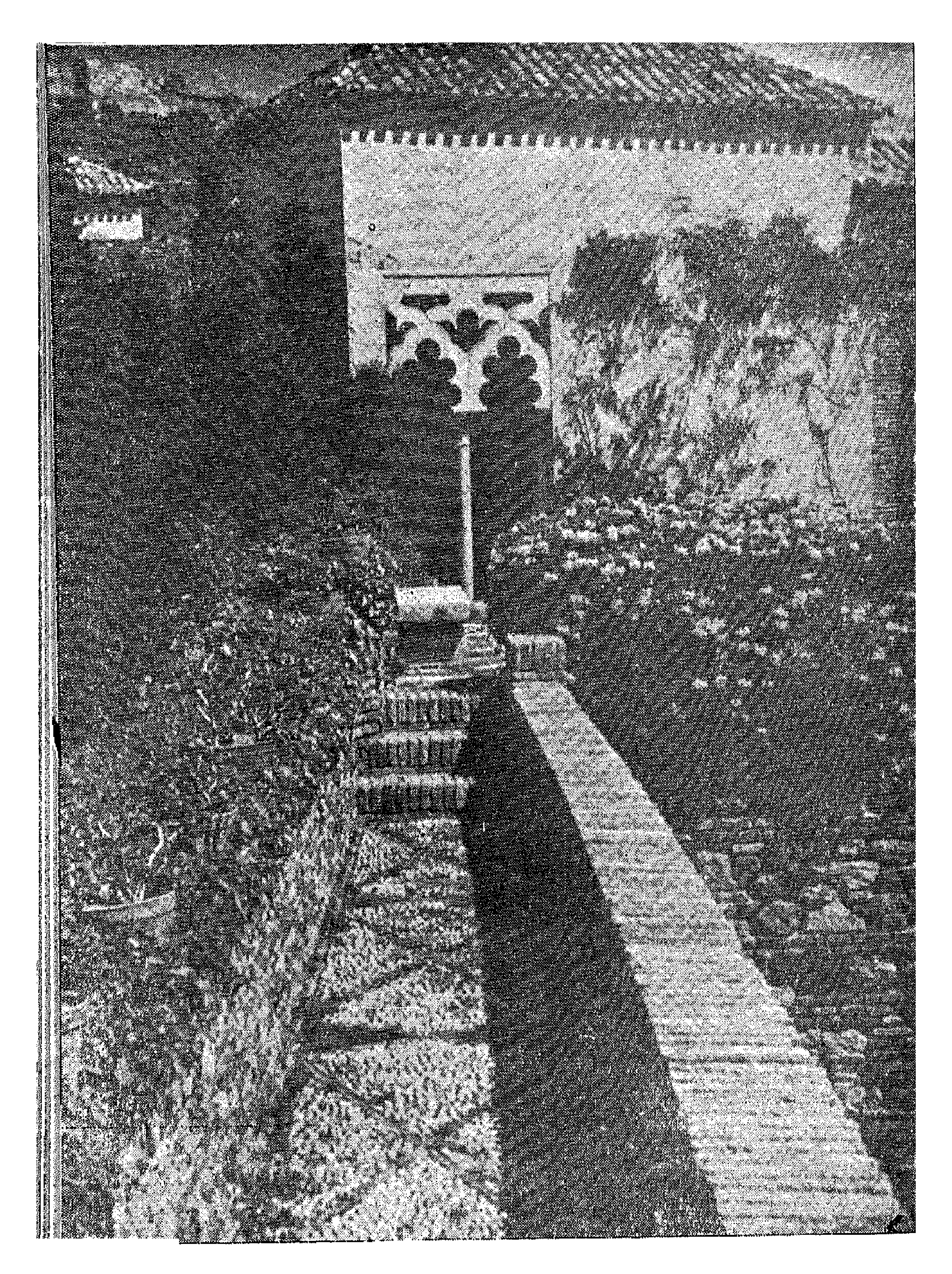
ثمار البطيخ تنضج فوق سقف أحد الأضرحة فى احدى قرى الصيد بمقاطعة جليقية .



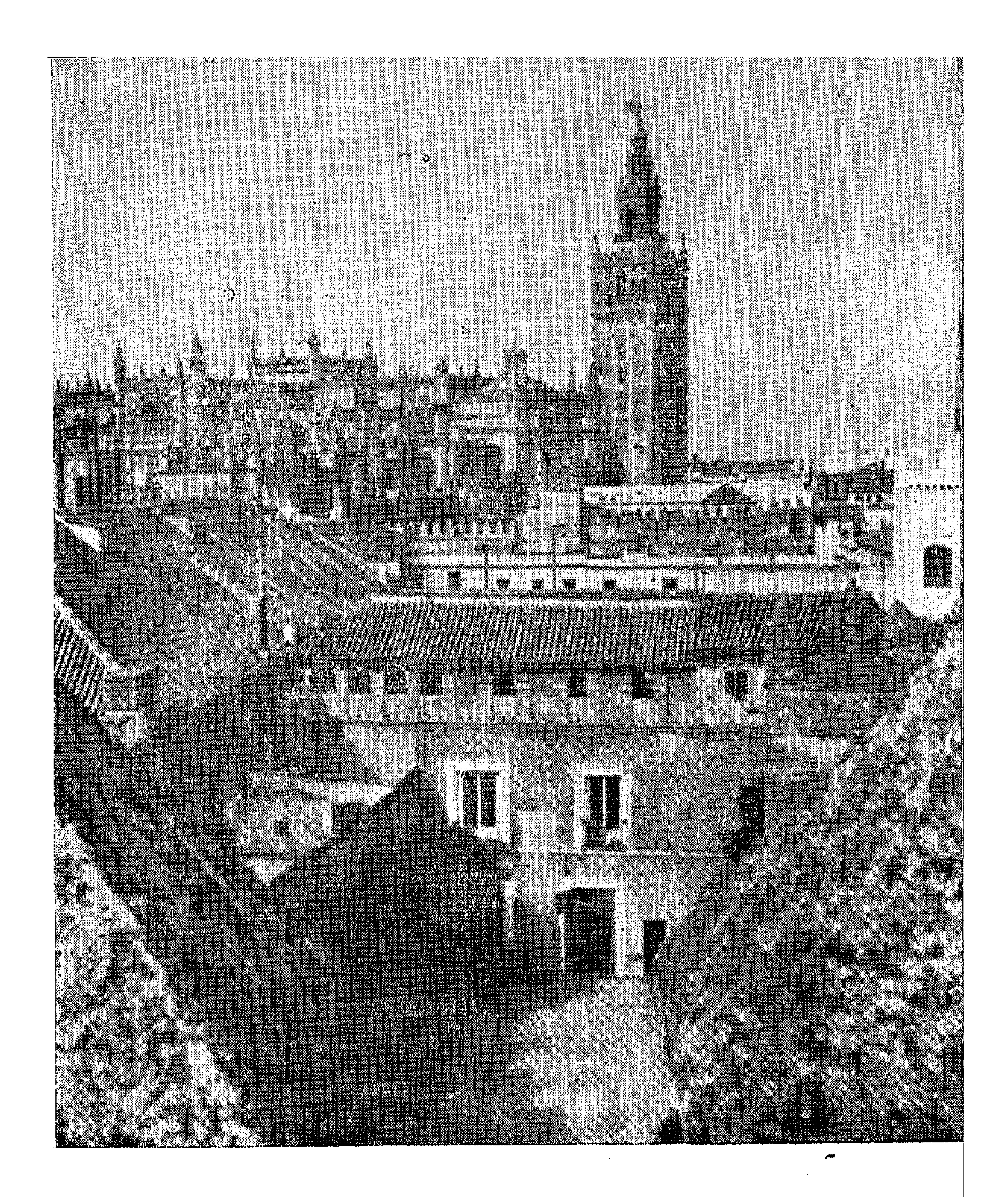
قمم جبال البرانس بالقرب من سانتاندر



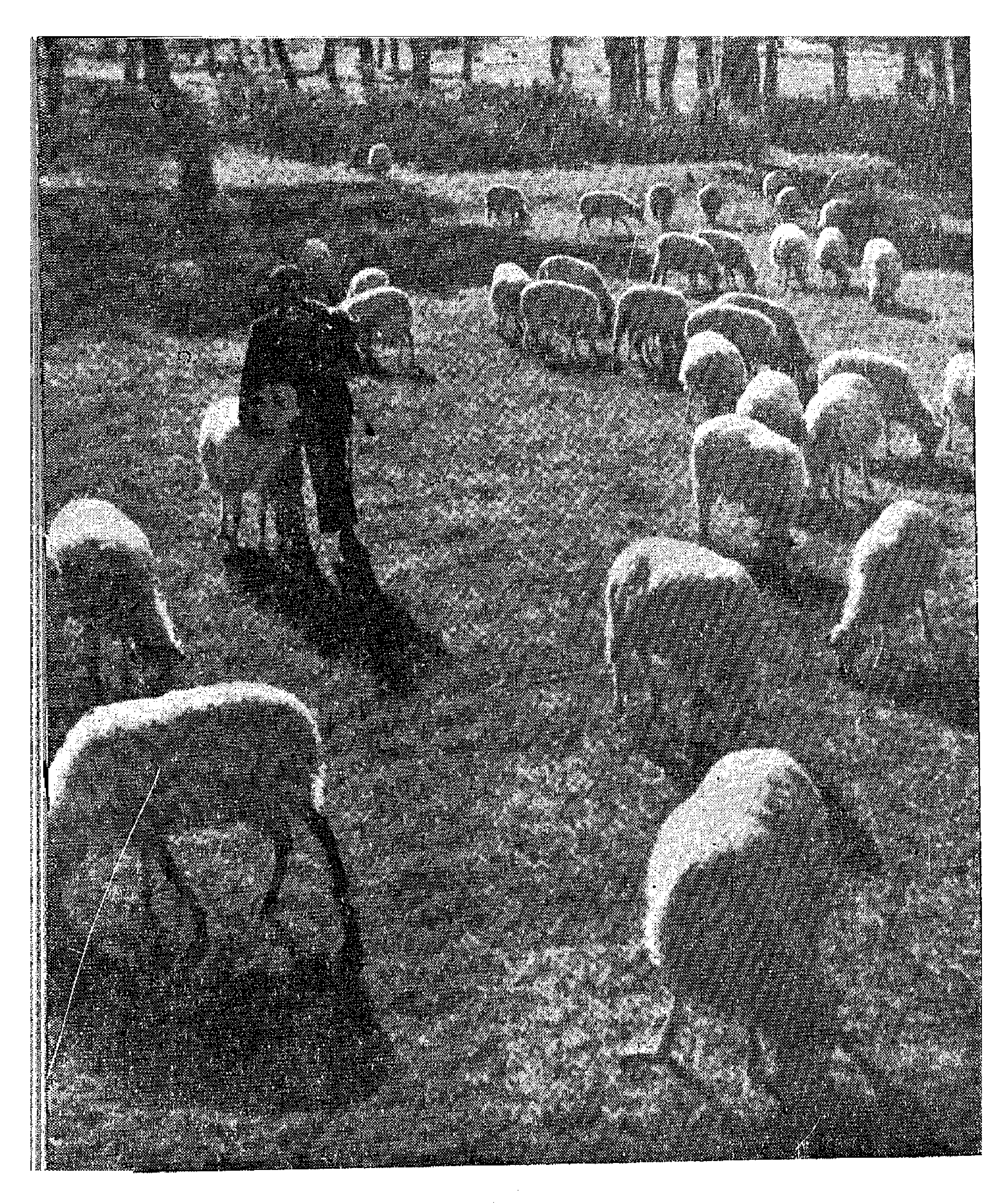
مدخل منزل فى مدينة « خيريس دى لافرونتيرا » وقد زين بالدروع التقليدية للأسرة .



حديقة عربية فى مالقة



كاتدرائية أشبيلية يعلوها برج الأجراس



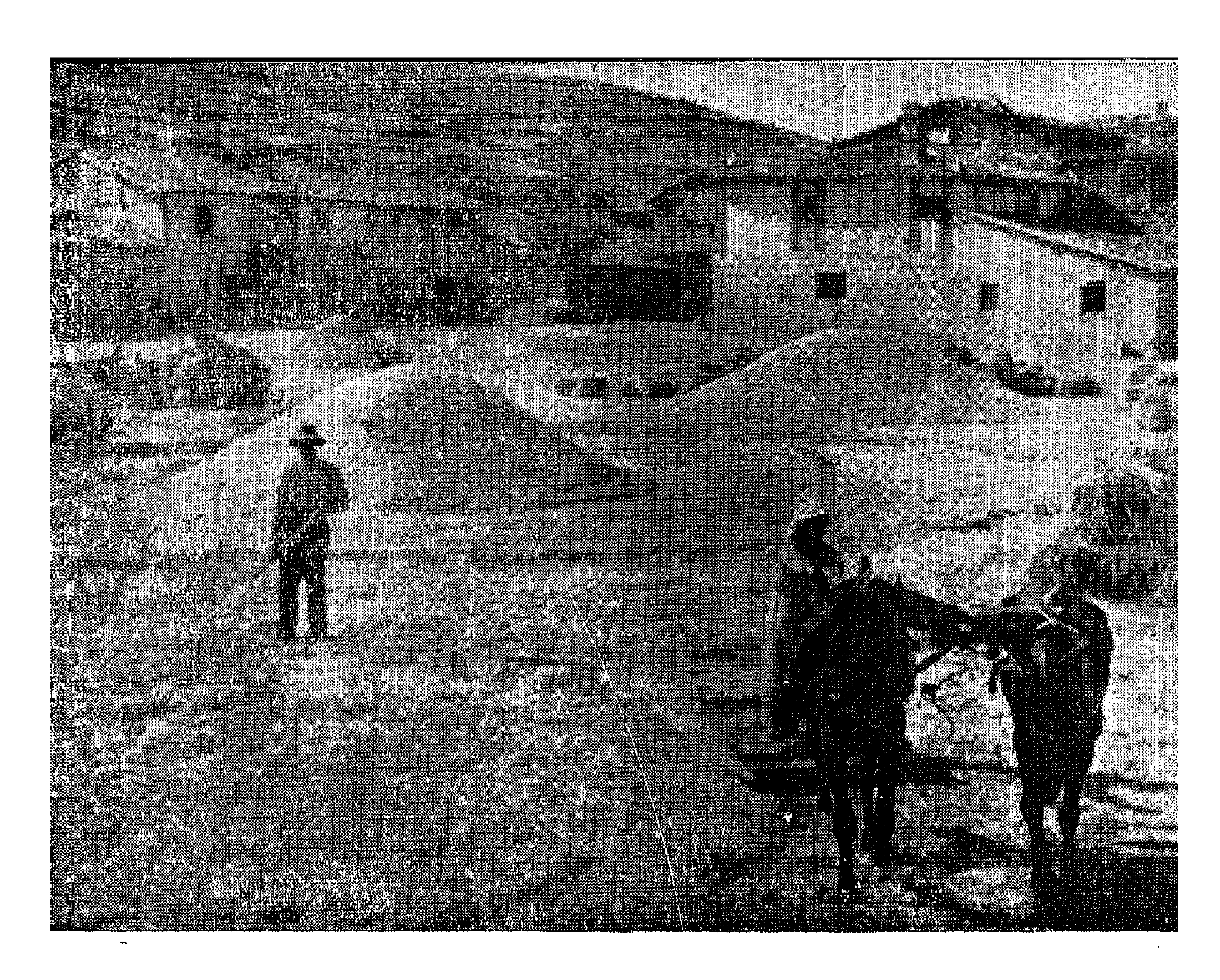
تربية الأغنام ونسج الصوف من الحرف الهامة فى قشتالة القديمة



كاتدرائية سلمنقة



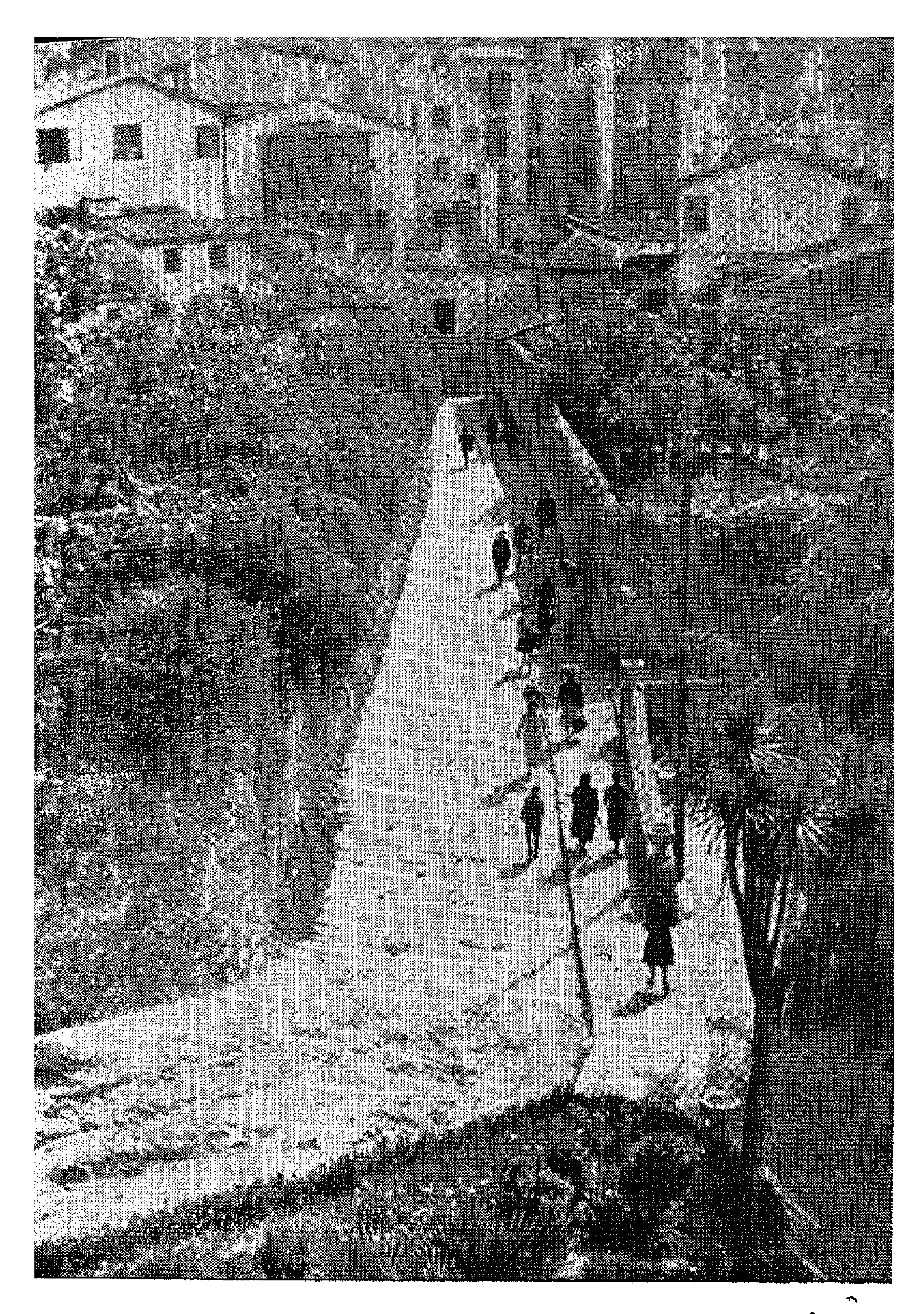
ميناء « ڤيجو » بمقاطعة جليقية



درس القمح بطريقة بدائية فى مزرعة بالقرب من «بورجوس»



الشباب الاسبانى اذ يفد الى أشبيلية فى موسم أعيادها فى شهر أبريل



منظر احد الطرق فى « أورنسة » ـ بجليقية

القوات الفرنسية بالهجوم على الأهالى مستخدمة المدافع والبنادق ، وقاوم الأهالى بالهراوات والأحجار والمدى . ثم قام ضابط إسبانى فى حامية مجاورة بتسليحهم بالبنادق التى استخدموها فى المعركة . غير أن جنود فرنسا المدربين استطاعوا فى النهاية إخماد هذه الحركة ، وأعدم زعماؤها وكثيرون غيرهم على الفور . ومع ذلك فقد بدأت الحركة ضد الاحتلال . ويعد اليوم الثانى من مايو بداية وثبة للوطنيين ، كما حدث فى كوفادونجا من قبل .

وفى متحف برادو تجد لوحات جويا التى تعبر عن الفزع وحالة الترقب ، والوحشية التى أظهرها الفرنسيون فى إعدامهم للأهالى يوم ٢ من مايو .

وقد استطاع جويا وبستانى حديقته التسلل بعد انتهاء القتال فى تلك الليلة ومعه بندقيته وكراسة رسمه ، وكلما سطع ضوء القمر بين السحب يضع جويا بندقيته ليسجل رسوماً أولية لوجوه الموتى وأوضاعهم ، وهم راقدون دون دفن فى شوارع المدينة وحقولها .

وقد وقع عبء حركة التحرير الثانية هذه على الشعب الإسبانى نفسه . فلم يكن لديهم ملك يقودهم ، وكان عدد النبلاء بينهم قليلا . ولم تكن لديهم أموال للحصول على معدات القتال . وفى البداية لقى الجنود النظاميون الإسبان الذين وقفوا بجانبهم هزيمة منكرة . فكان معظم المحاربين من المتطوعين الذين استخدموا طريقة الكر والفر ، أو حرب العصابات (Guerrilla) التى كان الإسبان أول من ابتكرها

ومعناها بالإسبانية « الحرب الصغيرة » . وقد أزعج الإسبان جيوش نابليون المحنكة بهذه الطريقة إلى أن استطاعوا فى موقعة «بايان» (Bailen) فى جنوب إسبانيا أن يتصدوا لجيش فرنسى مدرب قوامه ٢٢ ألفاً من الجنود المدربين ويلحقوا به الهزيمة .

ويفتخر الإسبان بموقعة بايلن ، وكذلك يتفاخرون بأمجاد وفظائع حصار مدينتى سرقسطة وخيرونا (Gerona) . وقد حوصرت مدينة سرقسطة غير المحصنة التى تقع على نهر ابره مرتين ، واستمر كل حصار شهرين . وتعتبر المقاومة التى أبدتها تلك المدينة من الأمور المحيرة للعقل ، أو قل إنها كانت معجزة .

وقد فك الفرنسيون حصارها الأول بعد هزيمة بايلن فى منتصف أغسطس عام ١٨٠٨ ، تاركين المدافعين عنها حتى ديسمبر من ذلك العام ليعدوا أنفسهم للهجوم من جديد . فتدفق المتطوعون إلى سرقسطة من جميع أنحاء شبه الجزيرة ، ومنهم المزارعون من مقاطعتى أرغون وبلنسية يرتدون أحذية صنعت نعالها من الحبال ، ويعصبون رءوسهم بعصابات زاهية ، ورجال مرسية وأهالى قطالونية بأحزمتهم العريضة اللامعة . وأقبل شباب مدريد المتأنقون يتسلحون بالسيوف وهم عباءاتهم الفضفاضة ، وكتيبة سويسرية من أرغون ورجال من فرقة الرماة الملكية . وتكدست الأسلحة والذخائر فى الأديرة والكنائس ذات الجدران المرتفعة ، ووضعت الأطعمة فى مخازن عميقة ؛ وقد نزع أهالى سرقسطة أشجار الزيتون المجاورة حتى لا يجد العدو مكاناً يحتمى فيه ، فى حين تحتاج شجرة واحدة من الزيتون إلى عدة أعوام

حتى تنمو وتعطى ثمارها . ولم تكن الأرض المحيطة بسرقسطة غنية بالمحصولات الأخرى . وعندما شن عشرون ألفاً من القوات الفرنسية هجومهم كانت المدينة مستعدة .

دمرت القنابل الفرنسية المتاريس والجدران شيئاً فشيئاً ، فهنا انهار جانب من الدير فوق المدافعين ، وهناك دمرت كنيسة عن آخرها . وقد ألقى المدافعون جثث قتلاهم فى ثغرات الجدران على أمل أن يصمدوا فترة أطول . ودار القتال من منزل إلى منزل ، ومن حجرة إلى حجرة . وفى بعض الأحيان كانوا يقاتلون إلى أن يسقطوا جميعاً جرحى أو قتلى . كانوا يقاتلون من شارع إلى شارع ، وداخل الكنائس . وكان الفرنسيون يطلقون نيرانهم من مذبح الكنيسة فيرد عليهم الإسبان من غرفة الاعتراف من مصلى والأروقة الجانبية .

وكانت الفتيات الصغيرات فى الأديرة يعملون فى مصنع الذخيرة، وكانت أمهاتهن وشقيقاتهن يقمن بمعاونة الراهبات فى إسعاف الجرحى. وكان النساء يجلبن الطعام للمدافعين فى المواقع الأمامية المكشوفة ، بل إن بعضهن كن يقاتلن إلى جانب الرجال .

وقد مات خمسون ألفاً ، بل ويقول البعض إنهم ستون ألفاً ، من الرجال والنساء والأطفال متأثرين بالجراح والأوبئة فى هذا الحصار الثانى . وعندما تدفقت القوات الفرنسية أخيراً داخل المدينة المحطمة كانت تشق طريقها بين أكوام من الجثث مكدسة بعضها فوق بعض كالسدود .

ولمدينة خيرونا نفس القصة تقريبا ؛ فقد صمدت سبعة شهور ولم تستسلم إلا عندما ساعدت الأوبئة والمجاعة مدافع الفرنسيين وألغامهم فى القضاء على سكانها .

وقد أطلق على حرب ١٨٠٨ – ١٨١١ اسمان ؛ فالإسبان يطلقون عليها : « حرب الاستقلال » ، فى حين يسميها الإنجليز : (حرب شبه الجزيرة) (Peninsular War) . وقد جاءت إنجلترا – العدو التقليدى لإسبانيا – لمعاونة الشعب الإسبانى ، وأرسلت دوق ولنجتون على رأس جيش للمساهمة فى طرد الفرنسيين .. وأخيراً أدرك نابليون أن التحالف الإنجليزى – الإسبانى قد هزمه . وهرب أخوه جوزيف (السكير) إلى فرنسا ، وعاد فرديناند السابع « المبتغى » إلى شعبه الذى رحب بعودته .

ومبلغ ما نعلم عن ذلك الماضى أن فرانسسكو جويا لم يطلق رصاصة واحدة ، أو يشترك فى مؤامرة لنصرة القضية الإسبانية إبان نضالها . إلا أنه عبر خير تعبير عن روح أمته فى المقاومة ، وأظهر ما قاسته فى ذلك الوقت . فقد ولد جويا فى مدينة صغيرة بمقاطعة أرغون تبعد ٣٠ ميلا عن مدينة سرقسطة الباسلة . وقد أمضى حداثته فى دراسة الفن متتلمذا على أيدى فنانى هذه المدينة . وكان قد أقام بمدريد عدة أعوام عندما نشبت الحرب ، ولكنه عاد إلى سرقسطة فى الفترة التى توسطت الحصارين .

وقد دون معظم ما رآه وسمعه فى رسوم تخطيطية لاستعماله فى

لوحاته المحفورة المعروفة باسم «كوارث الحرب » (Desastros de la Guerra) .

وقد أعجب الفنانون باللوحات الخمس والستين لكمال تصميمها وطريقة تنفيذها ، ولكنك لا تحتاج إلى أن تكون فناناً كى تجد هذه اللوحات معبرة تعبيراً لا ينسى عن الفزع والسخط والعطف التى عبر بها جويا عن الحرب بكل تفاصيلها الفظيعة .

ومن أشهر لوحات هذه المجموعة اللوحة المسماة « الرجل المخنوق » (The Garroted Man) وفيها نرى قسيساً خنق حتى الموت ، مستنداً إلى جدار ، وقد جمدت يداه إلى صليب عليه صورة المسيح مصلوباً . وفى لوحات أخرى من نفس المجموعة رجال ونساء يواجهون طعنات الرماح « السونكى » ، أو يرقدون جثثاً هامدة ، وقد قلبتهم انفجارات القنابل رأساً على عقب .

وهذه اللوحات مليئة بثورة الغضب والغيظ . وتميط لوحات أخرى اللثام عن جوانب أخرى فى طبيعة جويا ، فاللوحات الثمانون المسماة « نزوات » (Caprichos) تتدرج من السخرية الخفيفة إلى التهكم اللاذع عندما تشير إلى خرافات المجتمع ورذائله .

فالعفاريت مع الساحرات ، والكهول والأغبياء من الرجال مع السيدات المغرورات الشمطاوات ، والفتيات الحمقاوات مع الشبان البله ، والراهبات والقسس وضباط الجيش والأرستقراطيون كل هؤلاء قد أظهرهم جويا فى مشاهد صغيرة تختلط فيها الحقيقة

بالخيال . وكان جويا يعقب على كل مشهد ؛ ففى إحدى هذه اللوحات المعروفة « نزوات » ترى امرأة تخلع أسنان رجل بعد شنقه ، وفى أسفل الصورة يكتب جويا : « إن أسنان الرجل الذى شنق وشيكاً ذات أثر بالغ فى السحر . وبدون هذا العنصر الجوهرى لا يفلح شيء . واحسرتاه على الناس الذين يؤمنون بهذه السخافات ! » .

وفى لوحاته المسماة «تاوروماكيا» (Tauromaquia) أجرى جويا سلسلة من الدراسات عن مصارعة الثيران — وهى ليست مرعبة — إلا أنها بالرغم من ذلك نابضة بالإثارة والأسى « الدراما » . وكان جويا من المتحمسين لمصارعة الثيران ؛ وعندما تقدم به العمر كان يدعى أنه جمع نفقات سفره من مدريد إلى روما بمصارعة الثيران فى حلبات المدن الصغيرة الواقعة فى الطريق من مدريد إلى الشاطئ الإسبانى .

وكان جويا رساماً عظيما كما نبغ فى الحفر على المعادن . وتلقى لوحاته أضواء خلابة على الحياة الإسبانية . فقد عرفنا لوحاته عن الأسرة المالكة التعيسة . ولكنه خلف لنا أيضاً لمحات عن مختلف ألوان الناس . . مثل أولئك الذين يسيرون بقوائم خشبية طويلة ، والنساء الثرثارات ، وجماعات الحصاد ، ولاعبى الورق فى الحدائق والأطفال وهم يتسلقون أشجار التفاح . وقد أعد كثير من هـــذه الرسوم كنماذج لنسيج الطنافس المزركشة التى كان يقوم بصنعها المصنع الملكى . وقد ترك لنا أيضاً لوحات طبيعية للغاية عن بعض كبار القوم وسيدات البلاط الملكى ، والأطفال الأرستقراطيين ، حتى ليبدو

وكأنهم على وشك الزجر ، أو الأمر ، أو طلب كأس من النبيذ ، أو كأنهم يعلقون على جويا كفنان . ولم يكشف أى إسبانى ــ باستثناء سرفانتس ــ عن مثل هذه المشاهد للعالم الإسبانى الرحيب الزاخر بالسكان .

الفصل العاشر

الطلاء المخدوش - مزيد من البوربون

عندما عاد فرديناند إلى إسبانيا عام ١٨١١ ، كان جزاء المئات من الوطنيين الذين حاربوا لطرد الفرنسيين وإعادته إلى العرش هو النفى ، أو السجن ، أو الإعدام ؛ لأن الكثيرين منهم أحسوا بأحقيتهم فى حكم أكثر تحرراً ، وتوقعوا التمتع بمزيد من الحرية ، فى حين أن فرديناند كان يمقت الأحرار ومثلهم العليا . ولعله كان يخشى ريشة جويا اللاذعة ، فرغم أنه لم يلحق به ضرراً إلا أنه يروى عن فرديناند أنه قال له : « أنت تستحق النفى .. بل وتستحق الشنق ؟ ولكنك فنان عظيم وسننسى نحن كل شىء ؟ » . وبالرغم من هذا الشعور فقد جلس الملك أمام جويا عدة مرات ليرسم له كثيراً من اللوحات . ومع ذلك فقد كانت الهدنة المعقودة بين الرجلين هدنة قلقة ، حتى إن جويا صمم فى النهاية على الرحيل إلى فرنسا ، حيث أمضى هناك بقية حياته فى منفاه الاختيارى .

وقد كان الشعب الإسبانى فى الواقع يستأهل — من أجل بطولته ضد الغزاة الفرنسيين — حكاماً أفضل من الحاكمين التعسين اللذين ابتلى بهما مدى نصف القرن التالى . ففى خلال حكم فرديناند وابنته إيزابلا الثانية التى خلفته كان جزاء الشعب الوحيد على إخلاصه وولائه للعرش هو الاستبداد الملكى والحكومة الفاسدة .

وتأججت أكثر من ثورة للحد من طغيان فرديناند أو الملكة الذميمة ايزابلا ، ولكن الثورات المتوالية سحقت ولم تحقق شيئاً . وتتابعت أمثال هذه الثورات ، كما اشتعلت حربان أهليتان سميتا : « الحروب الكارلية » (Carlist Wars) قام بهما دون كارلوس شقيق فرديناند وورثته ، فى محاولتهم اغتصاب العرش من ايزابلا ، ثم من ابنها الفونسو الثانى عشر بعد ذلك .

وحينما ثار الإسبان فى النهاية ضد ايزابلا وطردوها من البلاد بلغ حنقهم عليها وعلى تصرفاتها أنهم لم يقبلوا حتى ابنها الفونسو ملكاً عليهم ، بل وجهوا الدعوة إلى أمير إيطالى ليجرب التاج الإسبانى . فقام الأمير الإيطالى بذلك فعلا ، ولكنه بعد عامين قلقين شعر بارتياح بتنازله عن ذلك التاج وعودته إلى بلاده ، فى وقت كانت الحرب الأهلية الثانية تمزق البلاد . وقد أعلن تشكيل الجمهورية عند رحيله ، ولكن يبدو أنه كان مقدراً لها الفشل . وهكذا دعى الفونسو الثانى عشر مرة أخرى إلى إسبانيا . وقد أثبت الفونسو أنه حاكم حى الضمير إلى درجة مدهشة . . ولكنه مات لسوء الحظ بعد أن حكم البلاد عشر سنوات ، تاركاً زوجته وصية على عرش ابنه الذى لم يكن قد ولد ، والذى سمى فيما بعد الفونسو الثالث عشر .

وبينما كانت إسبانيا مشغولة بصراعها ضد نابليون فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وبالفوضى التى نتجت من سوء حكم فرديناند السابع بعد ذلك ، انتهزت المكسيك ودول أمريكا الجنوبية

هذا الوضع للحصول على استقلالها ؛ ففى عام ١٨٢٤ كانت إسبانيا قد فقدت كل مستعمراتها فى الدنيا الجديدة ما عدا جزر الفلبين وكوبا وبورتوريكو .

وحتى هذه المناطق ــ وبخاصة كوبا ــ لم تكن راضية عن الحكم العسكرى الاستبدادى الذى فرض عليها . وبحلول عام ١٨٩٨ كان أهالى كوبا وبورتوريكو قد ثاروا أكثر من مرة ، وكانت الولايات المتحدة تبدى عطفها على قضيتهم . فعندما نسفت السفينة الحربية الأمريكية « مين » (Maine) فى ميناء هافانا بكوبا أصرت صحف أمريكا الشمالية على أن الإسبانيين هم الذين قاموا بتخريب السفينة ، وثارت مراجل غضب الرأى العام فى الولايات المتحدة ضد إسبانيا . والمعتقد الآن ــ بعد مرور السنين والنظر إلى هذه المسألة نظرة هادئة ــ أن الانفجار الذى دمر « البارجة » مين كان فى الأرجح قضاء وقدراً ، ولم يكن عملا من أعمال التخريب . ومهما تكن سبب غرق البارجة (مين) فإن الحادث كان كافيا لدخول الولايات المتحدة فى حرب ضد الإسبان فى صف الثوار الكوبيين ، وهى حرب لم تستغرق عاماً . وقد حققت القوات الأمريكية بعض الانتصارات البحرية فى مياه الفلبين وكوبا ، وخاضت غمار القتال على أرض كوبا ، وعندئذ اعترفت إسبانيا بهزيمتها ، ونصت اتفاقية باريس التى وقعت عام ١٨٩٨ على منح كوبا الاستقلال ، وضم الفلبين وبورتوريكو إلى الولايات المتحدة .

هزت تلك الهزيمة الإسبان ، وكانت صدمة وإذلالا لهم ، كما أنهم

صعقوا عند اكتشافهم مدى عدم استعداد قواتهم الحربية ونقص عتادها وبخاصة أسطولهم . غير أنهم أدركوا أن بلادهم ستكون أحسن حالا بعد إزاحة مشكلات مستعمراتها عن كاهلها . . وقام عدد من ذوي الآراء التقدمية يطالبون بمشروعات للإصلاح تعيد إلى البلاد كرامتها واعتبارها . وكان المستقبل يبدو مشرقاً حينما انتهت الوصاية وأصبح ألفونسو الثالث عشر ملكاً وهو فى السادسة عشرة من عمره . كان ألفونسو حسن الطوية جذاباً وذكياً ، وكان شعبه يحبه ، وكان هو مهتماً ببلاده . ولكن تربيته وخبرته لم تعداه للعصر الحديث ، ولم تعلماه أنه لم يعد فى إمكان الملوك أن يحكموا بمفردهم ووفق مشيئتهم. وكان رفضه منح الشعب نصيباً فى الحكم أحد أسباب فشله فى توحيد إسبانيا فى سعادة ورخاء . ولكن كانت هناك أسباب أخرى للاضطراب العام ، منها الرغبة فى مزيد من الاستقلال الذاتى فى إقليم الباسك ، وحركة القطالونيين لإقامة حكومة منفصلة . وفى هذه الأثناء كان الجيش قد ضيق الخناق على الملك حتى أصبح له مطلق السلطة .

وعندئذ اتخذ بريمو دي ريفيرا (Primo De Rivera) — وهو واحد من ٩٠٠ جنرال فى إسبانيا — من نفسه دكتاتوراً ، وجعل من ألفونسو مجرد رئيس صوري . وكان بريمو دي ريفيرا رجلا قديراً أصلح من أحوال البلاد فى نواح عديدة ، ولكنه رفض هو أيضاً أن يفهم أو يقبل حنين الناس إلى الأساليب الديموقراطية . وهكذا أخفقت ديكتاتوريته وذهب إلى المنفى .

وبعد ذلك بفترة وجيزة — فى عام ١٩٣١ تنازل ألفونسو

عن العرش فى سكون وغادر البلاد ، وتشكلت الجمهورية الإسبانية الثانية دون أن تراق نقطة دم واحدة . وكان معظم الناس مغتبطين فى البداية بالجمهورية الجديدة والسهولة التى شكلت بها حتى أطلقوا عليها « البنت الجميلة » (La nina bonita) . ولكن عندما كبرت البنت الجميلة غاضت جاذبيتها ، وعرفت رفاق السوء ؛ فقد تغلغلت العناصر الراديكالية المتطرفة كالفوضويين والشيوعيين والوطنيين المتعصبين فى قطالونيا فى صفوف المفكرين الأحرار الذين كانوا قد شكلوا حكومة الجمهورية الأولى . وبدأ الإسبان يعانون كل ألوان التعسف ؛ فمثلا منعت نقابات العمال أى شخص من أن يقود سيارته بنفسه ، معلنين أنه لن تدور عجلة من عجلاتها إلا إذا استأجر صاحبها سائقاً تابعاً للنقابة . وحظر على الفتاة أن تروى حديقتها بنفسها لأن إرواء الحديقة يجب أن يقوم به بستانى من النقابة . وفى يوم العمال توقفت سيارات الأجرة والسيارات العامة والخاصة فى مدن مثل مدينة مدريد أو برشلونة ، ولم تجرؤ سيارة خاصة على الظهور فى الشوارع .

وبدأ التذمر فى الازدياد ، وأخذ الناس فى التحزب ، ونشبت المصادمات الدامية فى عام ١٩٣٤ حينما أحرقت الكنائس وعمت الاغتيالات السياسية وجرائم القتل . . وفى تلك السنة قام عمال المناجم ومصانع الحـــديد فى منطقة « اشتورية » (Asturias) بتخريب مدينة أوفييدو (Oviedo) التى انبثقت منها أول مقاومة إسبانية ضد العرب منذ ١١٠٠ عام ، ولم يصمد أمام ثورتهم فى المدينـــة كلها سوى

الكاتدرائية التى يبلغ عمرها ٦٠٠ عام لتصبح قلعة تحتمى فيها قوات الحكومة إلى أن وصلت إليها النجدات .

وفى يوليو عام ١٩٣٦ ثارت القوات المعسكرة فى محمية مراكش فى شمال أفريقيا ، ضد حكومة الجمهورية . واخترق الجنود المغاربة بقيادة ضباطهم الإسبان مضيق جبل طارق لينزلوا فى جنوب إسبانيا معلنين الثورة ، وانضمت إليهم قوات عديدة من شتى أنحاء البلاد . وهكذا بدأت الحرب الأهلية . وقاد الجنرال فرانسسكو فرانكو هؤلاء الثوار (الذين يسمون أحياناً بالوطنيين) . أما القوات الموالية للحكومة فلم تكن قيادتها موحدة مثل قوات فرانكو ، لأنها كانت تضم ألواناً عديدة متباينة المشارب والأغراض . ومن أمثلة ذلك أن الباسك المتعصبين للمذهب الكاثوليكى تحالفوا مع الفوضويين الذين يعارضون جميع الأديان ، وأن القطالونيين الشديدى التبرم من حكم « قشتالة » والذين يتوقون إلى الحكم الذاتى حاربوا جنباً إلى جنب مع الشيوعيين الذين كانوا ينشدون ربط إسبانيا بإحكام ثم تسليمها بعد ذلك إلى الاتحاد السوفييتى لتدور فى فلكه كدولة تابعة .

ولم تتدخل إنجلترا وفرنسا أو الولايات المتحدة فى هذا الصراع ، ولكن روسيا اضطلعت بمزيد من السلطات فى الجانب الموالى للحكومة فى حين كان النازيون الألمان والإيطاليون والفاشيون يقدمون مساعداتهم الجوهرية للجنرال فرانكو . ورغم هذا فإن هذه الحرب التى تعد أسوأ حرب أهلية شاهدتها إسبانيا لم تكن من فعل الدخلاء ،

بل إنها بدأت ـ كجميع الحروب الأهلية الأخرى ـ كمسألة إسبانية بحتة ناتجة عن طبيعة الإسبان الذين لاتلين قناتهم ، وعن فرط تحمسهم ورغبتهم فى الاستقلال الفردى .

« لقد نشبت الحرب الأهلية بسبب قلة الماء وزيادة النار فى طباع الشعب الإسبانى . وعندما تجف الأرض تحت أشعة الشمس الحارة فى إسبانيا ـ وهى بلاد تفتقر إلى المياه بوجه عام ـ تتشقق التربة العطشة . ويلوم الغريب عن إسبانيا ـ بحسن نية ـ أرض البلاد عندما تثيره انفعالات الإسبانيين الحادة ، فيقول : « إن هذه الأرض إلى اليمين ، أو تلك الأرض إلى اليسار ، هى المسئولة عن ذلك » .

ولكن الحقيقة أن هناك أرضاً واحدة » .

(عن كتاب « إسبانيا » بقلم سلفادور دى مادارياجا)

وانتهت الحرب فى عام ١٩٣٩ بتسليم الموالين للحكومة ، وأصبح الجنرال فرانكو رئيساً للدولة ورئيساً للوزراء فى الحكومة الجديدة . ومنذ ذلك الوقت لم يكن لإسبانيا نظام ديموقراطى أو نيابى ، وحتى البرلمان (Cortes) ليس له إلا أن يقترح القوانين دون أن تكون له سلطة تقديمها أو إقرارها . ويؤلف الفلانجيون (Falangists) أو الفاشيون الإسبان أكبر الأحزاب وأعظمها نفوذاً فى إسبانيا (حزب الفلانج) . كما أن هناك بعض الملكيين الذين يأملون أن يروا ابن الملك ألفونسو أو حفيده على العرش يوماً ما . ومن الصعب معرفة ما يريده عامة الشعب حقيقة ، أو ما يفكرون فيه ، أو ما يشعرون به أكثر

من تخفيف كربتهم . إنهم ما زالوا مجهدين من آثار الحرب الأهلية . فكل أسرة فقدت واحداً على الأقل من أفرادها . فقد كانت المذابح مريعة للغاية : وأطاحت الاغتيالات السياسية والإعدام بين الجانبين بحياة ٨٠٠٫٠٠٠ شخص ، كما مات ٤٠٠ ألف آخرين فى المعارك . وغير الدمار وجه الأرض فى أماكن كثيرة ؛ فقد دمرت الغارات الجوية كثيراً من المـدن الرئيسية ؛ فأصبحت الأديرة والقصور والكنائس والجامعات خرائب متفحمة محترقة ، وتحولت المخلفات الأثرية المعمارية التى لا تقدر بثمن إلى أحجار متناثرة .

ومن أعظم ما يذكرنا بتلك الحرب قلعة « الكازار » أو « القصر » (Alcazar) الضخمة فى مدينة طليطلة التى ستبقى أطلالها على الحالة التى آلت إليها بعد الحصار الذى كابدته مع ٢٠٠٠ من الوطنيين الذين دافعوا عنها هم وأسرهم مدة ٧٠ يوماً . ولا يمكن لأى نصب تذكارى حديث أن يكون أكثر إثارة للأسى من هذا التذكار .

وعندما يعاين الإنسان ذلك الحصن القوى الذى دمرته الحرب ويذكر قصته فإنه سيفكر فى حادثين يفصل بينهما وقت طويل ولكنهما متقاربان فى مشاعرهما . يؤكدان طبيعة الإسبانى التى لا تتغير.

جرى الحادث الأول منذ أكثر من ٦٠٠ سنة فى « طريف » (Tarifa) ؛ تلك المدينة البيضاء الناصعة التى تقع فى أقصى جنوبى إسبانيا . وكان الحادث الثانى فى طليطلة عام ١٩٣٧ .

وتتعلق قصة « طريف » بشخصية ألفونسو بيريس دى جوسمان (Alfonso Perez De Guzman) ــ الذى لقب « بجوسمان الطيب » .

أما بطل قصة عام ١٩٣٧ فهو الكولونيل (العقيد) خوان موسكاردو (Juan Moscardo) .

كان الأول يدافع عن مدينة « طريف » المحصنة لصالح الملك سانتشو (Sancho) ملك قشتالة ضد ابن الملك المتمرد . وكان موسكاردو قائداً لحـــامية « الكازار » أو القصر فى طليطلة ــ يدافع عنه بأمر من الجنرال فرانكو .

وكان لجوسمان ابن صغير ، وكذلك كان لموسكاردو ولد فى السادسة عشرة من عمره اسمه « لويس » .

وكما أن الأمير المتمرد تمكن من الإمساك بطفل جوسمان والاحتفاظ به خارج مدينة « طريف » ، فكذلك قبض جنود « الميليشيا » على لويس موسكاردو فى طليطلة .

بعث الأمير برسالة إلى جوسمان يهدد فيها بقتل طفله إذا لم يسلم « طريف » . وتحـــدث رجال « الميليشيا » تليفونياً إلى الكولونيل موسكاردو ينذرونه بضرب ابنه بالرصاص ما لم يسلم لهم القلعة فى خلال عشر دقائق .

وقف جوسمان فوق تحصينات « طريف » وألقى بخنجره صائحاً : « فلتستعملوا هذا » أما موسكاردو فقد طلب محادثة ابنه فى التليفون ، وعندما سمع صوته قال له : « يا بنى : أسلم روحك إلى الله ، واهتف « لتحى إسبانيا » ، واستقبل الموت كما يستقبله شهداء الوطن » .

وكان أن طعن ابن جوسمان بخنجر أبيه ، وأطلق الرصاص على لويس موسكاردو .

إن مر السنين لم ينتقص شيئاً من شجاعة الإسبانيين ، فما زالوا يتمسكون بكلمات مثل : المجد ، والشرف ، وحب الوطن ، ولكنهم لا يستطيعون الاتفاق على الطريقة المثلى التى يمكن بها تحويل هذه الكلمات إلى أفعال . .

الفصل الحادى عشر

فوق الهضاب

لا يوجد شعب فى أوروبا شيد لنفسه من القلاع والكنائس والأديرة ما يفوق فى عدده أو روعته ما أقامه الإسبان منها . فان تجد مثل هذه المدن القديمة فى أى بلد آخر . ولقد أصبح بعضها — مثل بلنسيه وبرشلونة — مدناً حديثة بالرغم من احتفاظها بمبان — بل وأحياء كاملة — تذكرنا بالماضى . وهناك مدن أخرى قد توقف نموها منذ قرون خلت وهى تتربع قمم التلال عادة ، وتبدو كما لو كانت سيدات جميلات يحلمن ببهاء ماضيهن .

والهضبة الوسطى على الأخص حافلة بمدنها القديمة التى ظلت فى سباتها العميق الذى كانت عليه منذ قرون ، ولم تستيقظ منذ ذلك الحين ، أو لعلها بدأت توآ فى الاستيقاظ . و « أبله » (Avila) مثال لهذه المدن . فإذا أردت أن تعيش فى قلب القرن السادس عشر فعليك بالذهاب إلى « آبله » بأسطحها المبنية من الطين المحروق التى تندفع إلى سمائها المشرقة على ارتفاع ثلاثة أرباع الميل فوق سطح البحر . وأسوارها الدائرية ببواباتها وبروجها المستديرة التى ما زالت على حالها منذ ثمانمائة عام .

وقد بدأ الفونسو السادس مولى « السيد » (Cid) فى إقامة هذه التحصينات عندما استولى على المدينة من العرب . وحتى الكاتدرائية تكون جزءاً من هذه التحصينات لأن مؤخرتها نصف الدائرية قد شيدت فى السور لتكون بمثابة برج آخر ، وانتشرت فيها الكوى حتى يتمكن رماة السهام وجنود المدافع من إطلاق نيرانهم وقذائفهم على المهاجمين .

وإذا استطعت أن تتحكم فى وقتك ، فاذهب إلى أبله فى شهرى سبتمبر أو مايو ، لأن الصيف يلفح المدينة بقيظه ، كما أن شتاءها قارس البرد . ومع ذلك فإن داخل الكاتدرائية المظلم يحتفظ ببرودة منعشة حتى فى الصيف . وفى الربيع (فى موسم عيد الفصح) تتجمد المياه فى القنوات ، وعندما يحل شهر أكتوبر تأخذ الرياح الباردة فى الهبوب من الجبال على الشوارع الضيقة والميادين الصغيرة . ولكن أبله مكان خلاب ذو طقس بديع فى شهرى مايو وسبتمبر ، عندما تصقل أشعة الشمس جدران الأديرة وتموه شعارات الأسر الحجرية المنصوبة على أبواب المنازل الضخمة المقبضة بلون الذهب . وبعض هذه المنازل عبارة عن هياكل مبان ذات نوافذ أو بوابات نمت حولها النباتات والحشائش . وأبله مليئة بأطياف كثير من العظماء إسبـــانيا . . فقد دفن فيها الأمير « خوان » (Juan) الابن الوحيد لفرديناند وايزابلا . . وكذلك توركيمادا — وهو من أهم شخصيات محاكم التفتيش . ويقابلنا كثير من ذكريات فرديناند وايزابلا وشارل الخامس وفيليب الثانى الذين أمضوا وقتاً طويلا فى المدينة . ولكن

فوق هذا كله تنتمى أبله إلى « سانت تيريزا » (Saint Teresa) ، إن روحها ما زالت مسيطرة على المدينة .

وتصور لنا دقائق حياة سانت تيريزا أفكار الإسبان وسلوكهم فى القرن السادس عشر . ومع ذلك ، فرغم أنها قديسة خاصة بعصرها وبشعبها فإنها فرد كأى فرد من البشر ، وشخصية لا تنسى .

ولدت سانت تيريزا ولم يكن قد انقضى على فتح غرناطة ثلاث وعشرون سنة . وكان مسقط رأسها فى منزل جميل — ولكنه كئيب — بجوار سور المدينة . وشبت تيريزا على قصص استرداد الإسبان لبلادهم من العرب . وعندما بلغت السابعة من عمرها فرت من منزلها فى صحبة أخيها البالغ إحدى عشرة سنة ، وكانا يؤملان أن يصلا بطريقة ما إلى شمال أفريقيا ليقعا فى يد العرب ويلقيا مصير الشهداء . وكانا يعتقدان — بمنطق الأطفال — أن هذا هو السبيل إلى الجنة . ولكنهما لم يقتربا من الجنة عن طريق شمال أفريقيا إلا بقدر المسافة بين منزلهما والطريق الخارج من المدينة ، لأن أحد أعمامهما عثر عليهما وأعادهما إلى منزلها .

وعندما كبرت سن تيريزا لم تبد أى ميل لكى تصبح راهبة ؛ فقد كانت فتاة على جانب من الجمال ، تهوى ارتداء الملابس الأنيقة وقضاء الأوقات المرحة . ولكن التحمس الدينى — الذى تميز به القرن السادس عشر — أقنعها بأنها لا تستطيع تطهير روحها إلا فى الدير . وهكذا التحقت بأحد الأديرة التى يوجد منها عدد كبير فى أبله . وكانت سانت تيريزا شخصية متعددة الجوانب ؛ فقد كانت

تنتابها غيبوبة تشاهد فيها رؤى جميلة ومرعبة ، للقديسين ، والشياطين ولكن إدراكها وفطنتها كانا يجعلانها تخجل من أن يراها أحد وهى فى تلك الغيبوبة ،وقد فقدت وعيها وتصلب جسمها . ومع أنها كثيراً ما وقعت فريسة للمرض والألم الشديدين إلا أنها كانت مبتهجة — بل مرحة — على الدوام ، وكانت تقول : « اللهم أنقذنى من القديسين العابسين » .

وعندما بلغت السابعة والخمسين من عمرها تركت الدير الذى قضت فيه أكثر من ثلاثين عاماً لتنشىء ديراً آخر أكثر صرامة فى تعاليمه ، يفرض على الملتحقين به حياة أكثر تقشفاً وعبادة . ثم لم تلبث بعد ذلك مباشرة أن أخذت فى تأسيس أديرة أخرى مشابهة له ، واستمرت فى ذلك حتى بلغ مجموع ما أنشأته نحو ثلاثين مؤسسة دينية فى جميع أنحاء إسبانيا . وقد كتبت سانت تيريزا تقول : « لقد تولدت عندى كراهية شديدة للأسفار ، وبخاصة الطويل منها » .

ولا غرو ، فقد كانت دائبة الحركة ! ومما تناولته فى كتاباتها البراغيث والعفاريت والطرق الرديئة . فقد كانت هى ورفيقاتها من الراهبات ينتقلن من مكان إلى آخر فى عربة مقفلة على طرق غاية فى الوعورة . وكانت عجلات العربة من الخشب القوى ، ولم يكن للعربة نفسها « يايات » تقلل من ارتجاجها . فكانت العجلات تقعقع فوق الطرق الشديدة الوعورة فى قيظ الصيف الذى يقطر شذى المريمية والخزامى وغيرهما من الشجيرات التى تنمو فى هذه الأراضى الحارة الجافة الجدباء ، وكذلك فى برد الشتاء القارس الذى يخدر الإحساس . وتعرضت سانت تيريزا ورفيقاتها للغرق وهن يخضن

الأنهار المتدفقة المياه ، وكادت عربتهن تهوي من فوق جبل عال ، وكانت الأنزال « الفنادق » التي يأوين إليها من القذارة بحيث كن يفضلن قضاء الليل فى عربتهن . وكم من مرة نفدت منهن مياه الشرب وفسد ما كن يحملن من طعام ! وأحياناً كن لا يجدن فى الطريق شيئاً يشترينه ولو كان ذلك بيضة واحدة .

وتستطيع وأنت فى « آبله » أن تزور أحد الأديرة الذى تتلمذت فيه تيريزا ، وديراً آخر أخذت على نفسها فيه عهد الرهبة ، وثالثاً أسسته ، ورابعاً أقامته فى موقع منزل أسرتها . وما زالت أقوالها والمعجزات التى تنسب إليها وسحر شخصيتها من الموضوعات التى تتحدث بها المدينة إلى اليوم .

ومن مدن الهضبة الوسطى الأخرى التى تعود بنا إلى الماضى مدينة « شقوبية » التى تشبه السحابة الدكناء فوق الأرض المحيطة بها ، أو السفينة الضخمة التى يمثل القصر (أو القلعة) مقدمتها ، وقنطرة المياه الرومانية مؤخرتها . وقد بلغ من دقة بناء هذه القنطرة التى شيدها الإمبراطور « تراچان » أنها ظلت تأتى بالمياه إلى شقوبية طيلة ألف وثمانمائة سنة .

وكثيراً ما كان « ألفونسو الحكيم » — أحد ملوك قشتالة فى القرن الثالث عشر — يقيم فى القصر (Alcazar) ذى البروج — الكبير منها والصغير — يقضى ساعات طويلة فى تدوين «التاريخ العام» (Cronica General) ، وهو مؤلفه الشهير عن تاريخ إسبانيا الذى يبدأ فيه من

بدء الخليقة ويستمر بنا حتى عصر أبيه الملك فرديناند الثالث . أما إذا كنت ممن تستهويهم الكنائس القديمة فلن تجد فى شقوبية كنيسة واحدة يقل عمرها عن ستمائة سنة ، وذلك باستثناء الكاتدرائية التى تعتبر حديثة ، لأنها أنشئت فى القرن السادس عشر .

و « بورجوس » هى مدينة « روى دياز » الذى لقب بـ « السيد » (Cid) ففيها مسقط رأسه ، ونستطيع أن نشاهد المنزل الذى ولد فيه . وقد تزوج « دياز » من « اكسيمينا » فى كاتدرائية بورجوس الجميلة ، وترقد رفاتهما فى أحد أروقتها . ويعرض فى الكاتدرائية ذلك الصندوق الذى أعطاه دياز لاثنين من المرابين فى المدينة كرهن لما كان يحتاج إليه من ذهب عندما أمر الملك بنفيه . وكان دياز قد أخبرهما أن الصندوق ملىء بالذهب والنفائس ، فى حين أنه كان ممتلئاً بالرمال . ولم يصل إلى علمنا هل قام دياز بتسديد ذلك القرض بعد فتوحه وانتصاراته أم لا .

وإسبانيا من البلاد الغنية بكنائسها الجميلة ، وتعد كاتدرائية بورجوس من أعظمها . فأبراجها التى تشق السماء تبدو كصخور مزركشة . أما داخلها فيعجز اللسان عن وصفه بما فيه من برونز وذهب ، وحديد مشبك ، وتماثيل وتحف رائعة من الخشب المحفور .

ومن المدن الأخرى الجميلة مدينة « سلمنقة » (Salamanca) الجامعية . وتراها من الضفة الأخرى لنهر تورميس(Tormes) كرسم جميل وقد بدت أسطحها وأبراجها وجدرانها الذهبية وكأنها زخارف

لثلاثة تلال منخفضة . ولم يبق من « سلمنقة » التاريخيـــة سوى نصفها ، فقد دمرت جيوش نابليون النصف الآخر الذى كان يحتوى على ثلاثة عشر ديراً من أديرتها العشرين ، كما كان يضم عشرين مبنى من مبانى كلياتها التى كان عددها خمسة وعشرين . وما زال عشاق الفن المعمارى يعربون عن حزنهم على ما فقد من مبان . فمع أن ما بقى منها يعتبر رائع الجمال إلا أننا لا نستطيع أن نتخيل ما كانت ستبدو عليه سلمنقة من تحفة لو أنها بقيت على حالها . وقد شيدت مبانى سلمنقة بأحجار كانت رخوة كالجبن عندما أتى بها من المحاجر ، مما أتاح للمثالين أن ينحتوها بسهولة فى تصميمات زخرفية رقيقة ومعقدة فى محاكاة التنافس أو أعمال الحفر على الفضة التى نشاهدها إلى اليوم . وقد بنيت الجامعة نفسها على هذا الطراز الذى يجعلها تبدو كحلى حجرية بما تحتوى عليه من نقوش تمثل لفائف الورق والأوسمة والدروع . وعندما تعرضت تلك الأحجار للهواء اكتسبت صلابة واصفر لونها حتى تحول إلى لونه الذهبى الحالى .

وجامعة سلمنقة هى أقدم جامعة فى إسبانيا ، وتعتبر من أقدم الجامعات الأوروبية . وقد وفد إليها نفر من مشاهير العلماء فى العصور الوسطى ، ولكن محاكم التفتيش سيطرت على جميع نواحى الفكر فيها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وساءت سمعة أساتذتها عندما سخروا من فكرة كولمبس عن كروية الأرض ، لأنهم أصروا على أنه ما دام الإنجيل قد وصف العالم بأنه مسطح فإنه من الكفر الاعتقاد بأنها كروية . وكان من المحتمل أن يستدعى كولمبس

ليحاكم أمام محكمة التفتيش على آرائه الخارجة عن الدين لولا ما كان يحظى به من تعضيد مدرس الأمير « خوان » وثقته .

وعندما كانت الجامعة فى أوج ازدهارها كانت قاعات محاضراتها تزدحم بعشرة آلاف طالب ، يتناقشون تحت ظلال أشجار البلوط والدردار والسرو والسفط ، أو يتجولون فى الأروقة المغطاة التى تحيط بالميدان الرئيسى الرائع . أما اليوم فلا يؤم الجامعة سوى نفر قليل من الطلاب ، معظمهم من شبان الإقليم وفتياته ، كما أن جامعة سلمنقة لا تنظم دراسات صيفية للطلاب الغرباء كما تفعل جامعات بورجوس ومدريد وبلد الوليد وبرشلونة .

وتربى المنطقة المحيطة بسلمنقة بعض ثيران المصارعة الممتازة ، وكثيراً ما كان الميدان الرئيسى يزخر فى الماضى بالكتل البشرية عندما كان يقام حفل مصارعة فى مناسبة هامة . لابد أن منظر الميدان كان خلاباً يستحق أن يتناوله « جويا » بريشته ليصور الحرائر الزاهية والدمقس الذى يرفرف من شرفات المبانى الجميلة التى تحيط بالميدان وقد احتشد فيه عشرون ألف متفرج فى أبهى ملابسهم ، يحيون الثيران الباسلة والمصارعين الشجعان .

أما سحر « طليطلة » فيكون على أشده ليلا ؛ فكلما تأخر وصولك إلى المدينة ، وكلما كان الليل أكثر حلكة ، كان سحرها أعظم تأثيراً . فعندما تتحسس سيارتك طريقها عبر أحد الجسور « الكبارى » يقع نظرك على الأضواء التى تتلألأ منعكسة من مياه نهر « تاجه » السوداء

تحت مستوى بصرك ، وتبدو الصخور التى تلوح أمامك فى أشكال متنوعة . وتصعد بك السيارة منحدراً شديداً تحف به من أحد جانبيه صخور رأسية ، فى حين تبدو المنازل فى الجانب الآخر وكأنها أمواج تبتعد عنك حالة مرورك بجوارها كما لو كنت فى حلم من الأحلام . ويستمر بك الصعود ، ثم تفاجأ بوقوف سيارتك فى ميدان خافت الضوء ، فتدخل الفندق والنوم يغالبك . وفى صباح اليوم التالى تذكرك النظرة الأولى من النافذة بسحر الليل ؛ إذ تشاهد الأسقف البنية اللون متراصة فى غير ما نظام حول الكاتدرائية ، حتى لتعتقد أنها تخفى تحتها جميع أنواع الأسرار .

وإذا كان لديك متسع من الوقت فاقضه فى التجوال فى شوارعها الضيقة التى رصفت بالحجارة ، وتوغل فى شبكات تلك الطرق ، وحاول أن تنفذ بنظرك من خلال مدخل أحد المنازل الكالحة إلى فنائه الداخلى الذى يزدان بالأزهار بشكل يبهر الناظرين . ولربما قادتك قدماك إلى ميدان صغير غير معروف تطل عليه كنيسة صغيرة ، فتسمع ثرثرة النساء وهن يملأن جرارهن من إحدى الآبار . ويمر بك بين الحين والحين فلاح ممتطياً حماره وقد امتلأ خرجه المنسوج بالخضراوات ، أو خشب الوقود ، أو الآنية الفخارية ، أو كمية من العلف .

وربما تصادف فى تجوالك أحد المعبدين اليهوديين القديمين ؛ فمع أنهما تحولا إلى كنائس كاثوليكية منذ نحو ستمائة سنة ، إلا أنهما

يبدوان وكأنهما مسكونان بأشباح اليهود . وتسمى إحدى الكنيستين « سانتا ماريا لا بلانكا » (Santa Maria La Blanca) ، والأخرى « الترانسيتو » (El Transito) . وتتكون الكنيسة الأخيرة من قاعة ضخمة بلا أروقة جانبية ، نوافذها من المصيص المخرم . وبها لوحات عليها كتابات بحروف عبرية . أما كنيسة سانتا ماريا ففيها أعمدة طليت باللون الأبيض ، وعقود على شكل « حدوة » الفرس ، ونقوش عربية على الجدران ، ونستطيع أن نتخيل صمويل ليڤى الذى شيد « الترانسيتو » بلحيته الحمراء وردائه الطويل وقد بدا كأحد المنجمين . كما نستطيع بخيالنا أن نتصور الأروقة وقد امتلأت بالنساء اليهوديات بملابسهن وأغطية رؤوسهن الغريبة ، وهى من طراز لم يعد يشاهد فى إسبانيا منذ أربعة قرون أو أكثر ، وإن كانت آثاره ما زالت منتشرة فى زى اليهود الإسبانيين الذين يسمون « سفارديم » (Sephardim) .

وعليك بالطبع أن تزور كاتدرائية طليطلة ، التى تعتبر أغنى كاتدرائيات إسبانيا ومن أعظمها جاذبية . فهى تحتوى على ثروة من الرسوم والنقوش ، وبها أضرحة فخمة ، وأوعية للطقوس من الذهب والفضة . أما ملابس قسسها فقد طرزت بالذهب والفضة ورصعت بالجواهر ، وقد صنع بعضها من ملابس ملوك راحلين . وإذا حضرت مصادفة أحد الطقوس الدينية فإنك لن تنسى مشهد رجال الكنيسة فى موكبهم المتئد ، وهم مرتدون ثيابهم الجميلة ، يشقون طريقهم على أنغام الأرغن فى الأروقة ذات الأضواء الخافتة فى ذلك

المبنى الضخم ، مارين فى سيرهم أمام المعابد الجانبية القابعة خلف حواجز حديدية .

وعليك أيضاً بزيارة منزل « الجريكو » بحجراته البسيطة العارية وحديقته التى تشغل جزءاً من سطح تل يطل على الجزء المنخفض من طليطلة . وعندما تقف أمام المنزل وترمى ببصرك فوق أسطح المنازل إلى النهر ، فإنك ستقارن بين لون المدينة البنى وبين لوحته التى رسم فيها المنظر بلون أخضر لا ينسى ، وهى اللوحة الموجودة حالياً بمتحف « متروبوليتان » . وقد تبدو لوحات « الجريكو » غريبة ، كأنها لعالم غير عالمنا ، ولكنه كان يعيش عيشة عادية فى منزله ويستقبل عظماء الرجال فى عصره . فكثيراً ما استضاف « لوبى دى فيجا » ، كما يروى أن « سرفانتس » كان يزوره أيضاً عندما كان يأتى إلى طليطلة ويقيم فى آحد فنادقها المتواضعة المسمى « فندق الدم » (Posada de la sangre) . وقد دمر هذا الفندق فى الحرب الأهلية الأخيرة ، بعد أن بقى دون تغيير يذكر من أيام سرفانتس . ونستطيع أن نتصور سرفانتس وقد وقف فى شرفة الطابق الثانى التى تحيط بفناء الفندق يراقب وفود النزلاء الذين تبدو عليهم الخشونة والفظاظة : من راكبى البغال الذين يفكون زمام حيواناتهم ، إلى الجندى الذى يترجل من على ظهر جواده ، إلى التجار الذين تعبر وجوههم عن الاغتباط والامتنان لوصولهم هم وبضائعهم إلى المدينة سالمين دون أن يقعوا فريسة لقطاع الطرق .

وقد تقرر إعادة بناء « فندق الدم » إلى ما كان عليه فى الماضى ؛ ولكن لعلك تذكر أن « الكازار » أو القصر — وهو ضحية طليطلة الأخرى فى تلك الحرب سيترك على حاله : هيكلا محطماً كذكرى من ذكريات الحرب .

الفصل الثاني عشر

مدريد

لا تعتبر مدريد مدينة قديمة إذا قيس عمرها بأعمار المدن القديمة فى إسبانيا . فقد كانت حتى القرن السادس عشر قرية قليلة الشأن ، ثم أدرك فيليب الثانى أهمية موقعها المتوسط فى شبه الجزيرة فاختارها لتكون عاصمة البلاد . ولكن فيليب كان يركز اهتمامه على بناء قصر الاسكوريال الذى يبعد ثلاثين ميلا عن المدينة ، فلم يقم بعمل يذكر لتحسين مدريد ، كما أن من خلفوه من أسرة هابسبورج لم يقيموا بها وقتاً طويلا . ويرجع الفضل — فيما أدخل على المدينة من تحسينات كبيرة وما شيد بها من مبان ضخمة — إلى ملوك أسرة البوربون فى القرن الثامن عشر ، الذين بدءوا بالملك فيليب الخامس ، فهو الذى شيد القصر الملكى العظيم المربع الشكل الذى يسترعى النظر بشموخه على نهر « مانتانارس » (Manzanares) . ورغم ذلك فقد كان الجزء الأكبر من مدريد — حتى قرن مضى — متاهة من الشوارع الضيقة والمبانى الحقيرة ذات الأفنية المعتمة — وما زال هذا حال الأحياء القديمة القذرة من المدينة . ومن مائة سنة مضت كان كل صحفى فى مدريد يتناول بالفكاهة والتهكم ما كان يشاهد فى كل مكان تقريباً من قذارة وإهمال .

أما مدريد الحالية — وقد تجاوز عدد سكانها مليوناً ونصف مليون — فقد أصبحت أكبر مدينة فى إسبانيا ؛ إذ تضاعف حجمها أكثر من ثلاث مرات فى الثلاثين السنة الأخيرة . إنها الآن مدينة حية ، لها طابعها الخاص ، نظيفة ، معتنى بها ، كما أنها مدينة عصرية ، بها خطوط حديدية تحت الأرض (وهى شديدة الازدحام) وفنادق فاخرة ، ومبان حكومية ضخمة ، وكنائس ، وعمارات سكنية ، ومساكن خاصة . ومن الصعب على المرء أن يتخيل فى الوقت الحاضر ما كانت تبدو عليه مدريد فى شهر مارس من عام ١٩٣٩ عندما استسلمت قوات الحكومة لجيوش الجنرال فرانكو بعد أن صمدت فى مقاومتها منذ شهر نوفمبر من عام ١٩٣٦ . كان الدمار عاماً وشاملا ؛ فقد انفجرت القنابل على طول شوارعها الفسيحة التى تظللها الأشجار — فى الشارع الكبير (Gran Via) الذى يضم أرقى المحلات التجارية ، وفى الميدان البيضاوى الشكل المسمى Puerta Del Sol أو « بوابة الشمس » الذى كان مركز المواصلات فى المدينة . وكم من ميدان كان مليئاً بالزهر تحول إلى أنقاض . كما أن جامعة مدريد والموقع الذى تشغله — وهى الآن تحفة من المبانى الجميلة — كانت قد تحولت إلى خرائب لاتخاذها خط دفاع أمامياً فى أثناء الحرب . وعلى أى حال ، لم يقتصر الأمر على إعادة بناء الجامعة ، بل إن يد الإصلاح قد شملت جميع ما تعرضت له المدينة من تلف .

وتزدحم سماء مدريد حالياً بالمبانى الجميلة ، التى يرتفع بعضها

إلى خمسة وعشرين طابقاً ، مما يجعلها فى عداد ناطحات السحاب بالمقاييس الأوروبية . وقد اتسعت رقعة الأحياء السكنية فوق الأراضى الصفراء التى تحيط بالمدينة ، وقد روعى فى كثير منها أن تكون زهيدة الإيجار لتناسب الجموع الحاشدة من الوافدين من القرى والمزارع الذين تزدحم بهم مدريد حاليـــاً . ولم تتمكن عمليات البناء من السير بالسرعة التى تستطيع بها أن تستوعب زيادة عدد السكان ، مما جعل الكثيرين منهم يكتظون فى الأحياء القديمة المتهدمة وغير الصحية من المدينة ، أو يتجمعون فى أحياء قذرة فى أطرافها .

أما مدريد التى يعهدها السائح العادى فتختلف كل الاختلاف عن أحياء المدينة الفقيرة التى تبعث على الأسى ، فهى مليئة بالحيوية والجاذبية . فمجموعة الأعمال الفنية التى يضمها متحف برادو (Prado) تكاد تكون فى مستوى كنوز متحف اللوفر فى باريس ، ومتنزه « رتيرو » (Retiro Park) بقعة خلابة تستطيع أن تتجول فيها على قدميك أو بسيارتك ، وفيها المساحات التى تغطيها الحشائس الخضراء ، والممرات التى تظللها الأشجار ، والطرق التى تسير عليها الخيل ، والنافورات والبحيرات الصناعية والمطاعم المكشوفة فى الحدائق حيث تستطيع أن تتناول طعامك وترقص فى الهواء الطلق عندما يكون الجو جميلا . وفى خلال حصار مدريد كاد السكان يتجمدون من البرد ، ومع ذلك فقد منعهم اعتزازهم بأشجارهم — سواء تلك التى فى المتنزهات أو التى على جوانب الطرق — أن يقطعوا شيئاً منها لاستخدام أخشابها للتدفئة . ومع ذلك فإنه يقال إنهم أكلوا بعض

حيوانات حديقة « رتيرو » . إنها مجرد إشاعة ، وعلى أى حال فإن بالحديقة عدداً جماً من الحيوانات فى الوقت الحاضر .

والقصر الملكى من الأماكن التى تستحق الزيارة ؛ فهو يحتوى على طنافس لا تقدر بثمن ، وعلى سلم ضخم استرعى انتباه نابليون نفسه ، كما أن بالقصر عدداً من القاعات الرسمية مثل قاعة العرش ذات الأضواء التى تنكسر من خـــلال ثريات بلورية ، وقاعة « جاسبارينى » (Gasparini Room) التى يكسوها حرير أزرق وتتدلى من سقفها فواكه وزهور صنعت من الخزف ، ويحرس كل ركن من أركانها تمثال ذو حجم طبيعى تقريباً لنبيل صينى ، ثم غرفة الطنافس التى تتألق بالستائر التى صمم جويا رسوم الكثير منها . وفى هذه الغرفة الأخيرة يلفت الدليل نظرك إلى فجوة فى السقف أحدثتها قنبلة فى أيام الحرب الأهلية ، وربما تطرق بعد ذلك ليخبرك كيف دمرت جيوش نابليون المصنع الذي كان يتم فيه صنع الخزف الذى تتحلى به قاعة « جاسبارينى » .

أما معروضات الأسلحة الملكية فإنها تشبه مجموعة من الصور التى توضح كتاباً عن تاريخ إسبانيا . فهنا تجد التيجان الذهبية المرصعة بالجواهر التى كان ملوك القوط الغربيون يضعونها فوق رؤوسهم ، والسيف الذى كان « بلاى » يلوح به فى معركة « كوفادونجا » ، ومفاتيح مدينة غرناطة التى تسلمها فرديناند وايزابلا من آخر ملوك العرب ، والعلم الذى أتى به دون جوان النمسوى من معركة ليبانتو .

وتشاهد فى المعرض أيضاً تماثيل لكبار محاربى إسبانيا ، وقد تزينت بالريش ، مرتدية الخوذات والقفازات والدروع ، ومتمشقة الأسلحة التى كان يستعملها هؤلاء المحاربون . وتنتظم المعروضات عدداً كبيراً من أطقم الدروع التى كان يرتديها شارل الخامس ، وبعضها مطعم بالذهب ومحلى بنقوش عويصة التصميم . ويقع نظرك أيضاً على رداء مدرع يخص « بلتاسار كارلوس » — وهو الشاب الذى لعلك تذكره فى لوحات « بيلاثكث » أو على الدروع التى كان يرتديها دون جوان النمسوى . وفى مكان آخر تجد أسلحة « جوان دى باديلا » (Juan De Padilla) ، قائد حامية طليطلة الذى أعدمه شارل الخامس للدور الذى قام به فى الثورة ضد الحكم « الأجنبى » .

أما فيما يتعلق بمناخ مدريد ، فإن أكثر المواطنين ولاء لمدينته لا يدعى أنها ذات مناخ جيد ، وإن كان قد يصر على أن ارتفاعها وجفاف هوائها يجعلان مناخها صحياً . فمدريد تقع على ارتفاع ألفى قدم على الهضبة ، وهى بذلك أعلى عواصم أوروبا . وتتعرض المدينة للحرارة الشديدة والبرد القارس . ولتغيرات مفاجئة فى درجة الحرارة ، ولرياح قاسية نفاذة تهب عليها من جبال « وادى الرامة » (Guadarrama) الواقعة إلى الشمال منها . وتنتقل الحكومة فى الصيف إلى مدينة سان سباستيان على الساحل الشمالى ، كما تنتقل إليها السفارات الأجنبية . ومن المفروض أن يترك علية القوم مدريد فى هذا الفصل أيضاً ، أما أولئك الذين تضطرهم أحوالهم إلى البقاء فى المدينة فيقال

عنهم إنهم يتجنبون ارتياد الأماكن التى كانوا يرتادونها حتى لايعايرهم أحد بوجودهم فى المدينة فى الفصل الحار .

ويتحمل المواطن العادى من أهل مدريد حرارة الجو أو برودته بما عرف عن الإسبانيين من عدم الاكتراث بالأحوال الجوية ؛ فقليل جداً من المنازل الخاصة أو العمارات السكنية — فيما عدا أحدثها وأعلاها إيجاراً — ما يتمتع بالقدر من التدفئة الذى يعتبر كافياً فى الشتاء فى الولايات المتحدة . وبينما تتجمد البحيرات فى متنزه الرتيرو بحيث تصلح لممارسة رياضة الانزلاق على سطحها ، فإن الغرفة التى تدخلها الشمس تعتبر على درجة كافية من الدفء فى أشد أحوال البرودة . فإذا ما كان هناك موقد فحم خشبى أو مدفأة كهربية صغيرة تتوهج قرب قدميك ، فإن ذلك أقصى ما تستطيع أن تنتظره من وسائل الراحة فى أمسية من أمسيات الشتاء .

وكما يبدو عدم اكتراث أهـــل مدريد بالحرارة أو البرودة ، فإن التمييز بين الليل والنهار قليل الدلالة بالنسبة إليهم . فمعظمهم لاينام سوى ساعات قليلة فى الليل ، إلا أن النعاس يغالبهم فى فترة القيلولة الطويلة بعد الظهر ، حين تغلق جميع الحوانيت والمكاتب . وفى نحو الساعة الرابعة والنصف أو الخامسة بعد الظهر تصحو المدينة من جديد وتفتح المحلات أبوابها ، ويدب النشاط والحيوية فى المدينة لعدة ساعات أخرى .

ويبدأ وقت التسلية فى مدريد فى نحو الساعة السادسة أو السادسة

والنصف بعد الظهر ، فتستطيع أن تستأجر عربة تنقلك إلى حديقة الرتيرو بهوائها البارد المنعش ، حيث تشاهد أناساً فى ملابسهم الأنيقة يفعلون مثل ما تفعل ، أو قد تقرر الذهاب إلى السينما حيث تبدأ الحفلة النهارية فى الساعة السادسة والنصف . وعندما ينتهى العرض وتخرج إلى الشوارع التى تدب فيها الحياة فى نحو الساعة التاسعة ، ستجد أن الوقت ما زال مبكراً على العشاء ، فلا يفكر سوى الأجنبى أن يأكل فى مثل هذه الساعة . فانتظر حتى الساعة العاشرة ، إلا إذا كنت معتزماً دخول مسرح ليلى — وهو يبدأ فى الحادية عشرة . وتمهل فى تناول طعامك ، حتى إذا انتصف الليل تجول فى شوارع وسط المدينة المتلألئة الأنوار ، فهى تنبض بالموسيقى والضحاك والحديث . سترى الأرصفة ولا موضع لقدم عليها من ازدحام الأهالى ، الذين يصطحب بعضهم أطفـالا يتعلقون بأيديهم ، وسيصادفك بائعو المشروبات المرطبة ، وبعض الصبية وعجائز النساء الذين يبيعون أوراق اليانصيب . كل ورقة بعدد قليل من البيسيتات (pesetas) ، وهم يذكرونك بالثراء الذى سيهبط عليك عندما تربح الجائزة الأولى . وتبلغ قيمة الجائزة الأولى فى يانصيب عيـد الميلاد ٢٠ مليون بيسيتا — أى نحو نصف مليون دولار . ولن تنجو من الشحاذين من جميع الأعمار والعاهات الذين يستدرون إحسانك .

وتعقد المقابلات المسائية فى المقاهى التى تشغل الأرصفة أو المقاهى الداخلية ، وتبلغ أقصى درجات حيويتها . فتجلس جماعات من الأهالى حول الموائد ، يضم بعضها جمعاً عائلياً ، ولكن الأغلبية تتكون

من مجموعات من الرجال الذين يتحدثون ويتجادلون ويلوحون بأيديهم . وتزداد كثافة الدخان فى داخل المقهى بمرور الوقت حتى يدور رأسك وأنت لا تدرى إذا كان ذلك راجعاً إلى سحب الدخان ورائحته القوية أم إلى سهرك إلى ساعة متأخرة . وإذا استطعت أن ترى ما حولك من خلال هذا الضباب، فستلاحظ أن السيدات قد اختفين ، وأن المكان قد أصبح عالماً خاصاً بالرجال . وأخيراً تنفض هذه الجماعات وينتشر أفرادها فى الشوارع التى ما زال المرح يملؤها بما فيها من الجماعات التى أخذت فى الخروج من المسارح والنوادى الليلية . وعندما تعود إلى فندقك ستجد أن الساعة قد بلغت الثانية والنصف أو ما يقاربها . أما إذا كنت مقيماً فى إحدى العمارات السكنية أو نزيلا فى « بنسيون » ، فعليك أن تصفق بشدة ثم تنتظر وأنت تتثاءب أمام مدخل المبنى الذى تقيم فيه حتى يلبى الحارس الليلى (sereno) تصفيقك ويأتى متثاقلا وبيده المفتاح الذى يفتح لك به الباب الخارجى . وعندما يتمنى لك الحارس ليلة سعيدة (رغم أن الوقت فى الصباح) سيهديك تفكيرك إلى أن الشوارع والمقاهى هى غرف الاستقبال الحقيقية بالنسبة إلى أية مدينة إسبانية كبيرة ، وستدرك أن معارفك من الإسبان الذين يدعونك دائماً إلى مطعم أو مقهى أو مسرح ، ولا يستقبلونك أبداً فى منازلهم : إنما يحتفون بك فى الأماكن التى يجدون فيها أكبر متعة لأنفسهم .

وفى صباح اليوم التالى تتناول إفطارك المكون من القهوة باللبن الساخن (أو الكاكاو أو الشاى) مع خبز مقدد أو كرات

من الخبز الطازج ذات القشرة الناضجة ، وقد تفكر بعد انتهائك من تناوله أنك لا ترغب فى عمل أكثر عناء من جولة شرائية . وكثيراً ما وصفت مدريد بأنها جنة المشترى ، فالإسبانيون من أمهر الصناع ، وسرعان ما تجعلك السلع التى تبيعها المحلات التجارية فى مدريد خاوى الوفاض : فهناك القفازات وحقائب اليد التى تنسيك باريس ، والتيل المطرز الذى لا يقل جمالا عما تشتريه فى فرنسا أو إيطاليا ، والأوانى الخزفية الرائعة . وهناك طبعا ، فضلا عما تقدم ، المراوح والأمشاط العريضة والأخمرة المصنوعة من « الدنتيل »،الطويل منها . والقطع الصغيرة الدائرية التى تحملها الفتاة الإسبانية فى حقيبتها لتضعها فوق شعرها عندما تذهب إلى القداس ، أو عندما تسرع إلى داخل الكنيسة لتشعل شمعة وتتضرع إلى الله .

ولا ينبغى أن تفوتك زيارة سوق مدريد الشهيرة المعروفة باسم « راسترو » (Rastro) وهى سوق هائلة تقع خلف بوابة الشمس ، حيث تجد البضائع وقد نشرت على « الأرصفة » أو صففت فى رفوف فى حوانيت صغيرة . وتشمل السلع المعروضة شيئاً من كل شىء ، ما بين سقط المتاع وثمين الكنوز : كالمدافىء النحاسية ، وفضلات من الحرير القديم ، وفناجين دون أطباقها ، وأطباق دون فناجينها ، وأصص « زهريات » رقيقة من زجاج البندقية ، ومنسوجات مطرزة باليد — قد تبدو متسخة قليلا ، ولكنها رائعة فى جمالها . أما الحوانيت التى على طول الطريق فإنها تعرض سلعاً أكثر ترتيباً وتنسيقاً ، وقد تعثر فى إحداها على كتاب بعينه نفدت طبعته وكنت

تبحث عنه ، أو قد تجد « طقم » شاى كاملا من صنع درسدن ، أو لوحة فنية .

وبعد جولتك فى الراسترو ، حيث كنت تدفع الناس بمرفقك فى الزحام ويدفعونك ، سيحل بك التعب إلى الحد الذى يجعلك ترغب فى الجلوس فى أحد المقاهى المكشوفة ، حيث تطلب قهوة أو عصير ليمون ، أو أحد المثلجات ، ثم تستند إلى ظهر مقعدك لتشاهد ما يبعث على الضحك والأسى فى الحياة اليومية مما يمثله المارة أمامك أو يخيلونه إليك ، ويبدو بعضهم وكأنهم شخصيات فى حاجة ماسة إلى موضوع قصة يربطهم بعضهم ببعض ؛ فالجنود الذين ينتمون إلى حرس الجنرال فرانكو من المغاربة — فى برانسهم وعماماتهم البيض ، ورجال الحرس الوطنى بقبعاتهم المثلثة من الجلد اللامع ، وضباط الجيش الإسبانى البدينون الذين تحيط بهم أحزمتهم الزرقاء أو الحمراء الزاهية فوق ملابسهم الرملية « الكاكية » ، كل هؤلاء يمكن أن نتخيلهم كجوقة غنائية فى إحدى الأوبرات . ومن وقت إلى آخر تمر من أمامك إحدى المربيات وقد ارتدت الزى الجميل للإقليم الذى تنتمى إليه ، وهى تقطر خلفها عدداً من الأطفال ذوى الوجوه المشرقة . ومما سيلفت نظرك أن الفتيات والنساء اللائى تشاهدهن يتميزن بالجاذبية والرشاقة وحسن الهندام ، ولو أنهن قد لا يكن دائماً على شىء من الجمال ، أو حتى الوسامة . فمهما تكن المرأة الإسبانية فقيرة ، ومهما يكن منزلها مكتظاً وعارياً من الأثاث

فإنها تعتز وتهتم بمظهرها إلى الدرجة التى تجعلها تنفق آخر « بيسيتا » معها لتشترى شيئاً جميلا ترتديه .

ولربما مرت أمامك جنازة فتشاهد عربة الموتى (وتكون سوداء للبالغ وبيضاء للطفل) تجرها خيول زينت بالريش ، وكلما كان المتوفى عالى المقام ، زاد عدد الخيل وعدد الريش . ويبدو الموت فى إسبانيا كنوع من الاحتفالات الكئيبة ، وتضحى أسرة الميت بأية تضحية لتجعل الجنازة رهيبة إلى أقصى حد مستطاع . أما المقابر الإسبانية فهى كالغابات التى تكتظ بالشواهد والتماثيل .

وإذا اتخذت مدريد مركزاً لك ، فإنك تستطيع القيام برحلات قصيرة جذابة فى المناطق المجاورة لها عبر سهول قشتالة ذات التربة الصفراء العارية عن الأشجار . فعلى بعد واحد وثلاثين ميلا إلى الشمال الغربى يشمخ قصر الاسكوريال على السفوح المنخفضة لجبال وادى الرامة التى تكسو قممها الثلوج . وعلى نفس المسافة تقريباً إلى الشمال الشرقى تقع قلعة « أنارس » (Alcala De Henares) التى كانت جامعتها تنافس جامعة سلمنقة فى أيام مجدها . وفى عام ١٨٣٦ انتقلت الجامعة بطلابها من قلعة « أنارس » إلى العاصمة ، وعرفت منذ ذلك الوقت بجامعة مدريد . وترتفع مبانى الجامعة الجميلة البالية فى المدينة القديمة بكل الوقار الذى يؤهلها له ماضيها العظيم . وإذا عبرت أحد أفنية هذه المبانى المرصوفة بالأحجار الكروية الصغيرة ، فقد تتناول غداءك فى غرفة تبدو كما كانت على مر القرون عندما كان الأساتذة

يتناولون الطعام مع خيرة طلابهم حول مدفأة ضخمة مرتفعة . وبعد الانتهاء من غدائك سوف تزور المنزل الذى ولد فيه سرفانتس . ومن الأماكن التى تستحق الزيارة أيضاً قصر « الباردو » (El Pardo) الذى لا يبعد عن مدريد بأكثر من تسعة أميال ، وتحيط به أشجار بلوط قزمية فى أرض متموجة السطح كانت فيما مضى حديقة صيد ملكية . وقد دمرت مدينة « الباردو » فى أثناء الحرب الأهلية ، ولكن أعيد بناؤها بشكل جذاب . وبها الآن مسجد يقيم فيه جنود الجنرال فرانكو من المغاربة صلواتهم .

وفى خلال قيامك بهذه الرحلات عبر أراضى قشتالة الفقيرة القاسية المتربة ، حيث تلوح بين الحين والآخر قلعة أو مدينة جبلية وكأنها حفرت فى الأفق كالسراب ، ستنطبع فى ذهنك صورة لعظمة هذا الإقليم الرتيبة ، وستتأمل فى مدى مطابقة طبائع أهل قشتالة لصفات إقليمهم . فالقشتالى — كالأرض التى يعيش عليها — نحيل وجاد وعنيد ، فلا هو فى سماحة جيرانه الذين يقطنون المقاطعات الجنوبية ، ولا هو فى تدفق وانطلاق مواطنيه فى الشمال والشرق . ولكنه — كأرضه — يسمو بخياله وطموحه ، ولن تجد قوماً فى شبه الجزيرة كلها شيدوا قلاعاً تدانى روعة القلاع التى أقامها القشتاليون فى إسبانيا .

الفصل الثالث عشر

الأندلس

لا يوجد سوى عدد قليل من الممرات الجبلية التي تخترق سييرا مورينا (Sierra Morena)– أي الجبال – مؤدية من قشتالة في الشمال إلى الأندلس في الجنوب ، كما لو كانت الطبيعة تحاول أن تحمي هذا الجزء البديع من إسبانيا من الهواء الشمالي العنيف القارس البرد . فاذا ما انتقلت من قشتالة إلى الأندلس مخترقاً الحوانق الصخرية والتلال التي تعطرها روائح الأزهار في تلك الجبال ، فانك ستجد في الأندلس ما يعتبره معظم الناس الطابع الإسباني الحقيقي . وسوف تجد عندئذ أن هناك رغبة قوية تدفعك لكي تكون رساماً أو شاعراً أو راقصاً حتى تستطيع أن تعبر عن شعورك نحو هذا الإقليم الساحر الذي يعني الشيء الكثير بالنسبة إليك .

وطبيعة الأندلس متباينة ، فهي تشمل الطرق المتربة التي تس متعرجة بين صفوف من أشجار الكافور وأحراش النباتات الشو والمدن الناصعة البياض في إطار من الحشائش التي لفحتها الح وأضفت عليها ألواناً بنية تتدرج إلى الرمادية فالخضراء ، ومز الزيتون التي تعكس أوراقها لوناً فضياً في ضوء الشمس ، وبساتين البرتقال التي ينبعث منها شذي جميل يفوق الوصف في الجو الحار :

والتلال العارية أو الجبال التى تكسو الثلوج قممها وقد شمخت بخطوطها الواضحة فى السماء الباهرة الضياء .

وترى فى الأندلس أبراج المدن العربية القديمة بارزة فوق التلال البعيدة ، وتقابلك قوافل الحمير التى تسد الطرق بسيرها الوئيد وقد انبعجت أخراجها بما تحمل من أخشاب وتبن وفواكه .

والأندلس إقليم الضياع الكبيرة التى يقوم بالعمل فيها أناس فى فقر مدقع ، كما تجد به الأطفال النحفاء الذين يركضون خلفك فى شارع القرية يستجدونك بعض الدريهمات ، والنساء الرشيقات اللائى يرتدين فى أيام الآحاد والأعياد حجاباً من الدنتيل الأسود ، يتدلى من مشط مرتفع مثبت فى رؤوسهن . إنها بلاد الأسواق ، والمهرجانات ، والحج ، والغجر ، وثيران المصارعة القوية الجذابة .

وفى الأندلس يلقى الرجل بعبارات المديح على مسامع أية فتاة تثير إعجابه فى الطريق دون أن يقصد خدش حيائها . أما صغار الفتيات المخدرات « المعتنى بتربيتهن » فإنهن لا يغادرن منازلهن إلا فى صحبة مرافق ، وحتى المرأة الأمريكية يقل إحساسها بأنها لافتة للأنظار إذا لم تكن سائرة بمفردها .

ولكل مدينة فى الأندلس سحرها الخاص بها . فتقدم لك قرطبة المسجد والجسور (الكباري) التى بناها العرب ، والشوارع الضيقة فى الحى القديم من المدينة . وتتميز كل من مالقة وقادس بهوائها العليل ومواقعها الرائعة على البحر ، فتقع مالقة على البحر المتوسط ،

فى حين تمتد شوارع قادس بمنازلها البيضاء كالأصابع الطويلة الناصعة فى مياه المحيط الزرقاء .

أما مدينة رنده ، فلم تقع عيناك على شىء مثلها وهى قابعة فوق التلال الصخرية المرتفعة ويشطرها من وسطها خانق نهر « حوادالبين » (Guadalevin) وهو خانق عريض رهيب ذو صخور فى احمرار الصدأ . وتعبر النهر فى رنده ثلاثة جسور « كبارى » ، أقام الرومان أقدمها وأخفضها مستوى ، وشيد العرب الثانى منها ، أما الثالث أو « الجسر الحديث » فلا يزيد عمره كثيراً على مائة وخمسين سنة . وتطل المنازل البيضاء التى تعلو جوانب الهوة السحيقة التى تشطر المدينة على منظر يدير رأس مشاهده ، ينتهى بالنهر الذى يندفع فى مجراه العميق . ويتكون الجزء القديم من المدينة من شبكة من الطرقات الرديئة الشديدة الانحدار ، حيث يلقى المرء جموعاً من الأطفال الذين يستجدون النقود ، فى حين تذكرك نظرات الريبة التى تعلو الوجوه السمراء للرجال والنساء أن رنده ظلت عدة قرون وكراً للمهربين . وهناك منازل جميلة فى بعض تلك الشوارع القديمة الفقيرة ، لها حدائق غناء تقع خلفها وتمتد فى جزء من سفح التل المنحدر إلى الوادى . ولعل حلبة مصارعة الثيران فى رنده هى أجمل حلبة فى إسبانيا بما فيها من شرفات حديدية ومقاعد خشبية مغطاة . وقد تقص عليك العجوز المبتسمة التى ترشدك كيف أن القواعد التى تتبعها هذه الرياضة حتى يومنا هذا هى من وضع بدرو روميرو (Pedro Romero) أحد أبناء رنده الذى ذاع صيته فى مصارعة الثيران من نحو مائة وخمسين سنة

مضت ، وكان بدرو معاصراً للفنان جويا الذي يعتقد أنه كانت له يد في تصميم الزى البراق الذى ما زال مصارعو الثيران يرتدونه حتى اليوم .

ولا شك أنك تعرف شيئاً عن غرناطة وقصر الحمراء — أو القلعة الحمراء (Alhambra) — الذى شيده المسلمون فى موقع رائع الجمال ، تطل من علياء تل على نهر دارو (Darro) ، وتلوح من بعد جبال سييرا نفادا وقممها التى تغطيها الثلوج عبر الأراضى الخصبة نحو الجنوب . وبالرغم من أن شارل الخامس هدم جزءاً من قصر الحمراء ليفسح مكاناً للقصر الذى شيده على نفس البقعة ، فإن معظم الجدران السميكة ما زالت قائمة ، كما بقى كثير من الأفنية الجميلة ، فضلا عن الغرف ذات الأقباء الرقيقة والجدران المكسوة بالآجر الخزفى ، والشرفات المرتفعة ذات المناظر الخلابة . وكان للملوك المسلمين قصر يقع على مرتفع آخر فى غرناطة — هو قصر «جنراليف» (Generalife) يتخذون منه مقراً صيفياً ، وما زالت حدائقه ومناظره تبعث البهجة فى النفوس .

ولابد أن فرديناند وايزابلا كانا يعلقان أهمية كبيرة على هذه المدينة التى آلت إليهما بعد انتصارهما على المسلمين ، لأنهما أوصيا بأن يدفنا فى الجناح الملكى من كاتدرائيتها ، أما خلفاؤهما من ملوك الهابسبرج فكان إعجابهم كبيراً بقصر الحمراء ، ورغم أنهم كانوا دائماً فى حاجة إلى المال فإنهم دبروا منه ما يكفى لصيانة القصر . أما ملوك البوربون فقد أهملوا قصر الحمراء حتى أصبحت مبانيه شبه أطلال يأوى إليها المهربون واللصوص والمشبوهون . وقد استخدمه

نابليون لإيواء جنوده لأنه كان قلعة حصينة ، ولكن الفرنسيين نسفوا عدداً كبيراً من أبراجه عندما غادروا المدينة .

كان قصر الحمراء فى حالة يرثى لها فى عام ١٨٢٩ . ثم حدث أن شاباً أمريكياً — هو واشنطون إرفنج (Washington Irving) — أغرم بجماله الشاعرى ، فأقام فى جناح منه وكتب فى وصفه مجموعة من القصص التى نشرت بعنوان « قصص الحمراء »[١] (Tales of the Alhambra) وقد استولى ذلك الكتاب على مشاعر السياح من الأمريكان والإنجليز حتى أخذوا يتدفقون على غرناطة ، كما أنه نبه الإسبانيين إلى أنهم ما لم يتعهدوا هذا القصر بعنايتهم فسوف يرونه وقد تهدم أمام أعينهم . ويعترف الإسبانيون اليوم بأن إرفنج كان له الفضل الأكبر فى إنقاذ هذا الكنز لهم . ولقد أصبحت غرناطة مدينة حديثة غنية بفضل ما يؤمها من سياح . ويبلغ الزحام فى ساحات قصر الحمراء وحدائق قصر جنراليف حداً يجعلك تدير ببصرك إلى أعلى نحو الجبال المرتفعة ، أو إلى أسفل نحو الغابات التى يشرف عليها قصر الحمراء إذا أردت أن تلمس ما يثيره هذا الجمال حقاً من أحاسيس شاعرية .

أما أشبيلية فرغم أنها حاضرة الأندلس وإحدى المدن الإسبانية الكبرى فإنها ما زالت تبدو كمدينة انتزعت من كتاب يضم صوراً فنية . فهى تقع فى وادى نهر « الوادى الكبير » (Guadalquivir) ،

(١) قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنشره بالاشتراك مع دار المعارف ، وطبع طبعتين الأولى فى سنة ١٩٥٥ والثانية فى سنة ١٩٥٨ .

على شاطئ النهر المنبسط ، وكانت أشبيلية فى يوم من الأيام الميناء الذى تمر به جميع التجارة مع جزر الهند الغربية ، وكانت تستقبل السفن الفرنسية والإيطالية والبرتغالية التى تشق طريقها إليها من مصب النهر لكى ترسو فى مينائها . أما الآن فيقتصر نشاطها الملاحى الرئيسى على الخط بين إسبانيا وجزر كنارى .

وتشتهر أشبيلية بصحون منازلها التى هى بمثابة غرف جلوس جذابة فى الهواء الطلق بالنسبة إلى سكان تلك المنازل . ويقع نظرك على هذه الصحون الجميلة من خلال البوابات الحديدية الشبكية المطلة على جانبى الشارع . وقد يكون أحدها مرصوفاً برخام وردى اللون ، وجدرانه مكسوة بقيشانى ذى زرقة عميقة ، وفى وسطه نافورة تحيط بها قدور ثقيلة قد أزهر فيها الورد والياسمين . وفى أشبيلية كثير من الشوارع الضيقة التى إذا مرت منها سيارة اضطررت أن تلتصق بجدار أقرب منزل إليك كى تدعها تمر . بل إن أحد الشوارع الرئيسية فى المدينة المسمى « شارع الثعابين » (Calle Sierpes) لا يسمح بمرور العربات فيه لضيقه . وفى هذا الشارع يلتقى الأشبيليون لتبادل الحديث وشراء حاجاتهم واحتساء المشروبات الباردة أو القهوة الساخنة نهاراً وليلا . فتستطيع أن تشترى مروحة أو مشطاً طويلا أو نسخة من « دون كيخوته » ، أو « ورقة يانصيب » ، أو باقة من الزهر ، أو طيراً فى قفص خشبى صغير . كما تستطيع أن تسهر مع البوم حتى الساعة الأولى أو الثانية صباحاً . وفى أثناء النهار يغطى الشارع بخيام من الخيش المشدودة على حبال — كقلاع المراكب —

لتحجز أشعة الشمس المحرقة ، أما فى الليل فتطوى هذه الخيام ويمكنك أن تسير أو تجلس تحت السماء الصافية .

وما زالت أشبيلية تذكرك بأنها كانت مدينة إسلامية . فبرج الأجراس فى الكاتدرائية كان فيما مضى مئذنة مسجد يحتل موقع الكنيسة الحالية ، وقصر الأسرة المالكة ما هو إلا القصر العربى القديم الذى أدخلت عليه بعض الإصلاحات والتعديلات ، وحدائق القصر تزينها الورود وأشجار السرو ، والممرات الملتوية التى تنمو على جوانبها شجيرات البقس ، والبحيرات والنافورات ، والاستراحة الصيفية ذات الطراز العربى التى يقال إن شارل الخامس كان يجلس فيها ويشرب الشاى .

ومع أن مدناً كثيرة فى جنوبى إسبانيا تشتهر بإحيائها لأسبوع الآلام ، إلا أن الاحتفالات التى تقام بهذه المناسبة فى أشبيلية لا تضارعها فيها أية مدينة أخرى ، ويقوم السياح بحجز أماكنهم فى الفنادق مقدماً — قبل ميعادها بسنة . فمن يوم الثلاثاء السابق ليوم « الجمعة الحزينة » تمتلىء الشوارع ليلا ونهاراً بالمواكب التى تمثل النوادى الدينية ، وتسير مجموعات ، كل منها تضم نحو أربعين رجلا ، بجوار منصتهم التى تعلوها تماثيل لشخصيات دينية — غالباً ما تكون للعذراء . فيتجهون من كنيسة حيهم إلى وسط المدينة مخترقين « شارع الثعابين » حتى يبلغوا الكاتدرائية فيدخلوها ثم يخرجوا منها عائدين إلى نقطة بدئهم .

وهذه المنصات ثقيلة جداً حتى إن الواحدة منها تظلل مائة رجل أحياناً وهم يسيرون تحتها لحملها . ويرتدى المشتركون فى ركبها ملابسهم الجميلة التى تزهو بألوانها فى ضوء الشمس أو تحت الأنوار. وتتكون تلك الملابس من أردية طويلة وعباءات وأغطية رأس مدببة عالية تنسدل على الوجه فى شكل قناع — وجميعها رائعة الألوان أو تتألف من مجموعة من الألوان الجميلة . فقد يلبس المنتمون إلى أحد الأندية غطاء رأس أحمر يتدلى فوق رداء أرجوانى ، فى حين تلبس جماعة أخرى أردية من القطيفة الزرقاء وقبعات من نسيج ذهبى ، وترى جماعة ثالثة بملابس سوداء وقبعات خضراء . ولكل تمثال من التماثيل التى تحمل على المنصات أتباع مخلصون — وبخاصة تمثال العذراء . ولكن أشهرها جميعاً هو تمثال «عذراء الأمل» (La Macarena) الذى يحتفظ به فى حى « ماكارينا » باحدى ضواحى أشبيلية المسماة « تريانا » (Triana) — وهى مقر جماعات الغجر . و « عذراء الأمل » هى القديسة المحببة إلى فقراء الناس ومصارعى الثيران الذين يصلون لها قبل دخول حلبة المصارعة ويشكرونها على ما يحرزونه من نجاح . وكان « خوسيليتو » (Joselito) المصارع الغجرى الذائع الصيت يهديها خاتماً ثميناً كل عام إلى أن لقى حتفه فى حلبة المصارعة .

وينخرط فى الموكب المرافق للمنصة أو يندس بين الجماعة التى يحملها عدد من الفوضويين الذين يحتمل أنه كانت لهم يد فى حرق الكنائس إبان الحرب الأهلية ، ومع ذلك فهم شديدو الولاء لعذرائهم ويصممون على أن تتحلى بأبهى الثياب المطرزة بالذهب

وتلبس أنفس التيجان وتبز جميع التماثيل الأخرى فى الموكب . وهم يفرضون على أنفسهم إتاوات ليشتروا بحصيلتها الحلى والملابس الزاهية لعذرائهم ، يقاتلون أى شخص تسول له نفسه أن يقول عنها إنها أقل جمالا من أى تمثال منافس لتمثالهم .

ويستغرق مرور الموكب من تسع إلى عشر ساعات ؛ إذ عليه أن يسير ببطء وسط تزاحم المشاهدين ، كما أنه يتوقف عن الحركة من وقت لآخر حتى يستريح حاملو المنصة ، أو لكى يتاح للتمثال أن يتلقى تحية الـ « سايتا » (Saeta) . والـ « سايتا » معناها « السهم » . وسهام التحية التى يشيرون إليها هى سهام خيالية تنطلق من فم الشاب عندما يبدأ فى ترديد « أنشودة » من إحدى الشرفات ، أو عندما تطل امرأة من إحدى النوافذ وتعبر عن حبها للعذراء فى أغنية جميلة . وعندما تشق « السايتا » الهواء بأنغامها البطيئة المشحونة بالعاطفة تتوقف الفرق الموسيقية عن العزف ، ولايسمع صوت النفير ، ويخيم السكوت على الحشد ، وقد يتم ذلك والمغنى نفسه سائر مع الركب .

ويوافق يوم الخامس عشر من شهر أغسطس عيد انتقال العذراء إلى السماء ، وهو أحد الأيام الأخرى التى تشهد أشبيلية فيها المواكب ، فتكسى واجهات المنازل بالحرائر ، وتزين بالزهر ، وتحتشد جموع الناس فى شوارع المدينة ، وتدق نواقيس الـ « خير الدا » فيصم رنينها الآذان . وفى صباح ذلك اليوم يحمل الناس تمثال « عذراء الملوك » من الكاتدرائية ويطوفون الشوارع به . وعذراء الملوك هى القديسة

الحامية للمدينة ، وهى جديرة بأن تلقب بملكة جميع عذارى أشبيلية لقدمها ولما يروى عن شجاعتها النادرة . وتحكى قصتها أن الملك فرديناند الثالث — من ملوك القرن الثانى عشر — أراد أن يتخذ لنفسه حليفاً سماوياً يشد أزره فى حروبه ضد المسلمين . فكلف نحاتاً شهيراً بأن يصنع له تمثالا للعذراء . وبدأ المثال فى عمله ، ولكن عندما أرسل إليه فرديناند برسالة يصر فيها على تسلم التمثال فى مدى ثلاثة أيام أدرك المثال استحالة إنجازه للعمل فى هذه المدة ، فأغلق حانوته وهرب يائساً . وفى اليوم الثالث توجه فرديناند إلى الحانوت وأمر بفتحه ، وإذا به يجد التمثال كاملا .

وبعد هذا الحادث كان فرديناند يصطحب تمثال العذراء فى جميع حملاته ، وقد كان مؤمناً بأنها ساعدته فى الاستيلاء على قرطبة وأشبيلية من المسلمين . وفى إحدى المعارك أصيب التمثال بجرح . وتصر الأسطورة على أنه طيلة الثمانمائة السنة التى انقضت منذ ذلك الوقت لم تنجح أية كمية من الطلاء فى إخفاء الخدوش التى ما زالت تشاهد على وجهها وهى تسير فى الموكب ، مرتدية عباءة تجمع بين اللون الأحمر واللون الذهبى وعلى رأسها تاج مرصع بالعقيق والألماس أهداه لها أهالى أشبيلية من نحو ثلاثين سنة اعترافاً بفضلها الدائم عليهم .

ومن الأعياد الأخرى عيد الـ « فريا » (Feria) الذى يحل ميعاده فى شهر أبريل . وهو معرض للماشية يستمر ثلاثة أيام تقام بعد ظهر كل يوم منها حفلة مصارعة ثيران . ويستمر الرقص

والمرح طول الليل حتى الفجر . وفى هذه المناسبة يفتح أثرياء الملاك مساكنهم الفخمة فى المدينة فتمتلىء بضيوفهم الوافدين من مدريد وباريس وبرشلونة ، وعندئذ ترى العربات الجميلة التى تجرها جياد قوية ، أو تشاهد البغال البديعة التى تدب بحوافرها فى الشوارع ؛ كما ترى الرجال والنساء وقد امتطوا الخيل يجوبون بها أنحاء المعرض أو يحتشدون فى المدينة بأزيائهم الإقليمية الخلابة .

ويقصد بكلمة «روميريا» (Romeria) فى إسبانيا الحج ، أو القيام برحلة إلى الريف لزيارة أحد الأضرحة المشهورة . ومع أن عدداً كبيراً من الإسبانيين يقوم بذلك إلا أن أهل أشبيلية يمتازون عن غيرهم بموهبتهم التى يحولون بها حجاتهم هذه إلى مناسبات تبهر المشتركين فيها بألوانها ومرحها .

ومن هذه المناسبات البهيجة « حجة الروكيو » (Romeria Del Rocio) وهى تبدأ من أشبيلية فى عيـــد العنصرة فى أوائل الصيف ، فيعبر الحجاج نهر الوادى الكبير ويخترقون تريانا فى طريقهم إلى الريف ، تنقلهم عربات عالية ذات عجلتين ، وقد ارتدى ركابها أبهى حللهم . فترى الفتيات فى ملابسهن المنقوشة وأحزمتهن الجميلة ، فى حين يرتدى الرجال سترات قصيرة وقبعات جامدة مفلطحة ، وينضم إلى القافلة وهى تشق طريقها فى الريف حجاج آخرون تحملهم عربات أخرى ، أو يمتطون جياداً أو يسيرون على أقدامهم . وتستغرق هذه الرحلة ثلاثة أيام بلياليها . وعندما تقف العربات فى المساء تتجمع

فى شكل معسكر ، ويأخذ الحجاج فى الرقص والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل .

و « تريانا » هى ضاحية أشبيلية التى تقع عبر النهر ويقيم بها الغجر والملاحون . وهى مكان صاخب مزدحم بأناس يخيل إليك أنهم شخصيات فى قصة من قصص الصعاليك فى القرن السادس عشر . ويسترعى نظرك فى تريانا أعداد الحمير الكبيرة التى تضطر السيارات إلى الإبطاء فى سيرها ، كما تشاهد العربات التى تجرها البغال وهى تقعقع فوق الطرق ، والرجال الذين يحملون فوق ظهورهم أحمالا ثقيلة من الخشب أو الدريس أو ألواح « القيشانى » وسيقع نظرك أيضاً على عدد كبير من الدكاكين التى تخصصت فى صناعة السروج وشحذ الأسلحة وهما حرفتان تشتهر بهما جماعات الغجر .

وهناك آلاف من الغجر فى الأندلس وفى مقاطعة « مرسية » المجاورة له ، إذ عندما وفدوا إلى شبه الجزيرة فى منتصف القرن الخامس عشر فضلوا الاستيطان فى الجنوب لدفئه ووفرة زيتونه وفاكهته ، كما أعجبهم ماوجدوا فى البلاد من خيل وماشية جميلة ، فاتخذوا منها تجارة حققت لهم أرباحاً كبيرة على حساب أهل الريف البسطاء . وكان الغجر يتجولون من مكان إلى آخر حيث تقام الأسواق أو تحيا الأعياد . فيتم رجالهم صفقات مريبة فى الخيل والبغال ، وتقرأ النساء الطالع أو يقمن ببيع شراب يجلب الحب . وكان الغجر فيما مضى

قوماً مهلهلين قذرين ، كثيراً ما كانوا ينقضون على المسافرين فى الطرق المهجورة فيسرقون أمتعتهم ويقتلونهم . وكان القانون الإسبانى فى تلك الأيام لا يسمح لهم باتخاذ أية مهنة أو حرفة سوى رعى الأغنام ، أو فتح حانة فى إحدى المناطق الوعرة المنعزلة ، أو ممارسة الأعمال الشاقة فى المزارع . وقد تغاضت عنهم محاكم التفتيش على اعتبار أنه لا أمل فى إنقاذ أرواحهم . وكانت معتقداتهم قريبة من الوثنية : فلم يكونوا يؤمنون بالآخرة . ومما يرويه الكاتب الإنجليزى « جورج بورو » (George Borrow) — الذى كان يتكلم لغتهم ويعرف عاداتهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه واحداً منهم — أنه فى ذات مرة قال له أحد الغجر الإسبان :

« لقد عشنا فى هذه الدنيا أشراراً وتعساء بما فيه الكفاية ، فلماذا نعيش مرة أخرى ؟ » .

وبمرور الوقت أصبحت القوانين التى تحكم الغجر أخف وطأة وسمح للكثيرين ممن كفوا عن التجوال أن يمارسوا ما يروق لهم من أعمال . فتخلى بعضهم عن لغة الغجر وملابسهم ، ولكن غجر إسبانيا بوجه عام — كغيرهم من الغجر فى الدول الأخرى — ظلوا متمسكين بعاداتهم القبلية . وما زال سكان الريف فى إسبانيا لا يثقون بهم بل ويكرهونهم . ويقال إنه فى خلال الحرب الأهلية انقض الإسبان على جماعات الغجر التى كانت لا تزال تجوب البلاد وقتلوا ما يقرب من نصف عددهم .

وقد أسهم الغجر بنصيب كبير فى حياة إسبانيا الفنية وبخاصة فى الأندلس الذى أضفت عليه موسيقى الغجر ورقصهم جواً من المرح كما أن عدداً كبيراً منهم يمارس مصارعة الثيران . وفى غرناطة يكاد الغجر يتساوون فى اجتذابهم للسياح مع « قصر الحمراء » أو « جنراليف » فترى نساءهن يسرن فى شوارع المدينة بملابسهن الطويلة المكشكشة وقد صففت شعورهن الكثة عالية فوق رؤوسهن وتدلت الأقراط الذهبية الثقيلة من آذانهن . ويذهب السياح إلى الحى القديم فى غرناطة المسمى « البايثين » (Albaicin) حيث يعيش الغجر ، فيشاهدون المنازل التى يقطنونها فى الكهوف ويراقبونهم وهم يرقصون . ولكن هذا الحى تحول حديثاً إلى حى تجارى يعتمد اعتماداً كلياً على السياحة ، كما أن راقصات الغجر أصبحن يزين أنفسهن بأحمر الشفاه وطلاء الأظافر ، ودخلت النظافة إلى الكهوف التى يتخذونها مساكن لهم ، كما أصبحت تلك المساكن مليئة بالمعدات والأدوات المنزلية الحديثة .

ومع ذلك فما زالت هناك جماعات بدائية من الغجر يقيمون بالكهوف فى مقاطعة « مرسية » المجاورة للأندلس ، حيث يعيش آلاف منهم فى كهوف نحتت فى الصخور الصلصالية الرخوة التى تتكون منها التلال المنخفضة ، تحيط بهم القذارة والرمال والأتربة ويلفحهم هواء أفريقيا الحار .

وحتى إذا لم تتح لك فرصة زيارة الأندلس بنفسك ، فإن شاعراً من شعراء الأندلس الحديثين يقدم لك هذه المقاطعة فى أشعاره —

فتكاد تحس من واقعيتها أنك فى جوها الحار تشم أريج أزهارها ، وتتصاعد إلى أنفك رائحة الزيت الذي يطهى به الطعام ، كما تسمع أنغام موسيقاها الجميلة . ويصطحبك الشاعر إلى حلبة مصارعة الثيران وإلى خانق « روندا » العميق الذى تلقى فيه جثث الخيل التى مزقتها قرون الثيران . ويقدمك الشاعر إلى الغجر ، فيروي لك جرائمهم ويصف لك رقصاتهم ، ويحدثك عن تاريخ الأندلس من أيام الرومان والقوط الغربيين والمسلمين . إن هذا الشاعر هو « فيديريكو جارثيا لوركا » (Federico Garcia Lorca) الذى نظم فى حياته القصيرة أشعاراً تنبعث من أعماق المقاطعة التى ولد فيها . وقد أحيا « لوركا » لون الشعر القصصى القديم الذى كان منتشراً فيما مضى واستخدم هذا القالب الشعرى لكتابة قصص مثيرة تتناول موضوعاتها الحب والثأر والبطولات الحربية . وحتى قبل أن تطبع أشعاره فى ديوان كان زملاؤه من طلاب جامعتى غرناطة ومدريد يحفظونها ويتلونها كما كان الناس فى العصور الوسطى يرددون أغانى منشديهم المفضلين. وقد ألف لوركا أيضاً بعض المسرحيات التى تعكس ما يتميز به الإسبان من شجاعة واحتقار للمادة وتمجيد للشرف . ومع أن كتاباته لم تتناول إلا الأندلس بريفه ومدنه (وكانت غرناطة وقرطبة وأشبيلية هى مدنه المفضلة) إلا أنها تبدو رغم ذلك ممثلة لكل ما هو إسبانى .

لقى لوركا حتفه فى غرناطة فى أوائل الحرب الأهلية . وقد اتهم الوطنيون فى بادئ الأمر بقتله . ولكن المعتقد الآن أن جريمة قتله لم تكن سياسية ، وإنما ارتكبها شخص بينه وبين لوركا ضغينة

شخصية . ويحتل شعر لوركا ومسرحياته مكاناً رفيعاً فى الأدب الحديث ، وقد ترجمت أعمال كثيرة له إلى اللغة الإنجليزية :

وهاك بعض نماذج مما كتب :

الجيتـــار

يبدأ النحيب

عندما يعزف الجيتار

وليس من الممكن ، بل لا جدوى

من محاولة وقفه :

إنه يبكى بنغم مطرد

مثل المطر . : يسقط قطرة قطرة

أو مثل الريح عندما تبكى

فوق قمة الجبل المغطاة بالثلوج :

إنه من المستحيل

أن توقف الجيتار

إنه حزين لأشياء

بعيدة جداً عن الأنظار

مثل رمال الجنوب الساخنة :

ومن أجل أزهارالكاميليا البيض

وفى إحدى مسرحياته الدرامية يقدم لوركا هذا الوصف لمصارعة الثيران :

فى أعظم مصارعة للثيران حتى الآن
فى سيرك روندا القديم
خمسة ثيران فاحمة السواد
تحمل شارات من الورد الأسود والأخضر
وتظهر الفتيات وتدوى أصواتهن الحادة
فى عربات زاهية الألوان
يستعرضن مراوحهن المستديرة المطرزة
بالترتر الذى يتلألأ كالنجوم
أما فتيان روندا فقد جاءوا راكبين
أفراساً متشامخة ذات حركات متأنقة .
تعلو حواجبهم قبعات رمادية عريضة
وقد شدت إلى أحد الجوانب لتكسبهم مظهراً أنيقاً .
وفى المدرجات التى كانت كلها قبعات وامشطة عالية ،
وحيث بدأ الناس يحتشدون حول الحلبة
مثل منطقة البروج التى تدور حولها الأفلاك
كان الضحك يملأ جنبات المدرجات .
وعندما ظهر كايتيانو الجبار
وسار فوق الرمال الصفراء
مرتدياً حلته التى تشبه لون التفاح

والمطرزة بشرائط من الحرير والفضة ،
ووسط جميع المصارعين فى الحلبة
برز كايتيانو وحده فى شجاعة
أمام الثيران العظيمة الفاحمة السواد ،
والتى ربتها إسبانيا على أرضها
وتلونت فترة العصر بلون الفجر
لكى تحاكى لونه البرونزى
ولو أنك رأيت الرشاقة
التى يحرك بها ساقيه وكأنه يسبح
ولو أنك شاهدت اتزانه
وهو يلوح بالقماش فى مهارة وروعة ،
لاعترفت بأن ما قام به روميرو من حرق النجوم
فى السماء لا يمكن أن يعادله ؟

تلى ذلك فقرة يصف فيها الشاعر كيف قتـــل كايتيانو الثيران الخمسة .

لقد اهتز السيرك واهتز معه الزمن
وسط هتافات الجماهير التى تموج حول الحلبة
وكانت تتخلل رائحة الدماء
روائح قادمة من قمم الجبال .

الفصل الرابع عشر

في الشمال

عندما نتكلم عن قشتالة لا يتجه تفكيرنا إلى مدينة مدريد فقط ؛ لأن هناك غيرها من المدن التي تطفو فوراً إلى ذاكرتنا مثل طليطلة وشقوبية . كما أن حديثنا عن الأندلس لا يشير إلى مدينة أشبيلية وحدها . على العكس من ذلك ، نجد أن مقاطعة قطالونية ومدينة برشلونة تكاد تذكر الواحدة منهما بدلا من الأخرى ؛ لأن المدينة العظيمة تكاد تتحدث باسم المقاطعة وتمثلها تمثيلا كاملا . فلا توجد مدن أخرى هامة داخل حدود قطالونية . ومع ذلك فقد كانت « طرقونة » — التي لا تبعد كثيراً عن برشلونة — أعظم حاضرة في إسبانيا أيام الرومان ، أما اليوم فإن طرقونة في سبات عميق .

وتعد برشلونة أهم المدن التجارية الإسبانية وأغناها . ومع ذلك فهي أقل المدن تمثيلا للشخصية الإسبانية ، لأن طابعها هو الطابع القطالوني . ويختلف القطالونيون عن الإسبان في نواح كثيرة ؛ إذ انهم يفتقدون وقار أهل قشتالة وسحر الأندلس ذا المسحة الشرقية ، فبدت مدينتهم على شاكلة سكانها . ففي وسط ضجيج برشلونة وتحت ظل رخائها يثقل كاهل المرء بشعور العظمة المتداعية الذي ينتابه وهو في قشتالة كما أنه ينفض عن نفسه ذلك الخمول الحالم الذي يميز الأندلسيين ،

ويشعر أنه يعيش بكل جوارحه فى الحاضر بين هؤلاء القطالونيين النشطاء الأثرياء الذين تفيض قلوبهم بالمودة والمحبة .

وبالرغم من مظاهر المعيشة الحديثة التى تبدو على برشلونة فإن لها ماضياً تفخر به يرجع إلى أيام الفينيقيين والقرطاجيين . فقد أسسها « أميلكار باركا » (Hamilcar Barca) القائد القرطاجى فى القرن الثالث قبل الميلاد على موقع مدينة فينيقية قديمة ، وأطلق عليها « باركينا » لتقيم فيها أسرته . وقد ظلت مدينة عظيمة حتى بعد هزيمة قرطاجة على يد الرومان — وإن لم تكن فى أهمية مدينة طرقونة القريبة منها . ولم يتغير الحى القوطى فى المدينة إلا قليلا منذ القرن الخامس عشر ، ويمكنك أن تشاهد فى متحف برشلونة الآثار الرومانية والقوطية التى استخرجت من حفائر فى المدينة ذاتها وفى المناطق المحيطة بها . وتقع كاتدرائية برشلونة فى الحى القوطى فى مكان كانت تشغله كنيسة بناها القوط الغربيون ، ثم حل محلها مسجد شيده المسلمون . ومع أن الكاتدرائية تحتوى على زجاج ملون جميل وغير ذلك من النفائس إلا أنها أكثر إعتاماً من معظم الكنائس الإسبانية المظلمة الأخرى . وقد يفضل الزائر — بسبب هذا الظلام — أن يقضى وقتاً أطول خارج المبنى تحت أشجار البرتقال والمانوليا التى تنمو حول أروقتها . وتحيط بالكاتدرائية مبان أخرى عليها سمات الوقار ، فى حين تمر شوارع الحى الضيقة الملتوية بحوانيت أنيقة لافتة للأنظار ، وتتسع هذه الشوارع من مكان لآخر فتخرج بك إلى ميادين قديمة جذابة .

وفى برشلونة عـــدد من المبانى التى تبدو خيالية كما لو كانت مأخوذة عن أحد أفلام « والت ديزنى » ، وهى تختلف اختلافاً بيناً عن وقار المنازل القديمة . ومن أشهر تلك المبانى الشاذة فى تصميمها مبنى كنيسة الأسرة المقدسة الذي توقف العمل فيه نحو عشرين سنة بعد الحرب الأهلية . وإن الإنسان ليشك فى أن يقوم مهندس معمارى فى وقتنا هذا بإتمام الكنيسة وفقاً لتصميم مهندسها الأصلى « أنطونيو جاودى » (Antonio Gaudi) ؛ إذ يحتوى المبنى على خليط مذهل من الأعلام وفروع الأشجار الرفيعة والأشجار والأزهار وغيرها من الأشياء التى تداخل بعضها فى بعض كما لو كانت قد شكلت من إسفنج طرى لا من صخر .

ولم يكن « جاودى » سوى واحد من الكثيرين من فنانى قطالونية فى القرن العشرين الذين خرجوا على الأنماط المألوفة والتقليدية فى الفن ليعبروا عن أنفسهم بطرق ثورية جـــديدة . وقد اشترك كثيرون غيره فى هذه الثورة ، منهم ثلاثة ذاعت شهرتهم فى أمريكا وهم : « بابلو بيكاسو » (Pablo Picasso) ، و « سلفادور دالى » Salvador Dali ، و « خوان ميرو » (Joan Miro) .

وإذا علمت أن « دالى » قطالونى النشأة (وعلى ذلك فهو ثائر) فإنك ستزداد فهماً لعلة استخدامه لبراعته فى الأداء استخداماً جنونياً . ستجد فى لوحاته أشكالا غريبة ، وهياكل ، وأشجاراً ملتوية بطريقة غير طبيعية ، وساعات كأقراص العجين متناثرة هنا وهناك ، ستجد

كل ما قد يصوره لك حلم مزعج وقد رسمه « دالى » بنفس العناية والصقل التى يمكن أن يستخدمها أحد أساتذة المدرسة الهولندية فى رسم منظر واقعى . على أن بعض لوحات « دالى » أقل مدعاة للحيرة من غيرها ، ويمكن لمشاهدها أن يتقبلها بسهولة — كاللوحات الزاهية لمناظر تكاد تكون خالية على أحد الشواطئ بالقرب من برشلونة أو كالصورة المزدوجة الغريبة لزوجته . ومهما يكن من أمر ذلك فإنك إذا قدرت أعمال « دالى » فى جملتها لحكمت بأن الفنان قد حقق هدفه الذى جاهر به ، وهو أن يُرسم كما يرسم المجانين .

ويجمع النقاد على اعتبار « بيكاسو » أحد فنانى عصرنا المبرزين ، وهو فنان متعدد المواهب والأساليب ، مما يجعل التعرف عليه أكثر صعوبة من التعرف إلى دالى ؛ نشأ بيكاسو فى برشلونة ، وتأثر بالنهضة الفنية التى اكتسحت تلك المدينة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر احتجاجاً على ما كان يحكم الفن من تقاليد وقواعد جامدة . وأصبح بيكاسو فيما بعد أحد مؤسسى حركة الرسم التكعيبى التى عدت انقلاباً فى ذلك الوقت ولكنها ما لبثت أن أصبحت أسلوباً فنياً فى العقدين الثانى والثالث من هذا القرن .

أما فى لوحاته العادية التى لا يخرج بيكاسو فيها كثيراً عن المألوف فإنه يميل إلى رسم الأشخاص رسماً كاريكاتوريا . فكثيراً ما يشوه جسم الإنسان إما بسحبه حتى يصبح طويلا نحيفاً ، وإما بنفخه حتى يبدو كالبالون . ومن ذلك رسمه « للبهلوانات » ولاعبى السيرك على

هيئة أشكال مستطيلة زرقاء على أرضية غبشاء ذات لون رمادى أزرق . وتنتمى هذه اللوحات إلى ما يطلق عليه « عصر بيكاسو الأزرق » . ثم نجده فى لوحات أخرى يستخدم ألواناً زاهية لكى يضفى حيوية وبهجة على مصارعى الثيران والراقصين والمهرجين والمضحكين .

أما الفنان القطالونى الثالث « خوان ميرو » فسواء اعترفنا به كفنان عظيم أم لم نعترف ، فإن فى لوحاته تعبيراً عن الحرية والشباب والسعادة . فلوحتـــه المسماة : « الطائر ذو النظرة الهادئة والأجنحة الملتهبة » لوحة ممتعة استخدم فيها اللون الأزرق الكهربى مع ألوان حمراء متلألئة . أما رسمه لقرية « مونترويج » (Montroig) — وهى مسقط رأسه — فيكاد يبدو كأحد الرسوم التى توضح مخطوطاً من مخطوطات العصور الوسطى بمنازله التى تزدحم على الأفق بألوان صفراء فاتحة وحقوله ذات الألوان الأرجوانية والوردية .

ويبغض القطالونيون التسلط المركزى فى الحكم كما يبغضونه فى الفن . وكثيراً ما قاموا بثورات ضد السلطات الحاكمة فى القرون الماضية . وهم يحتقرون بوجه خاص ما يسمونه « بحكم قشتالة » . فيتحدث إليك أهل قطالونية قائلين إنه ما دامت قشتالة تدعى أنها تمثل كل إسبانيا فإنهم قطالونيون وليسوا إسبانيين . وهم يتكلمون بلسان معظم سكان قطالونية الآخرين عندما يكررون التعبير عن رغبتهم فى أن تصبح بلادهم دولة مستقلة ينتظمها نوع من أنواع

الاتحاد الفيدرالى الإسبانى . كما أنهم يؤكدون أن دولتهم كانت تضارع قشتالة فى حيويتها وأهميتها قبل أن تخضع لاستبدادها عقب زواج فيليب ملك أرغون من إيزابلا ، وكانت أكثر رخاء وأرفع ثقافة من قشتالة ، رغم أنها أصغر مساحة منها . ويشير القطالونيون إلى الفتوحات التى تمت على أيدي «كونتات» برشلونة (الذين كانوا ملوكاً لأرغون فى الوقت ذاته) — وهى تشمل جزر البليار وغيرها من جزر البحر المتوسط ، وفوق ذلك كانت لهم دوقية قطالونية فى أثينا ببلاد اليونان فى العصور الوسطى . ويشتد حنق القطالونيين عندما يتذكرون كيف منعتهم ايزابلا وملوك الهابسبرج من الاشتراك فى كشف العالم الجديد فحرموهم بذلك من الأرباح التى عادت على غيرهم من الاستعمار والتجارة مع جزر الهند الغربية .

ومن الأدلة التى يسوقها القطالونيون ليبرهنوا على حقهم فى الانفصال عن قشتالة أن لهم لغة خاصة بهم ، فاللغة القطالونية ليست لهجة من الإسبانية ، بل هى لغـــة مشتقة من اللغة اللاتينية — لغة متكاملة كالإسبانية أو الفرنسية أو البرتغالية أو لغة البروفنسال — وهى اللغة القديمة لجنوب فرنسا — وهناك شبه كبير بينها وبين اللغة القطالونية. وكان الأدب القطالونى فى العصور الوسطى يضارع آداب الدول الأوروبية الأخري ، وكان يشمل روائع الشعر وقصص الفروسية والمؤلفات التاريخية الممتازة . ومن أشهر مؤرخى قطالونية « جيمس الفاتح » (James The Conqueror) الذى كان ملك أرغون وكونت برشلونة . كان جيمس فارع الطول ذكياً شجاعاً ، قام

بفتح جزر البليار ، كما ضم مقاطعة بلنسية إلى أملاكه . وإلى أوائل القرن الثامن عشر كان سكان الساحل الشرقى لإسبانيا وبعض جزر البحر المتوسط وأجزاء من جنوبى فرنسا يتكلمون اللغة القطالونية . ولكن قطالونيا أخطأت عندما أيدت الأرشدوق شارل فى مطالبته بعرش إسبانيا ضد فيليب الخامس من أسرة البوربون . فما كان من فيليب بعد أن فاز بالتاج الإسبانى إلا أن عاقب تلك المقاطعة الثائرة بمنع استخدام لغتها فى المدارس والمحاكم أو أية مادة مطبوعة . وقد حاول القطالونيون الوطنيون أن يحيوا لغتهم فى السنوات الأخيرة ولكنهم لم يصادفوا فى ذلك نجاحاً كبيراً ، وخاصة أن حكومة فرانكو فرضت عليها بعض القيود من جديد .

ومن الطبيعى أن يوجه سكان برشلونة ما تفيض به مدينتهم من حياة وحماسة إلى إظهار شعورهم بالسخط والاستياء عندما يجدون أنفسهم أمام أوضاع لا يستسيغونها . وإذا تخلى المرح عن برشلونة وخيم الحزن والوجوم على القطالونيين فانهم يتحولون إلى أناس تغلى الكراهية فى صدورهم وتدفعهم رغبة جامحة إلى التدمير . فلم يكد يخلو قرن من اضطرابات وثورات تعكر صفو هدوئه . وقد شهدت البلاد فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر إضرابات دامية صحبها نسف وقتل ، وتجددت اضطرابات مماثلة فى السنوات الأولى من القرن العشرين . أما فى الحرب الأهلية (١٩٣٦ — ١٩٣٩) فقد تحولت برشلونة إلى مركز من مراكز المقاومة العنيفة للجنرال فرانكو وقواته ، فتكرر ضرب المدينة بالقنابل ، وتحملت فى نهاية

المعركة أربعة أيام من الهجوم الجوى المدمر الذى حول بعض أحيائها إلى خرائب . وقد حل الدمار بعدد كبير من قرى قطالونية الناصعة المجاورة لبرشلونة فى أثناء الحرب ، كما احترق عدد من الكنائس الجميلة إما بفعل الفوضويين وإما بقنابل الوطنيين . ومما يزيد مشكلة استقلال قطالونية تعقيداً انتشار الشيوعية فيها ، بحيث يصعب التكهن بما قد يحدث هناك مستقبلا .

وفى إسبانيا مشكلات أخرى وليدة التذمر المحلى ؛ فهناك مثلا مشكلة « الباسك » الذين يطالبون بالاستقلال ، وإن كانوا أقل إلحاحاً . فقد كان الباسك فى سالف الأيام يتمتعون بالإعفاء من ضرائب معينة ومن الخدمة العسكرية ، ولكنهم فقدوا هذه الامتيازات خلال القرن التاسع عشر . وللباسك أيضاً لغتهم الخاصة ، وهى من أغرب اللغات الأوروبية .

ولا يعلم أحد على وجه التحقيق إلى أى السلالات البشرية تنتمى جماعات الباسك ، أو من أى مصدر اشتقت لغتهم . فيرى بعض العلماء أن من المحتمل أنهم بقايا عنصر قديم أقام فى شبه الجزيرة فى زمن سابق حتى على قدوم الأيبيريين . أما بالنسبة إلى لغتهم فتذهب بعض النظريات إلى أنها التعبير الحى للغة الأيبيرية القديمة ؛ إذ يتفق معظم الثقات على أنها تشبه ما هو معروف عن اللغة الأيبيرية بعض الشبه ، ولكنهم يؤكدون أن هناك استحالة فى إثبات هذه الصلة بين اللغتين لأن ما تبقى من السجلات المكتوبة باللغة الأيبيرية

قليل جداً لا يتعدى بضعة نقوش . وقد لاح ضوء فى ظلمات هذا الماضى السحيق عندما استخرجت زهرية من حفائر بالقرب من بلنسية منذ سنوات قليلة ، وكان الأصيص « الزهرية » مزيناً برسم لمعركة بحرية كتبت فى أسفله كلمتان أيبيريتان . ولما استعين بلغة الباسك على تفسير هاتين الكلمتين قيل أنه يمكن ترجمتهما بـ « صيحة المعركة » . غير أن هذا كان مجرد شعاع فى الظلام ما لبث أن خفت ضوؤه . فمنذ ذلك الحين لم يسفر استخدام لغة الباسك لحل رموز تلك اللغة القديمة عن أى نجاح أكيد .

ويصرح الباسك بأن لغتهم من القدم بحيث كانت تستخدم فى جنة عدن ، كما يروون أن الشيطان — عندما رغب فى التحدث بلغتهم — أمضى سبع سنوات وهو يحاول أن يتعلمها ، ولكنه تخلى عن محاولته فى النهاية عندما اكتشف أنه لم يتعلم سوى ثلاث كلمات فقط . ولعلك تشفق على الشيطان لما قام به من دراسة غير مثمرة إذا علمت أن هناك خمساً وعشرين لهجة للغة الباسك ، وأن قواعدها بالغة الصعوبة ، وأن هناك كلمات تبدو وكأن حروفها قد اختلط بعضها ببعض بطريقة عفوية — منها — على سبيل المثال — أسماء الأسر التالية :

« زومالكاريجوى » (Zumalcarregui) و « زوزاجويتيـــا » (Zuzagoitia) و « جويكوتشيا » (Goicoechea) و « أزبيلكوتا» (Azpilkoeta) .

ويتصف الباسك بالبساطة ، والقوة ، والجرأة . وقد احترفوا التهريب قروناً عدة ، فكانوا ينقلون البضائع الممنوعة عبر الجبال

التى تكون الحدود بين فرنسا وإسبانيا . وهم يتميزون أيضاً بالولاء الشديد للكنيسة الكاثوليكية فى تعصب وصرامة ، كما أنهم غيورون جداً على استقلالهم . ففى الحرب الأهلية التى نشبت فى القرن التاسع عشر حاربوا فى صفوف « دون كارلوس » الضيق الأفق . أما فى الحرب الأهلية الأخيرة فإنهم اتخذوا الجانب المعادى للكاثوليك رغم تعصبهم للكاثوليكية ، اعتقاداً منهم أن أملهم فى الحصول على الحكم الذاتى من الأحرار أقوى من احتمال نيله فيما لو انتصر جانب الجنرال فرانكو من المحافظين . وفى عام ١٩٣٧ قام عدد من الطيارين الألمان الذين ادعوا أنهم يساعدون قوات الجنرال فرانكو بهجوم جوى مدمر على « جويرنيكا » (Guernica) وكادوا يمحونها من الوجود ، وهى تلك المدينة القديمة التى كان يجتمع فيها ممثلو الباسك فى هيئة مجلس شورى تحت شجرة بلوط مقدسة طيلة عدة قرون .. وكانت تلك الغارة الجوية فى حينها عملا وحشياً استنكره الرأى العام العالمى . أما اليوم فقد أعيد بناء « جويرنيكا » وأضحت مدينة جذابة . ومع أن شجرة البلوط القديمة كانت قد حطمت حتى لم يبق سوى جزء من جذعها ، إلا أن شجرة أخرى — غرست من نحو مائة سنة — تظلل مكان الاجتماع التقليدى فى الوقت الحاضر .

وترمز الكنيسة الكاثوليكية ، وشجرة بلوط « جويرنيكا » ، والملعب المسمى « فرونتون » (Fronton) إلى ثلاثة جوانب من حياة الباسك وهى تدينهم ، وحبهم للحرية ، وتعلقهم بلعبة البيلوتا . وتشبه البيلوتا التنس إلى حد ما وإن كانت أسرع منه . ويلعبها عادة أربعة

لاعبين : اثنان فى كل جانب ، يثبت كل منهم فى رسغه سلة طويلة مقوسة يلتقط بها الكرة ويقذفها فى جوانب الفرونتون — وهو ملعب ذو أرضية من الأسمنت تحيط بثلاثة جوانب منه جدران مرتفعة من الأسمنت أيضاً . وإذا أنت شاهدت اللاعبين وهم ينحنون وينثنون ويلتوون ويندفعون عبر الملعب أو يقفزون إلى منتصف الحائط فسوف تصدق ما يقال من أن هذه اللعبة مرهقة إلى درجة أنه يندر أن يعيش لاعبوها إلى سن متقدمة . ولكل قرية فى إقليم الباسك ملعبها الخاص بها ، وكثيراً ما يكون مستنداً إلى حائط كنيستها . أما المدن فمن الطبيعى أن تشهد كثيراً من المباريات . والواقع أن لعبة البيلوتا قد أصبحت لعبة شعبية يمارسها المحترفون فى جميع مدن إسبانيا الكبري (وفى مدينة المكسيك وهافانا أيضاً) ، ويراهن الأهالى بتحمس على نتائج جميع المباريات .

وفى الشمال الغربى من شبه الجزيرة تقع مقاطعة « جليقية » (Galicia) التى تشبه مقاطعات الباسك وقطالونية فى أن لها لغة محلية ، وإن كانت هذه اللغة مجرد لهجة من لهجات اللغة البرتغالية . وينحدر سكان « جليقية » انحداراً مباشراً من السلت الذين وفدوا إلى إسبانيا منذ زمن بعيد . ويدل شكلهم على ذلك ، إذ يبدون كما لو كانوا اسكتلنديين أو أيرلنديين وهم يعزفون موسيقى القرب ويحملون عصياً ثقيلة تشبه الهراوات الأيرلندية ويدلفون فى المطروالوحل فى بلادهم المضببة (الكثيرة الضباب) الرطبة منتعلين أحذية خشبية . ويعتقد أهالى جليقية فى كثير من الخرافات ويروون كثيراً من الأساطير

الجميلة عن الجبال التى تكسوها الغابات ومساقط المياه وسفوح التلال المنزرعة والأضرحة المنتشرة على جوانب الطرق . فالجليقيون بطبيعتهم شعراء يسبحون فى عالم الأحلام .

وكان مؤلفو المسرحيات الإسبانية فيما مضى يختارون شخصيات جليقية للأدوار الفكاهية التقليدية — كالخادم العنيد الجاهل الغبي — الماكر فى الوقت ذاته . ولا تعطينا هذه الصورة الكاريكاتورية فكرة حقيقية عن الجليقيين ، إذ بالرغم من أنهم يقبلون الأعمال الشاقة الوضيعة — كالحمالين فى الموانى ورجال الشرطة والحصادين فى المزارع — فإنهم يتميزون بالخيال والذكاء والاجتهاد والمثابرة . وقد ارتفع شأن الكثيرين منهم فى ميادين السياسة والأدب ومختلف المهن . وكثيراً ما يهاجر الجليقيون إلى أجزاء أخرى من أوروبا أو إلى أمريكا يحدوهم الأمل فى تحقيق معيشة أكثر رخاء مما تدره عليهم مزارعهم الجبلية . ويمكنك أن تقدر العدد الكبير من الرجال الذين غادروا وطنهم عندما ترى أن عدد النساء اللائى يعملن فى الحقول يزيد على عدد الرجال ، أو عندما تلاحظ جو الكآبة الذى يخيم على النزهة المسائية فى إحدي المدن الصغيرة ، حيث تشاهد جماعات عديدة من السيدات والبنات يسرن الهوينا حول الميدان ، ولا تقع عيناك إلا على عدد قليل من الرجال والشبان .

الفصل الخامس عشر

الإسبانى القح

عرفنا مما تقدم أن كل إقليم فى إسبانيا يختلف عن غيره من الأقاليم وأن لسكان كل اقليم منها مميزاتهم الواضحة الخاصة بهم . وقد اتسمت كتابات أدباء إسبانيا فى المائة السنة الأخيرة بهذا الطابع الفردى فى مسرحياتهم وقصصهم ، وبخاصة فى الأخيرة التى تثير الإعجاب بتصويرها للبيئات المحلية وما فيها من نماذج بشرية . وتكاد كل قصة إسبانية تصطبغ بصبغة إقليم معين بحيث لا يمكن أن تنسب إلى إقليم آخر . وعندما تقرأ هذه الأعمال الأدبية فإنك ستعيش فى عالم ازدادت روعته لفرط واقعيته ، تشارك جماعة « الماراجاتوس » (Maragatos) حياتهم الموحشة . وهم قوم يشوبهم الغموض ، يعيشون فى عزلة فى شمال غرب إسبانيا ، ويظن أنهم من سلالة البربر الذين كانوا فى صحبة طارق بن زياد . وستندمج بعواطفك فى قصة غرام أندلسية حافلة بالخيالات والأوهام ، أو ربما يأخذك التحمس للمغامرات التى يقوم بها بحارة الباسك ، أو ترافق الصيادين إلى منازلهم العالية المتهدمة التى تتكدس حول ميناء «سانتاندر» (Santander) أو تعتريك صدمة عندما يتكشف لك ما يعانيه سكان الشوارع الخلفية القذرة فى مدريد من فقر وألم .

وقد ذاعت شهرة « فيسنته بلاسكو ايبانييز » (Vicente Blasco Ibanez) فى الولايات المتحدة ، وهو من مؤلفى القصص الذين كتبوا فيما بين منتصف القرن التاسع عشر والحرب الأهلية الإسبانية . وترجع تلك الشهرة إلى ما ترجم من أعماله إلى اللغة الإنجليزية وبخاصة قصة « فرسان سفر الرؤيا الأربعة » (The Four Horsemen of the Apocalypse) وهى قصة مثيرة عن الحرب العالمية الأولى . ومع أن شهرة « بلاسكو ايبانييز » تعود إلى القصة ، إلا أنه كتب مايفضلها كثيراً عن مقاطعة بلنسية التى نشأ فيها ، وصور بحرارة وتعاطف الرجال والنساء الذين يعملون فى مزارع الفواكه والخضراوات التى تحيط بمدينة بلنسية وتعتمد فى زراعتها على الرى . وما زالت هذه القصص تحتفظ بسحرها المتجدد، فى حين أن قصة الفرسان الأربعة تبدو الآن تاريخية فاتت مناسبتها .

وفى نفس الفترة عرف الأمريكيون أيضاً اثنين من كتاب المسرحيات الإسبانيين هما: «خاسنتو بينافنته» (Jacinto Benavente) و «جريجوريو مارتينيز سييرا» (Gregorio Martinez Sierra) ؛ وقد مثلت بعض مسرحيات « بينافنته » (بالنص الإنجليزى) فى الولايات المتحدة ، وبخاصة بعد أن فاز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٢ . أما « مارتينيز سييرا » فهو جدير بما نال من شهرة عن مسرحيته « أنشودة المهد » (Cradle Song) ، وهى مسرحية رقيقة تروى قصة طفلة لقيطة تركها ذووها أمام باب أحد الأديرة ، فقامت الراهبات بتربيتها حتى كبرت الفتاة وبلغت سن الإحساس بالحب ،

وتزوجت بمن تحب وسط بكاء الراهبات وابتساماتهن المرتجفة . وقد لاقت « أنشودة المهد » إقبالا كبيراً كقصة سينمائية أخرجت فى أمريكا ، ومازال بعض فرق هواة التمثيل يقومون بأدائها من آن لآخر .

ولا يسعنا أن نترك الكلام عن المسرح الإسبانى دون ان نذكر « أنطونيو جارسيا جوتييريز » (Antonio Garcia Gutierrez) الذي عاش فى القرن التاسع عشر قبل الذين أوردنا ذكرهم بزمن قصير . وقد تأثر الموسيقار الإيطالى « فيردى » (Verdi) تأثراً كبيراً بالمأساة التى كتبها « جارسيا جوتييريز » عام ١٨٥٣ بعنوان «التروفادور» (El Trovador) فجعل « فيردى » من موضوعها أساساً لأوبرا « التروفاتوري » (Il Trovatore) التى ألفت موسيقاها . كذلك كتب « فيردى » أوبرا أخري مقتبسة من مسرحية درامية لنفس المؤلف اسمها « سيمون بوكانيجرو » (Simon Bocanegro) .

وبعد انتهاء الحرب الإسبانية الأمريكية التى نشبت فى عام ١٨٩٨ قام نفر من المؤرخين والفلاسفة والصحفيين والنقاد الشبان وأطلقوا على أنفسهم « جيل ١٨٩٨ » ، وأخذوا فى تقصى أسباب هزيمة إسبانيا وضعفها القومى . فتقدم كل منهم باقتراح ألوان من العلاج ، وألفوا فى التاريخ والفلسفة ، وكتبوا مقالات متنوعة يعرضون فيها نظرياتهم خلال السنوات التى تلت تكوين جماعتهم . ومما لاشك فيه أن آراءهم مهدت لثورة ١٩٣١ ولقيام الجمهورية بطريقة سلمية فى نفس العام . كان هؤلاء المفكرون شديدى التحمس للجمهورية الجديدة فى بادئ الأمر . وشغلوا عدة مناصب حكومية ، ولكن

ما لبث كثيرون منهم أن أدركوا أنهم كانوا واهمين عندما اشتركت في الحكم عناصر طابعها العنف ، مما أفسد المثل الديموقراطية التي كافح من أجلها «جيل ١٨٩٨». فانسحب بعضهم من مناصبهم قبل اشتعال نار الحرب الأهلية أو في أثنائها، وقطعوا صلتهم نهائياً بالحكومة التي كانت قد تغيرت بطريقة تبعث على الأسف.

وعندما يتطرق تفكيرنا إلى الموسيقى الإسبانية فإن المقارنة بينها وبين روائح إسبانيا الزكية تفرض نفسها علينا . ويقول علماء النبات إنه من بين عشرة آلاف نوع من الأزهار التي تنمو في أوروبا تختص شبه الجزيرة وحدها بأكثر من النصف ، ولا يقتصر نموها على الحدائق التي تزخر بنباتاتها المدارية ، بل إن الأراضي الجرداء تحتوي على آلاف من النبات الصغيرة ذات الأزهار التي تعطر الهواء بأريجها . ويقرر الملاحون أن عبير إسبانيا ينتشر إلى مسافات بعيدة في البحر حتى إنهم يشمونه قبل أن يروا شواطئها — وهي رائحة لايمكن وصفها أو نسيانها . وعندما يذهب بك التفكير إلى هذا الشذا الذي تتميز به إسبانيا فإنك ستذكر الأغاني الإسبانية والرقص الإسباني اللذين يشعان إحساساً بالاقتراب من إسبانيا يدور له الرأس كما لو كان عطراً ساطعاً .

ويكاد الإنسان يعجز عن التفرقة بين الموسيقى والرقص الإسباني لشدة تداخل أحدهما في الآخر . فمعظم الأغاني الشعبية الإسبانية ذات أنغام راقصة ، كما أن الراقصين غالباً ما يغنون وهم يرقصون . وتعتبر إسبانيا أغنى بلاد العالم بموسيقاها الشعبية . ويرجع هذا — إلى حد ما —

إلى تسجيل الإسبانيين للتقاليد مما جعلهم يعتزون بتلك الموسيقى ويحافظون عليها بحرص شديد . فنى احتفالات الإسبانيين وأعيادهم ما زلنا نرى الملابس المحلية الجميلة ونستمع إلى آلات موسيقية غريبة تصدر منها أصوات صفير أو رنين أو نواح ، تعبر عن الفرح ، أو الشعور بالوحدة . وكثيراً ما يرقص الأهالى رقصاتهم العنيفة المعبرة فتهتز لها حانة القرية التى امتلأت قاعاتها بالدخان ، أو تثير النشوة والحماسة فى ميدان القرية ، أو فى جانب من مرعى بالقرب من أحد جداول الماء . فيصل إلى سمعك صوت الجيتار والرق وموسيقى القرب والأوبوا والماندولين والصاجات ، بينما لا تسمع أحياناً سوى فرقعة الأصابع أو التصفيق بالأيدى ، أو الدق بالأقدام فى مصاحبة الرقصات الشعبية التقليدية الأصلية فى إسبانيتها . ومن الرقصات التى قد تسمعها وتشاهدها : الجوتا ، والملاجوينيا ، والباسو دوبل ، والفاندانجو ، والباراندا ، والرويدا ، والسفليانا ، والبيتينيرا ، والرودينيا ، والبوليريا ، والجرانادينا ، والبوليرو ، والسيجويديلا ، والتشارادا ، والجـيرارديلا ، والآريسكو ، والسورتسيكو ، والدانسابريما ، والمونيرا ، والفيروكا أو الاسباتا ، وذلك فى الأندلس وأرغون ومقاطعات الباسك وغيرها من الأقاليم . وبعض هذه الرقصات بطيئة وعلى وتيرة واحدة ، وبعضها الآخر سريع قوى الإيقاع ملىء بالمرح والعاطفة . وهناك رقصات أخرى عميقة فى حزنها تكاد تصور لنا مأساة ، كما أن هناك رقصات تتعلق بالعبادة والغزل والفكاهة . ومن النادر أن يؤدى اللحن الواحد بنفس

الطريقة فى المناطق المختلفة . فرقصة الحوتا فى أرغون تختلف عن الحوتا كما يرقصها أهالى قشتالة أو مرسية ، كما أن الفاندانجو فى الأندلس يختلف عنه فى الجهات الأخرى .

وللمرء أن يتوقع أن يكون الأندلس متفوقاً على غيره من أنحاء إسبانيا فى الموسيقى والرقص . ويرجع بعض الفضل فى هذا التفوق إلى جماعات الغجر. فمع أنهم لم يبتكروا الكثير من الرقصات الأندلسية إلا أن توافقهم الرائع ، وحاستهم الإيقاعية ، ومشاعرهم الفياضة ، جعلت منهم راقصين لا يمكن مجاراتهم . ويقترن اسم الغجر بصفة خاصة برقصة الفلامنجو وأغانيها . وكلمة « فلامنكو » تعنى فى الأصل « فلمنكى » ، وقد جرى إطلاقها على كل ما هو مبتذل ومستهجن ، ثم امتد إطلاقها إلى جماعات الغجر الذين كانوا كثيراً ما ينفرون الإسبان منهم بسلوكهم . وتشبه ألحان الفلامنجو موسيقى الغجر المجريين ، إذ تتتابع فيها أنغام مرحة ومنتحبة وغامضة وغريبة ، كما أنها مليئة بالوقفات الفجائية التى تشد الأعصاب شداً . ويؤدى راقصو الفلامنكو رقصتهم وسط دائرة من المتفرجين الذين يحافظون على الإيقاع بالتصفيق بأيديهم ، والدق بأقدامهم ، وبصيحات تشجيعية مثل « أولى » — وهى اسم تعجب يدل على الاستحسان والرغبة فى المزيد . وكثيراً ما يؤدى الرقص بمصاحبة هذه الأصوات فقط بالإضافة إلى قرقعة الراقصين لأصابعهم وهم يرقصون .

وترتدى النساء مآزر « جونلات » متسعة ، أو ثياباً يتدلى منها عدد من الأشرطة القطنية الزاهية الألوان ، أو من نسيج أبيض مطرز ،

مع « كشكشة » فى أعلى المئزر « الجونلة » وعند العنق والذراعين . وتتدلى الأقراط الكبيرة من آذانهم وتوضع زهرة فوق إحدى الأذنين . وتجيد نساء الأندلس الرقص ، حتى إذا كن بدينات أو تقدم بهن العمر . وهن لا يرقصن بأقدامهن وسيقانهن فقط ، بل بكل جزء من أجسامهن ، وبخاصة أيديهن وأذرعهن .

ويدعونا كاتب إنجليزى إلى حفل فى أشبيلية لنشاهد « باستورا أمبيريو » (Pastora Imperio) راقصة الفلامنكو ، وهو يصف لنا ما رآه عام ١٩٤٨ عندما كانت « باستورا » فى الستين من عمرها :

« كانت باستورا تصفق إعجاباً بكل من قاموا بالغناء ، ولم تكشف عن أية رغبة فى الرقص فى بادئ الأمر ، غير أنها فى النهاية — ودون أن يستحثها أحد — نهضت واقفة وتحدثت إلى عازف الجيتار وتلففت بشالها بطريقة لا تعوق حركة يديها وذراعيها . أخذ الجيتار فى عزف أولى أنغامه ، وبدت باستورا مغمضة عينيها لحظة قصيرة كما لو كانت تتأمل . وتزيد سرعة الإيقاع ، فتفتح عينيها بما فيهما من نار خضراء متوهجة ، وكانت قد أخذت تدق بقدميها ، فإذا الإيقاع — دقيقاً خفيا حيناً ، أو رهيباً كهزيم الرعد — لا يصادفه الإنسان إلا إذا استمع إلى الموسيقيين الهنود وهم يقرعون طبولهم أو يدقونها بأصابعهم أو بأكفهم . وكان هذا أقوى دليل لمسته على الصلة بين الغجر والهنود . ثم زحفت « باستورا » إلى الأمام كما تزحف الكوبرا على ذيلها وهى رافعة رأسها ، فى حركة يصحبها دق متواصل سريع بقدميها مع بقاء

جسمها جامداً ، وهي تصفق أو ترفرف بكلتا يديها ، وقد حنت رأسها كما لو كانت تستمع إلى رقية . وقد تكرر زحفها بهذه الطريقة أربع مرات إلى أركان المسرح الأربعة . ثم عادت بعد ذلك إلى وسط المسرح ودقت بقدميها إيقاعاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن الإيقاع الأول ، يشبه قرع الطبلة قرعاً سريعاً متتالياً ، ثم أطلقت صيحة الغناء الغجرية التي طال احتباسها . إن « باستورا امبيريو » هي أعظم مغنية سمعتها في حياتي لها هذا التحكم في أداء موسيقى الفلامنكو ... » .

وإننا لمدينون لنفس الفنانة بمقطوعة الموسيقار « مانويل دى فايا » (Manuel De Falla) التي لاقت نجاحاً كبيراً ، وعنوانها « الحب الساحر » (El Amor Brujo) . فقد حملت « باستورا » الموسيقار الإسباني على تأليف مقطوعة « باليه » يمكنها أن تغنيها وترقص على ألحانها . وتصور الموسيقى قصة غجرية قديمة تدور حول فتاة لها عاشقان ، أحدهما شبح تحاول أن تطرده بالسحر . وقد أعاد « دي فايا » فيما بعد كتابة موسيقى الباليه هذه في شكل متتابعة للأوركسترا ، وهي الصيغة التي غالباً ما نسمعها بها ، وبخاصة « رقصة النار » المثيرة .

وتحمل موسيقى « دى فايا » الطابع الإسباني الذى لا يمكن للإنسان أن يخطئه . فقد ولد الفنان في الأندلس ، وقضى معظم حياته بين ربوعه ، وتشبع بالألحان النابعة منه . ولم يقتبس « دى فايا » ألحاناً شعبية إلا فيما ندر ، بل كان يؤلف أغانيه بنفسه ، غير أنها تحمل نفس الطابع الذي يميز الألحان الشعبية القديمة حتى لتبدو كأنها

منها . وقد استخدم « دى فايا » بعض الألحان القديمة فى الباليه الممتع الذى ألفه بعنوان « القبعة المثلثة » ، أخذ موضوعه عن قصة شائقة تحكى كيف استطاع بعض الفلاحين الأندلسيين أن يخاتلوا قاضى قرية كان قد تجاوز الحدود فى مغازلة الفتيات .

وهناك اثنان من الموسيقيين الحديثين يعبران عن الروح الإسبانية تعبيراً ساحراً — وهما : « اسحق مانويل فرانسسكوا ألبينز » (Isaac Manuel Francisco Albeniz) و « انريكه جرانادوس » (Enrique Granados) . ومع أنهما قطالونيان إلا أن كثيراً مما ألفاد يوحى بأحاسيس أندلسية . وأحسن الأعمال التى تعرفها لـ « ألبينز » هى « ايبيريا » ، وهى مجموعة من اثنى عشر لحناً قصيدياً قصيراً تردد إيقاعات أندلسية . وأشهر مقطوعات هذه المجموعة هى « تريانا » (Triana) ذات الموسيقى المرحة التى تحتوى على رقصة « باسو دوبلى » (paso doble) — أى الخطوتين . أما أجمل المقطوعات الاثنى عشرة فهى « البايثين » (Albaicin) التى اتخذت اسمها من حى الغجر فى غرناطة ، وتذكرنا ألحانها الحزينة بالموسيقى التى يعزفها الغجر فى ليالى الصيف .

أما « جرانادوس » فقد ألف بعض الرقصات التى استوحاها من الأندلس ، ولكنه لم يكن فى درجة اهتمام « ألبينز » و « دى فايا » بالموسيقى الشعبية . وتعتبر أوبرا «جويسكاس» (Goyescas) أهم أعماله التى أكسبته شهرة . وقد استمد موضوعها من بعض تصميمات الفنان « جويا » على الطنافس المطرزة . وعندما قدمت دار أوبرا مترو بوليتان

« فى نيويورك) العرض العالمى الأول لأوبرا « جويسكاس » تحدى مؤلفها أخطار البحر فى الحرب العالمية الأولى ليحضر حفلة الافتتاح . غير أن الباخرة التى استقلها فى طريق عودته إلى وطنه أصيبت بطوربيد ومات « جرانادوس » غريقاً . وقد دونت موسيقى « جويسكاس » كمتابعة للبيانو ، وهى غنية بصورها الصوتية الرائعة .

ولابد لأى باحث فى الفن الإسبانى أن يضمن بحثه مصارعة الثيران ، التى لا تعتبر رياضة فحسب ، بل هى فن تقليدى قديم يعكس ذوق الإسبان ومقدرتهم ، ويتطلب تحكماً عضلياً ومهارة فائقة . ويشبه مصارع الثيران الراقص فى كثير من أساليبه . فيجب أن يكون معصمه قوياً ومرناً ليضفى على حركاته البطيئة رشاقة وهو يلوح للثور بالراية (muleta) — وهى قطعة من الجوخ الأحمر ركبت فوق عصا . كما يجب أن يحرك قدميه بثقة وخفة ، وأن تعمل جميع أجزاء جسمه فى توافق تام ، لأن الجولة الأخيرة من المضارعة — التى يقف فيها الثور والمصارع وجهاً لوجه — إنما هى رقصة الموت . فالمصارع على حافة الهلاك فى كل ثانية تمر به وهو يواجه الثور . وكلما كان بارعاً زادت مجازفته وجرأته على السماح للثور بالاقتراب من جسمه إلى أقصى حد ممكن .

أما مصير الثور فهو معروف حتى قبل أن يندفع إلى حلبة المصارعة من البوابة التى يطلق عليها « باب الرعب » ؛ إذ فى حالة فشل المصارع فى الإجهاز عليه يعدم الثور فور انتهاء المصارعة . قد سن هذا القانون لحماية حياة الإنسان ؛ لأن الثور يتعلم فى

مصارعة واحدة ما فيه الكفاية لحماية نفسه ، فلا يمكن خداعه بعد ذلك ليهاجم الراية التى يلوح بها المصارع أمامه ، وبدلا من أن يهجم على الوشاح الأصفر الوردى أو الراية الحمراء الزاهية فإنه يندفع نحو المصارع نفسه ويغرس قرونه الحادة القاتلة فى حلته الموشاة بالذهب والفضة .

وإذا كان لك أن تختار المكان الذى ستشهد فيه أول مصارعة للثيران فى حياتك ، فليكن اختيارك لحلبة المصارعة فى « روندا » التى يرجع إنشاؤها إلى أكثر من مائتى سنة مضت . وهى حلبة ذات مبنى رائع الجمال ، كما أن المجتمع المحلى فى المدينة ينظر إلى مصارعة الثيران نظرة جدية . وكانت مدينة « روندا » مقراً لتدريب الرعيل الأول من كبار مصارعى الثيران المحترفين عندما تخلى الملوك والنبلاء عن هذه الرياضة — أو الفن — فاحترفها الغجر وغيرهم من فقراء القوم . وكان « بدرو روميرو » وهو من مواطنى « روندا » من أعظم هؤلاء المحترفين الأوائل فى القرن الثامن عشر ؛ وما زالت أساليبه فى المناورة بالراية وحركات قدميه تكون جزءاً من التدريب الفنى الذى يجب على المبتدئ أن يتقنه قبل أن يدخل حلبة المصارعة .

وأول مصارع ثيران ورد اسمه فى المدونات الإسبانية هو « السيد » (Cid) ، بالرغم مما يقال من أن العرب هم الذين جلبوا هذه الرياضة معهم إلى إسبانيا فى القرن الثامن الميلادى . وفى بعض لوحات « تاوروماكيا » (Tauromaquia) للفنان « جويا » يظهر المصارعون فى تلك الأزمنة القديمة ، إما على ظهور الجياد وإما مترجلين ؛

وقد حولوا الميادين العامة إلى ساحات للمصارعة ، فى كل ميدان منها مضماران (فتجرى مصارعتان فى وقت واحد) أو فى الحقول المكشوفة . وقد صور « جويا » جماعات من العرب وهم يلوحون بعباءاتهم العريضة أمام الثور بنفس الأسلوب الذى يستخدم به المصارع الحديث وشاحه . وكانت حفلات الزواج والميلاد الملكية ، وكذلك حفلات التتويج ، من المناسبات التى تقام فيها مصارعات كبرى للثيران . وقد قتل شارل الخامس ثوراً فى حلبة « بلد الوليد » احتفالا بميلاد ابنه فيليب الثانى . وكان المصارع من هؤلاء النبلاء يسمى « توريادور » (toreadore) ، فى حين يطلق على المصارع المحترف اليوم « توريرو » (torero) ، وهذه تسمية عامة لا تقتصر على الـ « ماتادور » (matador) — وهو الذى يقتل الثور — بل تشمل مساعديه أيضاً وهم الـ « بيكادور » (picadore) الذين يركبون الجياد ويحملون رماحاً ينخسون بها الثور لتهييجه ، و « البانديرليرو » (banderillero) وهم الذين يرشقون رقبة الثور بسهام صغيرة .

ويبدأ موسم المصارعة الكبير بعد ظهر يوم عيد الفصح . وتسبق ذلك مصارعات يشترك فيها المبتدئون تستغرق بضعة أسابيع . وتستطيع من عيد الفصح حتى شهر نوفمبر أن تشاهد مصارعة كل يوم أحد فى المدن الكبرى مثل مدريد وبرشلونة وبلنسية وأشبيلية ، كما أن هناك مصارعات فى مناسبات خاصة ، كتلك التى تقام فى أشبيلية بعد ظهر كل يوم فى فترة احتفالاتها . أما المدن الصغيرة فتقام بها حفلات المصارعة فى أيام أعيادها الدينية أو غيرها من أيام العطلات

الرسمية . وإذا كانت المدينة من الصغر بحيث لا توجد بها ساحات مخصصة لمصارعة الثيران فإن الأهالى يقيمونها فى الميدان الرئيسى بعد إحاطته من جميع جوانبه بالعربات الثقيلة .

وتبدأ حفلات المصارعة عادة فى الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف بعد الظهر — وهى الشىء الوحيد الذى يبدأ فى موعده فى إسبانيا . فلا تدع بدء الحفل يفتك ، لأنه مشهد رائع ببهجته وحيويته . فعندما يدخل الموظف الرسمى (الذى يسمى رئيس الحفل) مقصورته يسمع صوت نفير ويتقدم موظفان آخران عبر الحلبة على ظهور جيادهم لتحيته ، وهم يلبسون عباءاتهم وقبعاتهم المزدانة بالريش كما كان الزى فى القرن السادس عشر . ثم يظهر بعد ذلك المصارعون الثلاثة الذين سيقدمون العرض الدرامى الرئيسى لذلك اليوم ، وهم يلبسون حللا مذهلة فى منظرها : سراويل ضيقة محلاة بالمخرمات عند الركبة ، وسترات ضيقة ذات رمانات بالغة العرض فوق الكتف . والحلة التى يرتدونها ذات لون أبيض أو أسود أو أصفر أو أرجوانى أو أحمر ، وهى موشاة بالذهب والفضة ومزدانة بعدد كبير من الترتر . ويحمل كل مصارع عباءته (التى لن يستعملها فى المصارعة) مطوية تحت ذراعه اليسرى فى أثناء استعراض الافتتاح . وهذه العباءات رائعة فى تطريزها ، وقد حيكت قطعة من عباءة « جوسيليتو » الجميلة فى غطاء القطيفة الأحمر الذى كسيت به منصة قديسته المفضلة وهى « عذراء ما كارينا » فى أشبيلية . وعندما يتقدم المصارعون الثلاثة جنباً لجنب نحو مقصورة الرئيس يسير خلف كل منهم فريق

مساعديه . ويتكون كل فريق من اثنين من الفرسان واثنين من حملة السهام . وينحني الجميع للرئيس الذى يلقى إليهم بمفتاح حظيرة الثيران. فيعودون أدراجهم إلى جوانب الحلبة وفقاً للأماكن المخصصة لكل منهم ، وتفتح الحظيرة ويخرج منها الثور الأول .

وقد شبهت مصارعة الثيران بدراما من ثلاثة فصول ؛ يؤدى الفصل الأول منها « البيكادور » على خيولهم الهزيلة المسنة . فعندما ينسحب باقى المصارعين يأخذ « البيكادور » فى نخس الثور بحرابهم الطويلة ويستفزونه لمهاجمتهم المرة بعد المرة . وبعد أن يمزق الثور أحشاء عدد من الخيل ويكاد يصيب أحد الفرسان يعطى رئيس الحفل إشارة لإنهاء هذا الفصل . وعندئذ يأتى دور « البانديريليرو » الذين يأخذون فى مضايقة الحيوان الثائر برشق رقبته « بالبانديرلا » — وهى عصى طولها نحو ثلاث أقدام تحمل رؤوساً من الصلب الحاد . ومن المفروض أن يرشق « البانديرليرو » رقبة الثور بأربعة أزواج من السهام ليثيروا غضبه ويخفضوا عضلات رقبته . ويستمر هذا الفصل نحو خمس دقائق .

ثم يأتى الماتادور أو القاتل ، وأمامه خمس عشرة دقيقة ليجهز على خصمه . فإذا كان فناناً فانه يؤدي بوشاحه حركات جميلة بارعة يداعب الموت فى أثنائها وهو يدعو الثور لمهاجمته من هذا الاتجاه أو ذاك . ويشتد تحمس الجمهور إذا احتك الثور بالرجل فيمزق سترته أو سرواله ذا الألوان الزاهية ، وعندما يتناول الماتادور سيفه ورايته الحمراء استعداداً للحظة الحاسمة القاتلة فى هذا الفصل

فعليه أن يتحرك بدقة بالغـــة . فإذا هجم الثور على الراية الحمراء ومر أمامه عن قرب وهو منخفض الرأس فعليه أن يغمد السيف فى رقبة الحيوان فى موضع مرتفع بين كتفيه ، كما يجب أن تكون الطعنة الأولى قاتلة . ويطلق المتفرجون على عملية القتل هذه « لحظة الحق » .

ويتوق معظم الصبية فى إسبانيا لأن يصبحوا مصارعى ثيران . فتراهم يتدربون على حركات الوشاح فى كل مكان — بعضهم على بعض ، أو على بعض الأبقار الوديعة فى الحقول . ويروى الأهالى كيف كان « خوان بلمونته » (Juan Belmonte) عندما كان صبياً يعيش فى ضاحية « تريانا » الغجرية — يعبر نهر الوادى الكبير ليلا مع اثنين من رفاقه وهم يدفعون أمامهم عائمة خشبية وضعوا فوقها وشاحاً وسيفاً ومصباحاً لكيلا تبتل بالماء . وعند وصولهم إلى الشاطئ الآخر المقابل لأشبيلية كانوا يتسللون إلى حظيرة للثيران فيوقظون من بينها ثوراً شرساً ، ويأخذ « بلمونته » فى التلويح للثور بالوشاح بينما يقف صديقاه حاملين المصباح المضئ . ويحدث أحياناً أن يقبل بعض الصبية فى الثانية عشرة من عمرهم كمصارعين محترفين ، بالرغم من أن المبتدئ يقضى عادة ما بين ست وسبع سنوات فى التدريب وتكون سنه أكبر من ذلك كثيراً قبل أن يعترف به كفنان مصقول .

إن هؤلاء المبتدئين يعدون أنفسهم لأشق أنواع الحياة ، وهى حياة صعبة حتى بغض النظر عن الأخطار الحقيقية التى يواجهونها حلبة المصارعة . وفى موسم هذه الرياضة يكون المصارع دائم التنقل بين مدن إسبانيا المختلفة ، وعادة ما يصل إلى المكان الذى

يقصده قبل الاشتراك فى المعمعة بوقت قصير . فإذا انتهى من القضاء على الثور الأول والشمس ساطعة فإنه يكون مبتلا بعرقه ، ولا يلبث أن يشعر بقشعريرة عندما تهب عليه الرياح القوية وهو ينظر فى الظل حتى يجئ دوره لقتل ثانى ثور له فى نفس الحفلة ، أو عندما تدعو الضرورة إلى تدخله ليجهز على حيوان يهدد أحد زملائه أوأصابه فعلا. وعادة ما يشترك فى كل حفلة ثلاثة من المصارعين يقتلون ستة من الثيران . فإذا كان أحد المصارعين قليل الخبرة أو مجهداً أو عصبياً أو مريضاً مما يجعله يرتجف فى حركاته أو يخطئ فى تصويب سيفه ، فإن المتفرجين يقابلونه بصفير السخرية ويقذفون بالزجاجات الفارغة ووسائد القش التى يجلسون عليها وبكل شىء تصل إليه أيديهم . أما إذا كان المصارع فناناً وقدم عرضاً ممتعاً وأشبع المتفرجين إثارة قبل أن يصوب سيفه برشاقة ودقة إلى المكان الذى يجب أن يغرس فيه فى عنق الثور ، فإنه عندئذ يصبح معبود الجماهير ، كما تصبح المباراة العظيمة التى أداها موضوع حديث الناس فى المقاهى لعــدة سنوات ويضحى صاحبها جزءاً من الأساطير الإسبانية .

الفصل السادس عشر

الإسبانيون

كثيراً ما نسمع ونقرأ عن مدى اختلاف الإسبانيين من مكان إلى آخر فى بلادهم من حيث مميزاتهم وعاداتهم ، لأن الملاحظين عادة ما يميلون إلى استكشاف المميزات البهجة أو الطريفة والتحدث عنها . فالإسبانيون يختلفون بعضهم عن بعض فعلا ، ولكنهم فى الوقت ذاته يشتركون فى كثير من الصفات القومية . وسيدرك كل من يتجول فى أنحاء إسبانيا أن الإسبانيين متشابهون أساساً بالرغم من وجود فروق محلية .

ومن المحتمل أن يكون رأيك بالنسبة إلى معظم الإسبانيين أنهم حسان الوجوه ؛ إذ يعتبرهم بعض النقاد أجمل شعوب أوروبا . ومما لاشك فيه أنهم أحسن تلك الشعوب هنداماً ، فهم شديدو العناية بمظهرهم ، يضحون بالكثير فى سبيل اقتناء الملابس الجيدة والظهور بمظهر أنيق جذاب . والإسبانيون متوسطو الطول عادة ، ملامحهم واضحة وبشرتهم رائقة زهراء اللون لا سمراء ، يندر أن يصيبها النمش أو الحروق فى شمس بلادهم المحرقة أو رياحها القارسة . أما عيونهم فجميلة معبرة ، عسلية اللون عادة ، وإن كانت أحياناً رمادية أو خضراء ، ويعتبر اللون الأخير من سمات الجمال . وكلما

زاد بريق العيون كان هذا دليلا أكيداً على أثر الامتزاج بدماء عربية . ولون شعرهم الغالب هو الأسود ، وإن كنت تري بينهم أحياناً ذوى الشعور الكستائية أو الذهبية أو الحمراء . والنساء أجمل من الرجال ، وربما كان مرجع ذلك أن الحرب قد قضت على عدد كبير من أحسن الرجال بنية . وتكاد كل فتاة إسبانية تستحوذ عليك بسحرها وجاذبيتها إذا شاهدت عينيها الجميلتين ، وبشرتها الخلابة ، وحيويتها ، واعتدال قوامها ، ورشاقة حركاتها . ومن الطبيعى أن يختلف الإسبانيون بعضهم عن بعض فى ملامحهم وبنية أجسامهم من إقليم إلى آخر : ولعلك تذكر « الباسك » ذوي الأنوف الكبيرة ، والجليقيين الذين يشبهون الأيرلنديين . أما القشتاليون فتميل أجسامهم إلى النحافة ، فى حين نلاحظ أن أهالى قطالونية وبلنسية أطول قامة وأقوى عظاماً وأثقل وزناً ، وربما كان السبب فى ذلك أن غذاءهم أوفر من غذاء سكان الهضبة الوسطى فى قشتالة حيث الأرض فقيرة قليلة الإنتاج .

وللطعام فى إسبانيا طابع قومى لا ينسى . فبالرغم من وفرة المأكولات وتعدد ألوان الطعام الخاصة التى تشتهر بها الأقاليم المختلفة ، فإن طريقة طهوها تكاد تكون واحدة ، وهى أن يغمر الطعام بزيت الزيتون . ففى أثناء النهار تفوح رائحة الزيت المغلى الذى يعد به طعام اليوم ، أو رائحته الزنخة من بقايا وجبة الأمس ، حتى إنه يصعب على المرء أحياناً أن يفرق بين هذه الروائح الكريهة وبين منظر بساتين الزيتون الجميلة التى تلون صفحة الطبيعة بألوانها الرمادية الخضراء . ويقدم فلاحو الأندلس طبق « الجاسباتشو » (gazpacho) الذى أصبح

من الأطباق المستحبة فى جميع أنحاء البلاد ، وهو عبارة عن سلطة يدخل فيها الطماطم والفلفل والخيار والخل ، وبالطبع زيت الزيتون ، وطبق « البابيلا » (paella) الذى تتخصص فيه مقاطعة بلنسية هو الرز مطهواً بزيت الزيتون ، يضاف إليه الزعفران ليكسبه اللون الأصفر ، ويحتوى على ثوم وفلفل ولحم خنزير مملح ليعطيه نكهته الخاصة ، ويملأ بقطع من الدجاج والمحار والسجق والبسلة الخضراء . ويقدم الجليقيون الذين اشتهروا بأنهم طهاة ممتازون طبق الكرشة الذى أعد بزيت الزيتون والطماطم والثوم والفلفل الحلو . أما الباسك فيجهزون القواقع بنفس الطريقة تقريباً . ومن الأطباق الشهية التى يقابلها الإنسان على طول الساحل الشمالى ثعابين السمك الصغيرة التى سويت بالفرن بزيت الزيتون أيضاً .

وحتى « التشورو » (churro) — وهو نوع من « لقمة القاضى » يقبل عليه جميع الإسبانيين - يقلى فى زيت الزيتون . وإذا أردت أن تجرب « التشورو » فاطلب معه فنجاناً من الكاكاو ، لأن طريقة أكل الأهالى له هى أن يغمسوه فى الكاكاو . ويروى عن الملك ألفونسو الثالث عشر أنه كان يتبع هذه الطريقة الإسبانية القديمة فى تناوله « للتشورو » مما أثار اشمئزاز الملكة الإنجليزية الأصل التى انفجرت فيه يوماً قائلة : « إن العامل اليومى الأجير فى إنجلترا لا يمكن أن يشاهد وهو يغمس خبزه فى فنجان من الكاكاو ! » فجاء رد الملك : « تصورى أن هذا يحدث فى إنجلترا بينما هنا فى إسبانيا يسلك الملك هذا المسلك ؟ » .

فإذا كنت ترغب فى أن تأكل وجبة إسبانية حقيقية فلابد أن تكون على استعداد لتناولها بزيت الزيتون . ومع ذلك فإذا فضلت الاقتصار على تناول ثمار الزيتون الصغيرة الشهية الناضجة التى تباع فى كل مكان — دون زيتها — فعليك بارتياد الفنادق والمطاعم السياحية التى لا تستخدم طرق الطهو القومية إلا فى نطاق محدود جداً .

وهناك ثلاث كلمات أساسية فى وصف الحياة اليومية فى إسبانيا ، وهى الـ « سييستا » (siesta) ، والـ « ترتوليـا » (tertulia) والـ « باسيو » (paseo) : أما السييستا فهى ذلك السكون الشامل الذى يخيم على أكثر المدن الإسبانية نشاطاً لمدة ثلاث ساعات أو أكثر بعد وجبة الغداء ، فتبدو المدينة مهجورة كأصغر قرية نائية . فالنعاس يلحق بالمدينة والقرية على السواء عندما يذهب سكانها إلى منازلهم لإغفاءة بعد الظهر . فقد يقع نظرك على فلاح أو عابر سبيل وقد أغفى تحت ظل شجرة أو شجيرة أو فى ظل صخرة أو حائط ، أو فى أى مأوى يجد فيه حماية من أشعة الشمس القاسية .

وأما « الترتوليا » فتطلق على اجتماع الأصدقاء فى المساء ، وعادة ما يكون ذلك فى مقهى لأن الإسبانيين لا يميلون إلى استقبال أحد فى منازلهم . « والترتوليا » بالنسبة إلى الإسبانى فرصة يمارس فيها ملكته فى التحدث ، فيتبادل هو ورفاقه الآراء فى جميع الموضوعات من مصارعة الثيران إلى الشعر إلى السياسة . أما الأغنياء والوجهاء فهم وحدهم الذين يفتحون قصورهم لاستقبال ضيوفهم ويقيمون بها الحفلات . ويكرم الإسبانى ضيفه الأجنبى عادة فى فندق أو مطعم

أو مقهى ، ما لم تكن بينهما روابط عائلية أو أواصر شخصية وثيقة ، فى هذه الحالة يفتح للضيف أبواب منزله .

وأما « الباسيو » فهى النزهة المسائية فى المدن الصغيرة ، فعندما تخرج السيدات والفتيات « للتمشية » فى جماعات من اثنتين أو ثلاث حول الميدان الرئيسى فى اتجاه معين ، فى حين يسير الرجال والشبان فى جماعات مماثلة فى الاتجاه المضاد . وحين يلتقى الشبان والفتيات المرة بعد الأخرى فإنهم يتبادلون النظرات أو الابتسامات الخفيفة التى تحمل معانى الإعجاب والتودد دون حاجة إلى تبادل كلمة واحدة . وبعد انتهاء فترة « الباسيو » المسائية تستمر الأضواء والحياة الليلية المرحة فى بعض شوارع المدينة حيث المقاهى والمحلات التجارية . أما المدن الصغيرة فيطبق عليها السكون والظلام بسرعة بعد انتهاء « الباسيو » .

وتلقى إشارات الغزل الخفية التى يتبادلها الشبان والفتيات فى « الباسيو » ضوءاً على وضع الفتاة فى المجتمع الإسبانى . ففى جميع أنحاء إسبانيا تقريباً تفرض حراسة على الفتيات ولا يسمح لهن بشىء من الحرية التى تتمتع بها البنات فى أمريكا . وقد حدث أخيراً أن رست سفينة تدريب أمريكية تابعة لإحدى المدارس الحكومية فى ميناء « سانتاندر » على الساحل الشمالى لإسبانيا . فنظم الطلاب الضباط حفلة راقصة دعوا إليها عدداً من بنات الأسر المحلية وأخذوا فى اعتبارهم من سيصحبوهن من مرافقات . فوصل الضيوف عند منتصف الليل

— بعد الميعاد المحدد بساعتين ونصف ساعة فقط — وكانت الفتيات مصحوبات بآبائهن أو إخوتهن الذين لم توجه إليهم دعوة . ولكن بالرغم من زيادة عدد الرجال وتأخر الوقت فقد نجح الحفل نجاحاً كبيراً .

أما إذا كانت السفينة قد رست فى أحـــد الموانئ الجنوبية فى إسبانيا ، فمن المحتمل أن هذا الحفل الراقص لم يكن ليتم على الإطلاق ، لأن الآباء لا يسمحون لبناتهم — مهما كن فى حراسة مرافقات — بحضور حفل يدعو إليه شبان لا يعرفهم الآباء معرفة وثيقة . ومازالت الفتيات فى أشبيلية وغيرها من مدن الجنوب يعشن فى ظل حراسة شديدة ولا يخرجن فى الشوارع إلا فى صحبة شخص يكبرهن سناً . أما فى المدن الكبرى مثل مدريد وبرشلونة فإن هذه التقاليد الصارمة القديمة فى طريقها إلى الزوال فى محيط النساء العاملات أو طالبات الجامعات ، حيث نشاهد أن الكلفة قدقلت ، وأن الصداقة والزمالة أكثر وضوحاً بين الشبان والفتيات . ومع ذلك فان الفتاة الإسبانية بوجه عام لا يمكنها أن تضرب موعداً لشاب ، أو أن تصحبه بمفردها إلى مطعم أو إلى دار للسينما . أما إذا كانت مصحوبة بأحد أفراد أسرتها فإنها تستطيع أن تقابل الشبان فى حفلات الشاى أو الرقص أو غيرها من المناسبات ، أو أن تذهب إلى مسرح أو سينما بدعوة من أحد الرجال .

على أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذه العادات الإسبانية القديمة آخذة فى التغير ، وأن التشدد والتكلف يذوبان ببطء من الحياة

العائلية . ومن أمثلة ذلك أنه من جيل مضى كان الآباء الإسبانيون يستعملون ضمير المفرد « أنت » (tu) عند مخاطبتهم لأولادهم ، فى حين كان هؤلاء يشبون على استعمال كلمة « أوستد » (usted) التى تحمل معنى التبجيل والاحترام وتعادل كلمة « حضرتك » بالعربية . أما اليوم — وفى نفس تلك الأسر — فإن الأحفاد يستعملون ضمير المفرد ، لا فى مخاطبة آبائهم وأمهاتهم فحسب ، بل مع أجدادهم الذين ما زالوا ينتظرون من أبنائهم الكبار أن يخاطبوهم بكلمة « أوستد » .

لقد تعرضت العادات والتقاليد الإسبانية إلى عدد كبير من المؤثرات الخارجية لم يكن لها به عهد من قبل ؛ إذ لم تشهد البلاد مثلما تشهده الآن من أفواج السائحين الأمريكيين والأوروبيين الذين تزدحم بهم فنادق إسبانيا الجميلة واستراحاتها الحكومية . ويستخدم هؤلاء السياح الطرق الرئيسية الجيدة — بل وبعض الطرق الفرعية الشنيعة — للتوغل فى البلاد والوصول إلى الأماكن النائية التى لم يطرأ على الحياة فيها تغيير يذكر من قرون مضت ، والتى يثير فيها منظر الغريب تعجب الأهالى وفضولهم إلى الحد الذى يرى الزائر نفسه فيه محاطاً بأفواج من أطفال القرية يتبعونه أينما ذهب . وبالإضافة إلى أثر السياح وتصرفاتهم فإن القواعد البحرية والجوية الأمريكية فى الأراضى الإسبانية لابد وأن تؤثر فى حياة السكان . فإن إنشاء هذه القواعد وصيانتها يتطلب استخدام أعداد كبيرة من الأيدى العاملة الإسبانية ، كما أن مسلك الأمريكيين الذين يعملون فى هــذه القواعد يعكس

محاسن الحضارة الأمريكية ومساوئها . ثم أضف إلى جميع هذه المؤثرات الخارجية حالة القلق المتفشية فى الشعب الإسبانى نفسه ، والتى ترجع إلى آثار الحرب الأهلية . فكثير من الإسبانيين يهجرون مزارعهم وبلدانهم الصغيرة وينزحون إلى المدن الكبيرة أملا فى الحصول على عمل مستقر وأجر أعلى .

على أن سكان المدن سرعان ما يفقدون السجايا الفردية الجذابة التى تميز أهل الريف . ولذلك فإن التحول الذى يقوى الفلاح الإسبانى يعد خسارة للمجتمع ، لأنه يعتبر فى الوقت الحاضر « الجنتلمان » أو الشريف الحقيقى فى أوروبا . ويستخدم الفلاح الإسبانى طرقاً بدائية جداً فى زراعته ، فقد استبد به الفقر إلى الحد الذى يحول بينه وبين امتلاك محراث أو بغل . وتعمل زوجته معه جنباً إلى جنب فى الحقل ، كما تقوم النساء بغسل ملابس الأسرة فى أقرب جدول مائى مستعينات بحجر مسطح بدلا من اللوح الخشبى الذى يستخدم عادة فى المنازل . وبالرغم من أن بعض الفلاحين أميون فإنهم يتميزون بموهبة طبيعية للتحدث ، وكذلك بالوقار والمجاملة ، ومعرفتهم الدقيقة بالمنطقة التى يعيشون فيها ، وفوق كل هذا — بالأمانة الشخصية . وكثيراً ما يكون الإسبانى فناناً مطبوعاً ، ففى الأندلس يرتجل الفلاح والراعى وسائق البغال أغانى وأشعاراً بنفس السهولة التى يتحدثون بها ، كما أن كل أندلسى يجيد العزف على « الجيتار » .

وتوصف إسبانيا أحياناً بأنها أكثر بلاد أوروبا ديموقراطية ، ففيها يستطيع الدوق والفلاح ورجل السياسة والتاجر والميكانيكى أن

يجدوا موضوعات تهمهم جميعاً وتصبح مادة لحديثهم — سواء التقوا في حفل مصارعة أو في قطار أو سوق أو مقهى . ومما يجعل هذا الاختلاط ميسوراً وممكناً أن كل فرد منهم لا ينسى وضعه في المجتمع ولا يشعر بأدنى عار من مهنته . فالميكانيكي فخور بأنه ميكانيكي كفخر الدوق بألقابه . ولا يجول بخاطر أحدهما أن يتبادل مركزه مع الآخر .

إن هذه العصبية وهذا الشعور بأهمية الفرد متأصلان في طبيعة الإسبانيين إلى درجة أنها تظهر في ألقاب الأسر . فالإسباني يحتفظ بلقب أمه إلى جانب لقب أبيه لكي يميز نفسه قدر استطاعته عن كل شخص آخر . وقد يبدو هذا الإجراء لأول وهلة معقداً في نظر الغرباء ، ولكن من الممكن إيضاحه بسهولة . فالاسم الكامل للفنان « جويا » — على سبيل المثال — هو « فرانسسكو جويا اى لوسينتس » (Francisco Goya y Lucientes) ، وهو يدلنا على أن لقب والد الفنان هو « جويا » ، ولقب والدته هو « لوسينتس » (ويرد لقب الأم دائماً في نهاية الاسم) . ولو شاء « جويا » أن يعرف بلقب أمه لفعل ذلك — كما فعل ذلك الفنان الآخر الكبير « بيلاثكث » الذى اسمه الكامل « دييجو رودريجس دى سلبا اى بيلاثكث » (Diego Rodriguez de Silva y Velasquez) وكان أبوه نبيلا برتغالياً وأمه من أسرة « بيلاثكث » التي كانت تقيم بمدينة أشبيلية . وربما كان سبب اختيار الابن للقب أمه هو أنه اسم مشهور في أشبيلية . وكذلك أيضاً بالنسبة إلى الشاعر « لوركا » واسمه

الكامل « فرديريكو جارسيا لوركا » (Federico Garcia Lorca) الذى فضل — لسبب ما — أن يعرف بلقب أمه لا بلقب أبيه .

ويربط الشخص أحياناً لقبى والديه ربطاً لا ينفصم . مثال ذلك الكاتب القصصى « فيسنته بلاسكو ايبانييز » (Vicente Blasco Ibanez) الذى أصر على أن يعرف باللقبين معاً : « بلاسكو ايبانييز » .

ولنأخذ مثلا آخر . حدث أن تزوج مصارع الثيران الشهير « اجناسيو سانتشس ميخياس » (Ignacio Sanchez Mejias) من شقيقة مصارع آخر اسمه « خوسيه جوميس اى أورتيخا » (Jose Gomez y Ortega) — الذين كان هواة المصارعة يسمونه « خوسيليتو » (Joselito) . فإذا فرضنا أن اسم العروس كان «ماريا» (Maria) ، فيكون اسمها الكامل قبل الزواج « ماريا جوميس اى أورتيخا » ، ويصبح بعد زواجها « ماريا جوميس دى سانتشس » فإذا ما أنجبت طفلا وأعطته الاسم الأول لوالده فإن اسمه يصبح « اجناسيو سانتشس جوميس » أو « اجناسيو سانتشس اى جوميس » إذ أن كلمة « أى » تعادل حرف العطف « و » ويمكن الإبقاء عليها أو حذفها . وبهذه الطريقة لا يمكن أن يحدث لبس بين اسم الوالد واسم ابنه .

ومن الكلمات التى يلقى استخدامها ضوءاً على تفكير الإسبانيين كلمتا «دون» (don) و « دونيا » (dona) . ففى القرون الماضية كان استعمال هذه الألقاب مقصوراً على مخاطبة أفراد الأسرة المالكة

وكبار النبلاء . ولكن ما جبل عليه الإسبانيون من حب المجاملة ورغبة كل فرد منهم فى أن يعامل باحترام هبطت باستخدام هذه الألقاب إلى المستوى الشعبي . فيمكنك الآن أن تفخم أى شخص محترم بأن تسميه « دون » إذا كان رجلا أو « دونيا » إذا كانت سيدة . ولكن هذه الألقاب لا تستعمل بتاتاً ما لم تكن مصحوبة بالاسم الأول للشخص الذى تخاطبه ، ولك أن تضيف لقب الأسرة إذا شئت ، ولكن لا تحذف الاسم الأول . فالشاعر « لوركا » مثلا يمكن أن تخاطبه « سنيور لوركا » أو « دون فريديريكو » أو « دون فريديريكو لوركا » .

و « ايدالجو » (Hidalgo) اصطلاح آخر ينبض معناه بالكبرياء ويعكس موقف الإسبانيين من الحياة . وهذه الكلمة مختصرة من « ايخو دى آلجو » (hijo dc algo) — وهى تعادل بالعربية « ابن ناس » ، ويفهم منها أن الـ « ايدالجو » ابن شخص هام أو مشهور وإن لم يكن بالضرورة من النبلاء . وقد جعل « سرفانتس » من بطله « دون كيخوته » ايدالجو تفخيماً له ، مع أن دخله المادى والوسط الذى نشأ فيه اضطراه أن يعيش معيشة ريفية فقيرة . وكان لملوك إسبانيا حق الإنعام على أى فرد من رعاياهم بلقب « ايدالجو » الذى كان يعتبر تكريماً يسعى الجميع للحصول عليه ، وكان يمنح غالباً كتقدير بشجاعة نادرة أو عمل بارز . ولقد قال فيلسوف إسبانى حديث إننا يجب أن ننظر إلى الـ « ايدالجو » ، لا على أنه وريث ثروة دنيوية ، بل وريث تلك الخلال التى يسميها الفضيلة .

وينعكس هذا التفكير وهذا الاحترام الذاتى فى سلوك الإسبانيين . فكم من سائح عابر فى إسبانيا اليوم عاد إلى بلاده بقصة عن صاحب متجر أو سائق تاكسى أو خادم فى فندق حمل نفسه مشقة لبسدى مساعدة إلى أحد الغرباء أو ليبرهن على أمانته المطلقة .

ومهما يكن الإسبانى فقيراً أو وضيعاً فانه يتسم — كقاعدة عامة — بالدماثة ورقة الجانب ، تربأ به كرامته أن يغنم من غيره مغنماً غير شريف . ويكاد الإحساس البالغ بالعزة والكرامة — أو ما يسميه الإسبان « بندونور » (pundonor) يتغلغل فى نفوس جميع السكان وعددهم نحو الثلاثين مليوناً . وتعبر هذه الكلمة عن كنه الفضيلة لدى الإسبانيين . وإذا حاولنا أن نترجم « بندونور » فهى تعنى غيرة الفرد الشديدة على احترام الغير له ، ذلك الاحترام الذى يفرضه سلوكه القويم ، كما تعنى شرفه وسمعته الطيبة اللذين ينبغى عليه أن يصونهما حتى ولو كلفه ذلك بذل حياته .

إن « بندونور » كلمة تحمل كثيراً من معانى الكبرياء والغرور بما تتطلبه من احترام الآخرين ، كما أنها كلمة درامية كانت محوراً لأكثر من مأساة إسبانية على المسرح وفى الحياة العادية . فإذا توصلت إلى فهم أناس جد حريصين على التمسك بأهداب الشرف فيحيون به ويموتون من أجله فإنك سوف تعجب بإسبانيا والإسبانيين .

صدر من هـــذه السلسلة

اندونسيا	شعبها وأرضها	ترجمة حسن محمود
اليونان	شعبها وأرضها	ترجمة محمد أمين رستم
ايطاليا	شعبها وأرضها	ترجمة الدكتور محمد نظيف
سويسرا	شعبها وأرضها	ترجمة كمال الملاخ
الهند	شعبها وأرضها	ترجمة عمد محمد عبد الفتاح ابراهيم
انجلترا	شعبها وأرضها	ترجمه زينب محمود جوهر